خيرى شلبى

فلاح مصرى فى بلاد الفرنجة

دار المعارف

فلاح مصرى فى بلاد الفرنجة — خيرى شلبى — دار المعارف

هذا الكتاب

فلاح مصرى ركب البحر .. إلى بلاد الفرنجة ..

وقف منها موقف المتفرج اليقظ ، مأخوذ حيناً بما يرى ، ومتأملاً حيناً آخر ..

ويمضى عليه الوقت حتى يتكيف مع أية بيئة جديدة .. ولا يحدث ذلك له إلا بعد أن يلتقط من هذه البيئة ما يلقى صدى فى نفسه ، على نفس الدرجة من الانفعال والترقب ..

ويحتج أحياناً على مواقف يتعرض لها ، فلا يجد مفراً من تجاوزها واستكمال رحلته الطويلة إلى بلاد الفرنجة .. يعود بعدها فلاحاً إفرنجياً

ص ٨٥

إهداء

إلى "إسلام" - ولدي الحبيب ..

لم تكن أنت في حساباتي ، ولم تكن تفكر في إنجابك ،
ولكن هذه الرحلة كانت السبب في مجيئك .. فانظر
كم هي عزيزة علي ؟ .

خيري

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الفصل الأول

كيف اكتشف الفلاح معنى خراب مالطة ؟

١

أخيراً قدر له أن يركب البحر . .

وقدر للفلاح أن يسافر إلى بلاد الفرنجة . .

وقدر لكاتب هذه السطور أن ينسلخ عنها ويتخذ منها موقف المتفرج اليقظ ، لا تسألوه عن ظروف السفر ، ولا كيف أو على نفقة من ياترى ؟ فتلك رواية قائمة بذاتها . ينوى الفلاح أن يفرجكم عليها فى سامر كبير . والأهم من كل ذلك الآن هو أنه فجأة ودون أن يتوقع وبلا أى مقدمات وجد نفسه راكباً على سفينة البضائع المصرية (رمسيس) التى تقوم برحلتها العذراء فى خط الشمال ، ليقوم هو الآخر برحلته العذراء فى أى خط من خطوط العالم .

أما هذا الفلاح فهو أنا ، وأما أنا فذلك الذى يرى ، وأما ذلك الذى يرى فهو كاتب فى مملكة الكلمة المطبوعة . وبالتحديد فى بلاط صاحبة الجلالة الصحافة .

والمسألة فى الحق ليست لغزاً على الإطلاق ، فهؤلاء الثلاثة – الذين فيهم أنا – هم ذلك الشخص الذى أمسك بالقلم ذات يوم ، ليفك به الخط فى كتاب القرية فلا يدعه من يده أبداً إذ كان عليه أن يحمله على كتفه كالفأس ويرحل به « لقيد » أسماء الأنفار فى وسية محمد على باشا . . على أن الأنفار الملاعين كشفوا له عن وظيفة أخرى للقلم ، فصارت مهمته الحقيقية بعد ذلك « تقييد » شكاواهم وعرض حالاتهم وسلاماتهم إلى أهلهم وذوى قرابتهم فى القرى البعيدة . وكان يجد فى ذلك لذة . لأن هذه الشكاوى « والعرضحالات » والسلامات لم تكن فى الواقع إلا بعض ما يعانيه فى ذات الرحلة الأزلية « المكتوبة » عليه منذ الصغر . فلما ساد الاعتقاد بأن صندوق البريد يتآمر ضد الأنفار هو الآخر ويبتلع الخطابات فى جوفه مجاملة للسادة النجب أردنا أن نكيد له بنشرها فى « المصرى » و« الأهرام » وظل ذلك الفلاح الذى أمسك بالقلم يبحث عن كلمات وأساليب تؤثر على قلب الجرنال وتقنعه بنشرها حتى وجد نفسه فى النهاية يحترف الكتابة ، ويكتشف للقلم آفاقاً وأبعاداً تتجدد كل يوم .

والواقع أنه حين صار كاتباً فى منتصف العمر لم يسعده ذلك ، لأنه فى جميع قرى الوسية كان ينادى بالكاتب . وهو بعد لم يجد ثمة فرقاً يذكر ، لأنه بعد لا يزال يرى أن المهمة التى بدأها فى وسية محمد على باشا لم تنته ، بل لم تبدأ بعد على حقيقتها : تقييد شكاوى الأنفار وعرضحالاتهم ونقل سلاماتهم إلى أهليهم وذوى قرابتهم فى « البلد » ، إنما الذى أسعده بحق هو أنه صار يعيش فى أم الدنيا يعنى مصر . ومازلنا فى قريتنا حتى الآن حين نقول : مصر – فإنما نعنى القاهرة وحدها .

كانت القاهرة هى منتهى طموحه ومرتع أحلامه ، ولم يكن خيال الفلاح – نفر الوسية – يمتد إلى أبعد من ذلك ، أما خيال ذلك الذى يكتب فإنه رافق « توفيق الحكيم وطه حسين ومحمد مندور فى باريس » ولف وراء أنيس منصور فى أسفاره إلى بلاد الله خلق الله وحول العالم فى مائتى يوم ، وجاب مدن العالم وقراها من خلال

أدبها وشعرائها ومسرحييها . وأما الذى يرى فإنه افتقد الشارع الأوربى فى كل ما قرأ من أوربا ، فبقدر ما استفاد مما نقله المسافرون من أحاديث المثقفين الأجانب وأخبار مجتمعاتهم . وسلوكهم الحضارى ومنجزاتهم العلمية – ازداد شغفه لرؤية الشوارع فى هذه المدن البلورية ، برغم ذلك لم يقدم على المحاولة ربما لأن شغلة الأنفار علمته الكدح لوجه الكدح وحده دون أمل فى عائد مجز يمكنه من ممارسة الحياة كبقية خلق الله . ربما لأن أهله يفلحهم لم يبذروا فيه حب المغامرة ، ربما لأن تراث أهله من الحكم والأمثال أحبط فيه روح التوثب والانطلاق ، إذ نبهوا عليه منذ الصغر أن يمشى « جنب الحيط » وأن « يمشى سنة ولا يخطيش قنا » ! . .

ويقولون فى قرانا : إن الفلاح إذا ارتقى يجىء لأهله بمصيبة ! وتفسير هذه المقولة المشهورة إن الفلاح حين يرتقى سيكون عليه بالضرورة أن يستخدم أشياء ، ويرتدى أثواباً ، ويتورط فى مواقف ، ويحتل مركبات لا قبل له بها ولا قدرة لديه على استخدامها ، مما يوقعه حتماً فى مصيبة ، ذلك أنه إذا استطاع التحرر من حشمة الفقر فإنه لن يقوى على بهدلة العز ! وقد ظل « حامل القلم » الفلاح يتجنب هذه البهدلة ولا يأمن جانبها ، كما ظل يخشى الأبواب ذات الحراس خشيته من الناظر والمفتش والمندوب ومجلس الوسية . أما ذلك « الذى يرى » فقد حاول الاستقلال بنفسه كواحد من حقه أن يدخل الأبواب ويصعد الأدوار ! إلا أن « الفلاح » كان يثبت له فى نهاية كل جولة أنه لا يزال نفراً . مجرد نفر تغير زيه ، وتغيرت وسائل عيشه ليس إلا . . !

غير أن الرياح التى تأتى دائماً بما لا تشتهى السفن جاءت هذه المرة بما يشتهى « الفلاح » وحامل القلم » و « الذى يرى » ! ضحك « الفلاح » وجز على أنيابه من فرط الغبطة ، وحاول الكاتب أن يترفع عليه بعض الشىء ، ولكن الذى يرى أخرج لها لسانه وعيرهما بالجهل فى اللغات وبالتخلف الفنى والفكرى والاجتماعى ! وهنا

صرع الكاتب للفلاح بأنه السبب فى كل ذلك إذ هو بطىء الفهم فى عصر يفهمها وهى طائرة ! طيب القلب فى بيئة بلا قلب ! ولو طالت المناقشة لانتصر «الفلاح» على الكاتب وأبقاه رهين المحابس .

وإذ وضع الكاتب قدمه على ظهر السفينة كان يظن أنه انسلخ من «الفلاح» وتركه فى الدار يرسف فى قيوده ، ويجتر ذكرياته البائسة ، لكن السفينة ما إن تحركت فى عرض المتوسط ، واجتازت البوغاز — حتى أطل «الفلاح» برأسه من النافذة ، وكانت القمرة وممرات السفينة وطاقمها وصالونها ومياه البحر — كل ذلك يشهد أن الذى كان على ظهر السفينة لم يكن سوى «الفلاح» و«الفلاح» فحسب .

٢

لم تكن «مالطة» واردة فى جدول الرحلة ، فالسفينة لن تفرغ بها أى شحنات ، وليس مقرراً لها أن تشحن منها ، لكن بعد ثلاثة أيام من تحركها فى البحر بدأت تتردد فى أنحائها همسات حول التوقف فى مالطة . وحين جلس «الشيف أوفسر» فى الصالون لتناول الغداء كان يتشكل حواراً مع مهندس الضبان ومهندس الكهرباء حول خزانات المياه ، وتتناثر بينهم كلمات تتهم الصناعة الروسية بالغباء والتعقيد وعدم الدقة ، وتتهم رجال الصناعة الروس بالتحايل ، إذ يبيعون للترسانة المصرية ماكينات بطل استعمالها من سنوات !

وفهم «الفلاح» من المناقشة أن هناك تسرباً فى خزانات المياه ، وفى عصر ذلك اليوم صار الحديث عن المياه صريحاً لا ملمحاً ، وصار «الشيف أوفسر» — أى كبير الضباط — ينزل إلى الخزانات ، ويحاول قياسها ، فيكتشف أنه أمام تناقض

واضح : فبحساب أحجام الخزانات يصبح لديه مائة وستة وثلاثون طناً من الماء الحلو الصالح للشرب والطبخ والاستحمام وغسل الهدوم والأطباق ، يخصم منها استهلاك الأيام أو الساعات التى مضت منذ تحركت السفينة ، فإذا علمنا أن الاستهلاك الطبيعى لهذه الساعات لن يزيد بحال على مقدره المألوف إلا ببضع صفائح مثلاً — فحجم الباقى من الماء كافيا لبقية الرحلة ، ولكن قراءة العداد تقول . إن حجم الاستهلاك قد زاد على الحد بشكل مذهل ، وفى الوقت نفسه فإن دفاتر البروتوكول التى تعتبر بمثابة العقد المبرم بين الترسانة المصرية والاتحاد السوفييتى — وهى دفاتر تتعدد بتعدد المراحل التشريحية لأجزاء السفينة وآلاتها وأجهزتها بوجه عام — تقول : إن الخزانات تسع لحجم هو فى الواقع أقل من الحجم المدون على الخزانات ! فلما حاول «الشيف أوفسر» مطابقة هذا بذاك بطريقة علمية — اتضح أن هناك خزاناً لا يستطيعون قياسه منفرداً .

ولما سأل الفلاح «الشيف أوفسر» : لماذا لم يدرسوا هذه التفاصيل قبل أن تبحر السفينة قال : إنه هو والقبطان و«الشيف إنجينير» — أى كبير المهندسين رفضوا تسلم السفينة من الترسانة لعدم فهمهم أجزاءها من ناحية ، ولنقص فى تجهيزها من ناحية أخرى ، فلم يفهم «الفلاح» هذه المسألة . وفى المساء أرسل الربان برقية إلى الشركة تقول : إن السفينة استهلكت ستة وأربعين طناً من المياه فى يومين لسبب غير واضح ! فردت الشركة ببرقية أبدت فيها عدم الاقتناع ، ولكنها توافق على التوقف للتزود بالمياه من أقرب ميناء .

٣

التقى «البايلوت» — المرشد والسفينة قرب ميناء مالطة موفداً من قبل

«الإيجنت» . فقال الفلاح : وما الإيجنت هذا ؟ قالوا : إنه الوكيل ، وكيل الشركة في مالطة وأن للشركة وكلاء مثله في كل المواني ، وإن على الوكيل أن يستقبل السفينة ويذلل أمامها أي عقبات ، ويعطيها نقوداً إن أرادت ، وما على الربان إلا أن يوقع له على أوراق يتم تحصيلها فيما بعد عند تسوية الحسابات بين الشركة «والإيجنت» . ولما كانت السفينة في غير حاجة إلى شحن أو تفريغ ومن ثمّ في غير حاجة إلى حجز مكان في رصيف الميناء تدفع له رسوماً فإنها توقفت على مقربة من الميناء وأحاطت بها «لنشات» الإيجنت ، وصعد منها وكيله ثم صعد البوليس واقتحم عليهم قمرة الربان . وكان الزميل «حسين» مشغولاً مع الربان في حديث حول كتبه التي صدرت ونفدت كلها والتي وزع منها نسخاً على بعض أفراد الطاقم . واستجاب الربان لمطلب حسين بأن طلب من وكيل الوكيل تدبير جولة للصحفيين في مالطة .

كان ثمة قارب ينتظر أسفل السقالة في عرض البحر ، ونزلوا يتقدمهم الوكيل ، ثم قفزوا إلى القارب ذي الآلة فراح يمخر الموج الذي بدا أمامهم كبحر صغير حتى إذا ما وصلوا إلى الشاطئ استقلوا عربة الوكيل إلى مقر شركة التوكيلات البحرية .

ولما وضع الفلاح قدمه على رصيف شاطئ مالطة خيل إليه أنه أمام مدينة إقليمية صغيرة من تلك المدن على ضفاف النيل : فعلى الشاطئ مجموعة من المباني الواطئة وجهاتها تشبه الدكاكين مع أنها في أغلبها منازل سكنية . صعدت بهم العربة ربوة صخرية عالية يقوم عليها صفان متقابلان من الدكاكين الصغيرة ذات الخط الواحد ، وكانت قريبة الشبه بدكاكين حي زنقة الستات في الإسكندرية غير أنها كانت مغلقة ولم يكن هناك حريف واحد . وكان «الفلاح» قد انتهز فرصة «الحوار الصحفي» الذي راح يمارسه الزميل حسين ، واستغرق في صمت لم يعهده في حياته من قبل ، ولم يكن يريد أن يتذكر شيئاً ، لكن بلدة مصرية صغيرة اسمها «فوه»

حضرت في الحال ، فقال الفلاح لنفسه : لابد أن المدن في كل البلاد متشابهة .

كان الشارع الذي تسير فيه العربة قد بدأ يرتفع عن شاطئ البحر بما يوازي ارتفاع عمارة من ثلاثة طوابق تقريباً ، وكان ملتوياً بطريقة عجيبة ! فالعربة تتعوج لتدخل في حوداية جديدة ، ثم إذا بها في الحال تتعوج عوجة مضادة لتدخل في فتحة شارع جديد ، وكأن المدينة عند تصميمها البدائي القديم كانت مجرد أبواب في الفضاء صنعوا لها بيوتاً ! ويرجح الفلاح أن هذه البيوت مجرد ارتفاعات للأرض القائمة فوقها ، إذ من الواضح أنها - الأرض - مسطحات جبلية متجاورة انحسرت عنها مياه البحر ، وحددت كل منها حجم البيت الذي يمكن أن يقام فوقها ! ويخيل إلى الفلاح أن هذه المسطحات الجبلية الصلدة ظلت سامقة إلى أن جاءها ذلك الفرعون المسمى بالإنسان ، فجوفها من الداخل ، وصنع لها الأبواب والشبابيك ، ثم إن تخطيط الشوارع غريب ، ومنظر البيوت أغرب ومع شدة غرابتها فالمدينة مألوفة للفلاح جداً ، ويكاد يجزم أنه (تجول) فيها من قبل ، ويكاد يتصور أنه قد كان له فترة صبا قضاها في هذه المدينة ثم اندثرت فيما يندثر من ذكريات مهملة ، وها هي ذي تبعث الآن من جديد ، كما ينحسر غشاء القتامة عن شخص فاقد للذاكرة !

٤

فجأة انتبهوا جميعاً ، وصاحوا يطلبون من وكيل الوكيل أن يتوقف برهة يسيرة وكانت العربة قد استقامت في شارع مستطيل اسمه شارع الجمهورية ضيق لا يتسع إلا لاتجاه واحد . وكانت هناك عربة تتسلق منحدراً إلى اليمين مثل سلحفاة تتسلق جبلاً هائلاً ، وكانت مقبلة نحوهم من اليمين ، وعليهم أن يفسحوا لها مكاناً قبل أن

تخترق شارع الجمهورية بالعرض ، لتدخل فى الجزء الثانى — من الشارع المقبلة منه ، ثم إنهم نزلوا من العربة وتقهقروا إلى الخلف ، ووقفوا على رصيف الشارع ينظرون فى المنحدر الخالى حين كانت العربة المتسلقة قد أثبتت عجلتيها الأماميتين فى أرض شارع الجمهورية ، وأخذت الاتجاه الصحيح ثم انطلقت .

أول شيء أذهل الفلاح فى المنحدر وجود صف من العربات المنتظرة بعضها خلف بعض . تابع الانحدار حتى انتهى به البصر إلى قاع سحيق ذى قاعدة تمتد بضعة أمتار على أرض مسطحة ولامعة مثل البلور ! يرتفع فى نهايتها مرتفع جبلى آخر . وتعجب الفلاح كيف تتمكن العربات من السير فى هذا الشارع ؟ إنه — الشارع — يتخذ اتجاهاً واحداً بالطبع ، ولكن أى سائق هذا الذى يملك أعصابه حين يجد نفسه معلقاً بالعربة فى الهواء فوق قمة ستهوى به إلى قاع سحيق لتصعد به إلى أعلى مرة أخرى ؟ لاشك أن السائقين هنا تعودوا طبيعة المكان واكتسبوا بسببه مهارات أكثر .

٥

قال المرافق : إن الإخوة الليبيين ينتشرون فى مالطة ويشكلون أكبر نسبة من العرب هناك ، وكان البحر قد اختفى من شوارع المدينة تماماً حين انتهوا إلى هذا القول . وقرر « الفلاح » أن البحر وراءه بمسافة كبيرة ، وكانوا قد تركوا عربة الوكيل وأخذوا يسيرون على أقدامهم . وأبداً لا تريد الأرض أن تستقيم ، فذكرته بأول يوم لبس فيه النظارة الطبية ، إذ كانت الأرض تميل أمامه ثم تنحنى ثم تنفتح صاعدة إلى أعلى !

اقتادهم الوكيل إلى (وسعاية) جميلة لايريد الفلاح أن يسميها ميداناً ، لأنها

مثل أى « وسعاية » فى أى مدينة إقليمية لعب فيها الكرة الشراب . رأى بيتاً من خمسة طوابق عالية يمتد على مساحة مستطيلة فكان فى الواجهة جدار واحد تعلقت به خمسة صفوف من المشربيات المدهونة باللون الزهرى ، كلُّ مشربية تسع لتناول الشاى مع أسرة صغيرة . تذكر الفلاح أن العرب عاشوا فى هذه الجزيرة عدة مئات من الأعوام ، ثم تقدم نحو سوربيدو مهجوراً لحديقة تظهر أطرافها الخضراء ، فتسلقه بشقاوة الصبيان ، ونظر فإذا البحر يمتد أمامه عريضاً خرافيًّا ، وينساب حول المدينة ، وإذا بمدينة صغيرة تقف وسط البحر ، ولا يظهر منها سوى أعمدة « رومانية قديمة منهارة ، وبعض أبهاء وبعض مدرجات ، وأطراف البيوت العالية ترتفع من بعيد وتتداخل بعضها فى بعض ، فبدا المشهد كأنه (ديكور لمسرحية) يراه المتفرج فى النهار حيث لا تمثيل ولا إخراج ولا جمهور دقق النظر جيداً ، فخيل إليه أنه يرى مدينة من مخلفات الحرب تركها أهلها منذ زمن بعيد ! على أنه بدأ يرى عربة تخرج من هنا وأخرى تدخل هناك ، فلا يقتنع بأن ثمة حياة .

صاح به الوكيل أن ينزل عن السور فهذا ممنوع ، لكنه كان قد رأى منظراً ساحراً : البحر يعود وسط المدينة فيخترقها ، ويصنع لنفسه شاطئين تمتد عليهما صفوف البيوت والدكاكين الصغيرة ، وكل المبانى ملونة ، وقوارب صغيرة ذات أشرعة أرجوانية تبدو من بعيد مثل لعب الأطفال .

تقدمهم الوكيل سائرين إلى اليمين فى كوعة صغيرة فإذا بهم أمام « وسعاية » ثانية تمتد تحت ظل بيت من طابق واحد مكتوب عليه باللغة العربية : « سفارة جمهورية مصر العربية » ، فأحس الفلاح بفرح شديد ، وكان يتخيل أنه أمام بيت عمدة المدينة وهو بالفعل بيت ذو طابع خاص جدًّا . ليس فيه بهرجة فن المعمار الحديث ولا الذوق الأورق فى التشكيل . يجزم « الفلاح » أن الذى بنى هذا البيت لابد فلاح مصرى قديم . له بابان ، أحدهما بوابة حديدية مصقولة ذات مصراعين والآخر

مفتوح مثل باب الدوار ، وهو الباب الذى دخلوا منه ليروا فى مواجهتهم رجلاً يجلس على ترابيزة صغيرة ويرتدى زى البوليس المالطى . خاطبه الوكيل بالمالطية ، ولكنهم فهموا أن الوكيل يقول : إنهم صحفيون مصريون وإنهم يريدون مقابلة السفير . كان رجل البوليس فاتراً فى لقائهم وإن كان قد أشار لهم بالجلوس على طاقم من الكراسى الأسيوطى ثم إنهم جلسوا يتحدثون مع شاب مصرى صغير السن أغلب الظن أنه ساعٍ فى السفارة ، وكان سقف الدار يمطر عليهم بقعاً من الضوء الشمسى الريق الخالص . ولا يدرى الفلاح إن كان ما أضفى على الضوء طابعاً ريفياً هو سقف الدار أم طبيعة جو البيت ! ذلك أن سقف البيت كان من عروق الخشب المتين . وقال الوكيل : إن هذا البيت أجمل بيت فى « فاليتا » كلها — وهذا هو اسم العاصمة — وإنه لولا معزة مصر لدى الحكومة المالطية ما أعطته لسفارتها . اسمه (بيت برغوت باشا) وفوق أنه جميل فهو يمثل بالنسبة للشعب المالطى ، ذكريات تاريخية عزيزة ، إذ إن الغزاة الأتراك كانوا يقذفون بسفنهم إلى خليج « فاليتا » لمهاجمة الجزيرة بالقنابل والمدافع ، وكانت المقاومة المالطية تتخذ من هذا البيت مقرًا لها فتعتصم به وتصب على الغزاة ألواناً من الدفاع . وقد لقى القائد التركى « برغوت باشا » حتفه فى هذا المكان فى آخر هجوم للأتراك على الجزيرة ، وكان من نتيجة ذلك أن فشل الغزو وارتد مذعوراً .

دخل شاب مصرى مفتول العضل باسم الوجه جاد الملامح أحمر ، سلم عليهم بحرارة شديدة ، عرفوا أنه السكرتير الثانى بالسفارة ، لم يترك آخر يد صافحت عليه إلا سحبها ، وبيده الثانية أحاط ثلاثتهم وتقدم بهم إلى حجرة السفير مباشرة دون أى مقدمات ، ويبدو أن الوكيل كان قد اتصل بالسفارة تليفونياً وأبلغها وجود زوار يرغبون فى زيارتها .

٦

حجرة السفير نموذج دقيق للمندرة المصرية ، بجانب بابها مباشرة يجلس السفير إلى مكتبه البسيط الأنيق غاية الأناقة فى غير إسراف ولا سفه ، وفى الحجرة طاقم من الكراسى الجلد الفاخر .

كان السفير يرتدى قميصاً بسيطاً ووجهه المصرى الغليظ الشفتين مبتسم على الدوام ، وبينما كان « حسين » يمارس الداء الصحفى باستخراج الأوراق وتصويب الآلات كان الفلاح مشغولاً بامتداد المندرة فى عمق الدار . وقد ازدان سقفها بعروق الخشب الغليظة ، وتدلت على الحائط المواجه للبحر ستارة لم تنجح فى حجب الضوء ، بل هى تبلوره ، وكلما رمى الفلاح بصره من خلالها رأى أشرعة القوارب المقبلة من بعيد تصنع خلفها مناورة من الأشباح والظلال .

السفير هو أول سفير مصرى فى مالطة ، لأن العلاقات الدبلوماسية بين مصر ومالطة لم تبدأ إلا فى عام ١٩٧٢ بعد استقلال مالطة بحوالى ثمانى سنوات ، وعدد الجالية المصرية فى مالطة عبارة عن مهندس واثنين من مدرسى اللغة العربية ، واحد فى الجامعة والآخر فى المدارس الثانوية . وبينما كان السفير يتحدث نشط حامل القلم داخل الفلاح ليسجل هذه المعلومات . لقد قررت الحكومة المالطية تدريس اللغة العربية فى كل مدارس الجزيرة الثانوية . وهى تعطى الأولوية فى وظائفها لمن يعرفون اللغة العربية وحكومة الكويت تعطى جامعة مالطة سبعة آلاف جنيه سنوياً لإنشاء قسم لتدريس اللغة العربية .

الشعب المالطى — فيما يقول السفير — شعب وفىٌّ محب للعرب وللمصريين بوجه خاص ، والسبب هو عمق الصلة بينهم وبين المصريين ، إذ إن أغلب أجدادهم

كانوا يعيشون فى القاهرة . وفى عام ١٩٥٦ م ترحيل مائة وعشرين ألف مالطى من القاهرة ومالطة عبارة عن ثلاث جُزر : مالطة – جوزو – فالتا وهى مجموعة أحياء متقاربة يسمونها مدناً – ومستوى المعيشة فيها أحسن مستوى فى البحر الأبيض كله : فالحد الأدنى – القانونى – للأجور خمسة وستون جنيها مالطياً تضاف إليه مكافأة شهر عن كل سنة ، ونسبة الأمية فيها اثنان فى المائة فقط . .

وإلى جانب الصناعات المتقدمة المتعلقة بالسفن – دخلت صناعات جديدة لم تكن موجودة حتى سنوات قريبة ، مثل الزجاج الملون والشيكولاتة والمطاط . وليس فى السفارة ملحق تجارى ، لأنه ليس هناك تجار مصريون ولا تجارة مصرية فى مالطة . على أن التاجر المصرى يمكن أن يجد هنا جواً صالحاً للنمو ، فكل شىء يمكن تصديره لمالطة وليس فى مالطة سوى جامع واحد . . وبلا مئذنة ! .

٧

إذا نظرت يميناً وأنت فى بلكونة بيت برعوت باشا – الذى تقيم فيه السفارة المصرية – احتوى بصرك جانباً كبيراً من بيوت كالعلب السحرية لا تعرف إن كانت يواجه بعضها بعضاً أو تتلاصق أو هى وحدات جزئية من كل واحد متلاحم ، لكنك فجأة ترى العربات المسرعة تخرج من بينها متدافعة لا تعرف كيف انسلخت منها . بل إنك تجزم أن ثمة شوارع بين هذه البيوت ! ولأن الشوارع شديدة الالتواء شديدة الارتفاع شديدة الانخفاض فى آن واحد فإن البيتين اللذين يبدوان بعضهما خلف بعض سرعان ما يتضح أنهما فى الحقيقة متقابلان وأن كلا منهما فى شارع .

أما إذا نظرت إلى اليسار فإن بصرك يرى الشوارع الأمامية المنحازة للبحر تتكسر داخلة إلى الوراء فى عمق مجهول . وترى البيوت والعمائر تجىء من هذا العمق المجهول

وتظل تكاثف حتى لا يصبح هناك مجال للشك فى أنها مقامة فوق موج البحر . لابد أن هناك الحيرة كيف أقيمت هذه البيوت الجميلة فى قلب الموج ؟ وكيف تصل إليها هذه السيارات التى تقف أمامها ؟ ومن أين تقبل هذه السيارات ؟ . .

على الأقل هذا ما كان يراه الفلاح ، لكن جولة قصيرة بالسيارة كشفت له أن كل الذى صنع هذه الخديعة الجميلة الساحرة ، إذ إنه – فى نظر الفلاح – أيام أن كان بحراً مجرداً كان يمتد فيتمطى فوق الأرض البراح أميالاً طويلة ، وفى نفس الوقت يحسر عن مناطق صخرية عالية ، فأخذ البنيان من مساحة البحر وأخذ البحر من مساحة البنيان ، وصارت المبانى كأنها تقف فوق صدره وبين ذراعيه وفى حضنه !

ولذا فإن عربة السفارة وهى تنطلق بهم كانت تريهم عجباً . فهم تارة يسيرون على شاطئ البحر فى طريق مستقيم مستطيل ، وتارة أخرى يرون المبانى على الجانبين والبحر أمامهم مباشرة ، وإذ تستمر العربة سائرة فبعد خطوة أو خطوتين ستلقى بنفسها فى الماء لابد ، لأنه هو الحقيقة الواضحة الغالبة . وهو خط الأفق ، لكن السيارة تقطع أشواطاً وأشواطاً فى اتجاهه دون أن تبلغه . وإن ينشغل الفلاح فى الطريق برهة وحيزة ينتبه بعدها لا يجد للبحر أثراً ، لا أمامه ولا خلفه ، لكنه يراه أسفل السيارة ، فيراجع نفسه ، فيتذكر أن السيارة صعدت قمة منحدر ثم حودث واستقرت فى طريق فوق منطقة جبلية عالية !

أهذه إذن هى مالطة ؟

هكذا سأل الفلاح . ثم أجاب : حقاً إنه لمن العبث أن يؤذن الإنسان فيها ! جزيرة كهذه يسمونها جزيرة العشاق ليس من اليسير أن يكون لصوت المؤذن فيها أصداء ! ولكم ود الفلاح لو عرفه من الذى بنى جامعها الوحيد ؟ ومتى بناه ؟ وكيف ؟ ليسأله سؤالاً واحداً : لماذا لم يبن للجامع مئذنة ؟ لإيمانه بأن الأذان فى

مالطة لا جدوى منه ؟ ولكن لماذا الأذان فى مالطة بلا جدوى ؟ ألأنه مكان معزول فى قلب البحر المتوسط ، أم لأنه مفتتح على أوربا ؟

ثم إن الفلاح فقد الإحساس فجأة بأنه فى بلد أجنبى ، ربما لأن شاباً كالشباب المصريين كان يسير بجواره فى الشارع تماماً كما يمشى فى شارع سليمان بالقاهرة . وفى كل خطوة كان يتوقف ليسلم على كوكبة من البنات ، أويتبادل شتائم المزاح وأحد الشبان السائرين على الرصيف المقابل وبصوت عال تنتهى إما بضحكات ماجنة أو بتخريم أحدهما لملاقاة الآخر ثم إكمال الحديث بلهجة جادة .

ومما أدهش الفلاح أن أحد السائرين كان كثيراً ما يخترق الطريق نحو رجل يمشى بجوار فتاة تتعلق بذراعه فيتجه مباشرة إلى الفتاة ويكلمها ويندمجان فى الهمس برهة طويلة ربما انتهت بقبلة . وفى بساطة شديدة يبتعد الرجل قليلاً حتى لا يسمع ما يقولان . وبعد الانتهاء من الحديث يسلم عليها ولا بأس من الضغط على سمانة ذراعها ولحمها ! تذكر الفلاح حديث وكيل « الإيجنت » حين قال لهم فى السفينة إن مشكلة التليفون فى بيته أنه مشغول على الدوام : إما بين ابنته وصديقها وإما بين ابنه وصديقته : ولما سأله الفلاح كيف يسمح بذلك ؟ قال : إنه متحفظ فى معاملة ابنته بالذات ، ولذا لا يسمح لها بالتأخر خارج المنزل بعد منتصف الليل دقيقة واحدة !

فسأله : وهل تعرف مع من تكون ابنتك فى فترة غيابها خارج المنزل ؟ فقال : إنها لن تكون مع أحد غير صديقها وهذا منتهى ما يبعث الاطمئنان فى المنزل !

٨

ومروا فى الشارع بحشد يضم عدداً من الشبان والبنات ، فاحتشروا على الطريقة

المصرية ليتفرجوا . كان الجميع يجلسون فى مكان أغلب الظن أنه مقهى من نوع خاص يمكن الآلات الموسيقية ويعزفون ويغنون ، ويسأل الفلاح عن هذه الأغانى فقالوا له : إنها أغان فولكلورية مالطية ، وإن هذا هو المتنفس الوحيد – الفنى – فى مالطة وما عدا ذلك ليس هناك سينما أو مسرح أو فرق للرقص أو ماشابه ذلك .

ومن الطريف أن الشارع الذى كانوا مقبلين نحوه اسمه « شارع المسرح القديم » ، فاشتاق الفلاح لمعرفة سر تسميته بهذا الاسم ، إذ مادام اسمه كذلك فلابد أنه كان فى هذا الشارع فى يوم ما مسرح ، إلا أن أحداً لم يستطع الجزم بهذا .

غير أن السكرتير الثانى كان يتردد قليلاً فى الدخول بهم إلى هذا الشارع ، لأنه السكرتير – وجه معروف ، فى مالطة ولكن إكراماً لخاطرهم اضطر إلى الدخول بهم حتى منتصفه ، ثم توقفوا . وكان السكرتير الثانى بالفعل متوتراً كالأفندى المصرى المستقيم الذى يضطر للوقوف فجأة فى شارع « البطلية » بالقاهرة أو فى غرزة حشيش .

الشارع ضيق ولا يكاد يتسع لعربتين متجاورتين ، وينحدر فى اتجاه البحر ، وتتفرع منه حوار ضيقة ونظيفة ومملوءة بالبارات الصغيرة . وعرف الفلاح أن هذا هو حى الـ « سكس » فى مالطة أى أن الإنسان يستطيع الدخول ليتفق ويتنق من المعروضات السائبة من تروقه ليصعد معها إلى حجرة المارسة ، وكله بحسابه . وعرف أيضاً أن هذا الشارع ، بأكمله لا يسكنه سوى العائلات العريقة ، فى هذا الحال . وأكثر من هذا عرف أن هذه المهنة فى هذا الشارع متوارثة ، فالرجل يتعجل فى إنجاب الإناث وتربيتها كيما يساعدنه على أعباء الحياة والبنت تخضع لتدريبات معينة ثم يبدأ الاحتراف فى سن مبكرة جداً لا تزيد على الأربعة عشر عاماً أو أقل بقليل . ولعل الفتيات المحترفات الصغيرات أكثر عدداً وازدهاراً فى المهنة من السيدات المسنات ، لأن الشارع كان يشهى مهن رائحات غاديات ، وكن يتلكأن ويتقصعن ويكشفن عن مفاتنهن ويقبلن بعضهن بعضاً فى شبق .

٩

انطلقت عربة السفارة عائدة بهم إلى الرصيف .

كان من الصعب عليهم معرفة أين تقف السفينة (رمسيس) حيث كان هناك عدد كبير من السفن منتشراً فى نفس البقعة ؟ على أن الوكيل نفسه كان فى انتظارهم عند نفس القارب الذى كان واقفاً ينتظرهم . وقد لاحظوا أن صاحبه يجلس ويحواره فتاتان إحداهما عارية إلا من المايوه والأخرى ترتدى بيجامة سوداء . الفلاح وزملاؤه تصوروا أن هاتين الفتاتين استأجرتا القارب فظلوا واقفين ، ولما طالت الوقفة دعاهم الوكيل للركوب ، فأشاروا إلى الفتاتين ، فابتسم الوكيل قائلاً : إنهما شقيقتا هذا الرجل صاحب القارب ، وإنهما تساعدانه على أعباء الحياة ، وبحال عملهما السفن الراسية وخاصة سفن الركاب فدهش الفلاح دهشة بالغة . وعلى الرغم من أن صاحب القارب مد يديه الاثنتين ليسنده ويحفظ توازنه عندما قفز إلى القارب وعلى الرغم من أنه كان معجباً بالوشم المنتشر على صدره العارى وذراعيه – فإنه أحس بقشعريرة من مجرد لمس يده كأنه النجاسة بعينها ! ومنذ جلس على حافة القارب إلى أن وصل إلى حافة السفالة لم يترك بصره عن الفتاة العارية لا يدرى ما الذى كان يجذبه فيها ؟ كان جسدها يزداد عرياً فى ضوء القمر الوليد وفى الأنوار الشاحبة المنتشرة من قراب السفن . ويجزم الفلاح أن الجنس لم يكن له أى دخل فى تعلق بصره بالفتاة . ولعله كان يبحث فيها عن شىء مجهول ، عن الحياء ربما وكان كلما نظر فيها نظرت فيه بحسارة وابتسمت ، فيحول بصره عنها ومع ذلك يراها وهى تنظر إلى شقيقتها وتبتسم . .

١٠

حين صعدوا إلى السفينة أحس الفلاح كأنه عاد إلى بيته . وكان « البابلوت » – المرشد – قد اتخذ مكانه فى « البريدج » – أى غرفة القيادة – وبدأت المناورة التى تسبق التحرك وما إن تحركت السفينة وزايلت الجزيرة حتى كان اللنش قد استقر بجوار المركب ، فهبط المرشد من غرفة القيادة ثم قفز إلى اللنش الذى استدار به . وبلا مناسبة قال الربان : إنه لم يكن – على فكرة – محتاجاً لهذا المرشد على الإطلاق ، ولهذا فقد زحلقه قبل أن يؤدى مهام عمله كاملة . أراد الفلاح أن يسأله : ولماذا وقعت له على فاتورة بأنك استخدمته وأنت تعرف أن الشركة التى تأكل عيشها سوف تدفع له أجراً ؟ إلا أن « الذى يرى » غمزه قائلاً له : لا دخل لك بهذه الأمور والأكرهك الربان من أول الرحلة .

خلع الفلاح ملابسه وارتدى (البيجامة) وتمدد فى قمرته . وأحس برأس « حامل القلم » الذى يريد أن يكتب ، ففرح به قليلاً ، وظل برهة طويلة يراقبه فلم يجد إلا شروداً وركوداً . . فسحب الفلاح جفنيه على عينيه ، فاختفى الكاتب ليظهر « الذى يرى » .

تضايق الفلاح بعض الشىء وأحس بأنه سيخضع هو وحامل القلم لبعض نظرات ساخرة لابيراً منها أى منهما ، إذ لابد أن يتضح للذى يرى أن الفلاح قد عطل مواهب الكاتب أو أن الكاتب قد جنى على الفلاح !

ربما لهذا انتفض الفلاح جالساً فى سعادة حين طرق بابه بعض الضباط من جيرانه ولم يسمح لهم بالانصراف به حالما بالطلاق أنه لم يكن نائماً أو حتى على مشارف النوم . وكان أكثر سعادة حين راحوا يسألونه بشقاوة مصرية جريئة عما فعله

فى مالطة وهل جاء بعد خرابها أم وجدها عامرة ؟ وعلى الرغم من أنه لم يدخل أى فرصة فبان حسه لهم فى تلك اللحظة أشعره بالأسف لا لشئ ، إلا لأنه لم يفعل شيئاً يستحق أن يحكى لهم ويمتعهم . ضحك الـ « كاديت » أى الطالب الذى يتمرن ، وقال : إن « الخير » فى الموانى العالمية يسعى إليك على حين أنك تسعى إليه داخل المدينة ! لمح الفلاح فى عينيه حديث الأيام الخالية بسحره وسحرها . وتيقن أن الـ « كاديت » يلديه فى رفيقى القارب . فحلف بالطلاق أن شيئاً من « هذا » لم يحدث ليس فقط فى مالطة ، بل فى أى بقعة من العالم الإيبه . وقال : الـ « كاديت » إن صاحب القارب صعد الى السفينة وعرض شقيقتيه . (العارية ثلاثين دولارا والأخرى بخمسة عشر) غير أن أحدا لم يقبل ليس بدافع العفة طبعا وليس فقط لأن نقودهم لاتسمح بهذه الرفاهية ، وإنما لأن هذا ممنوع منعا باتا فى السفن المصرية .

١١

لم ينم برغم شدة الإرهاق الذى عاناه . كان ثمة مايشغل ذهنه . إن جزيرة مالطة تعتبر نفسها جزءا لايتجزأ من أوربا ، ويتصرف أهلها على أساس أنهم أوربيون قلبا وقالبا ، وليس يعرف الفلاح : هل كانت بعض مظاهر الانحلال الخلقى التى شاهدها تقليدا استوردته الجزيرة من أوربا ، أو هو طبيعة فى أهلها أو أنه إحدى نتائج هذا العصر الملئ بالتناقضات ؟

فكر الفلاح : إننا فى بعض الدول الفقيرة نفسر مظاهر انحلالها على أنه نتيجة طبيعية للعوز المادى أو العاطفى ، أما فى جزيرة كمالطة فمن الواضح أنه ليس بها فقر أو تعمى أصبح ليس بها ذلك الفقر التقليدى ، فليس هناك شحاذ واحد يقابلك فى

الطريق أو فى أى مكان . ومن بين ماقاله السفير : إن مستوى الدخل فى مالطة مرتفع ، وان الجزيرة لاتعانى من البطالة أو العمالة الزائدة ، لذلك لاتعانى من أى ازدحام من أى نوع . فكل مكان مستعد لأن يرش المياه ابتهاجا بقدومك . لدرجة أنه من بين مشاكل الجزيرة الآن أن بها أكثر من ثلثمائة شقة فارغة ، لاتجد من يسكنها ، ويستطيع ليس فقط أى مواطن بل أى بشر ، أن يحصل على شقة مفروشة فرشا محترما على أحدث طراز وأفخمه بمايساوى إيجار حجرة واحدة فارغة فى مصر ، إذن فلماذا يقع فى أحياء الدعارة مايقع ؟

أشعل الفلاح سيجارة وتصور أنه أمام « قضية » لكن من نكد الدهر عليه أنه كلما ابتهج بفكرة أومايخيل إليه أنه قضية جاءه هم الموت المدعو بالذى يرى . فسرعان مايتتابه الخجل والاكتئاب ربما لأيام طويلة . وكان « حامل القلم » يتحجل فى الممرة فى حمق الصيادن على الشواطئ ، فلم يعره الفلاح التفاتا ، لأن السكرتير الثانى للسفارة كان قد طرأ فجأة على ذهنه قائلا : إنه بقدر مايشعر بالراحة فى هذه البلد وبقدر مايشعر بالسعادة فيه فإنه كذلك يشعر بالاحتقار الشديد لأفراده ، لأنه بلد بلاقومية ، والمواطن المالطى لايشعر بماتسميه الوطن ، ولذا فهنالك من يقبل مساعدتك فى أى أمر من الأمور مقابل أى أجر .

وقال الفلاح لنفسه : من المؤكد أن الشعب المالطى يعيش فى رفاهية لاتقل عن رفاهية بلاد البترول ولذا فمن الواضح أنه شعب بلامشاكل . فلامشاكل تنمية ، ولامشاكل حروب ، ولامشاكل تعمير ، ولاحتى مشاكل قومية ، وهنا قفزت أمامه جريدة اليوم المالطية ، كان قد تصفحها وهى بعد طازجة ، اسمها « أخبار مالطة » أعاد النظر فى عناوينها ثم توقف عند العنوان الذى سبق أن ترجموه له ، مانشيت رئيس فى الصفحة الأولى وبالخط العريض الأسود الغليظ عن رجل فى الستين من عمره عثر عليه مقتولا وتم ضبط شاب وفتاة يخرجان من عنده . .

وظهر « الذى يرى » لاويا بوزه فى اشمئزاز غامض ، وراح الفلاح يتجاهل ذلك ويندمج فى التساؤل : أهل هو مجرد انحلال خلق ؟ هل هو مرض سرطانى انتقلت عدواه من أوربا مثله مثل أى تقليد ينقله شعب عن آخر بدعوى معايشة العصر ، أو أنه فكرة التحرر العاطفى تخلب اللب فحين تنتقل إلى بيئة التنفيذ تصبح دعارة ؟

الواقع أن الفلاح يميل إلى تفسير هذا المرض السرطانى بأنه النتائج الأساس والمباشرة لعصر الرفاهية ، فالرفاهية حين تصل إلى هذا الحد من المغريات تصبح غير مقصورة على طبقة بعينها ، فهى يكن دخل الفرد كبيرا فالمغريات أمامه أكبر وأقوى و . . صدقونى يقول الفلاح : لقد شاهدت بعينى رأسى فتيات فى عمر الزهور بل أجمل يخرجن من الأوكار المدنسة ، يتخلعن ويتقصعن فى رخاوة واستخفاف بكل شىء ، ولايدب فيهن الحماس فجأة إلا أمام الفنارين ، وعند أشياء غاية فى الغرابة والتفاهة . !

نظر إليه « الذى يرى » نظرة لايدرى الفلاح : هل كانت سخرية أو تقديرا ؟ فهز الفلاح يده قائلا : إن عاصمة ليس بها مسرح واحد ولاإنتاج سينمائى أو فنى ، ولاتتبارى أحياؤها إلا فى طبل وزمر وتطبير صواريخ يشك الزائر كثيرا أنها بلد ذات ثقافة . والشعب الذى لاثقافة له لاطريق له إلى الحضارة ، ولابد أن تبتلعه حضارة أخرى ، ثم نظر الفلاح إلى الذى يرى متوقعا تأييده فى هذا الكلام .

السفينة والخليج وتيار السحب إلى القاع

١

كان المحيط الأطلنطى قد بدأ ينتهى على حسب الحدود الجغرافية وإن كانت وحدة المياه لم تعترف بهذه الحدود أدنى اعتراف . كان الفلاح يرقب انتهاء الأطلنطى بحذر شديد ويخفق قلبه كلما داعبه أحدهم بإشارة ولو عابرة إلى أن الأطلنطى قد انتهت حدوده . ذلك أنه – الفلاح – كان يخشى من ذلك الخليج المسمى « بالسكاى » والذى يعتونه بأنه مقبرة السفن ، إذ يبتلع فى كل يوم سفينة . ومازالت السفينة المصرية التى ابتلعها منذ سنوات ماثلة فى ذهنه وخاصة شهادة الربان الهولندى الذى كان يقود سفينة أخرى تجوارها ، حيث قال : إنه كان يسير تجوار السفينة المصرية وإنه كان يتابعها بدقة على حين يشرب فنجان قهوة . وإنه خفض بصره ليلتقط من الفنجان شفطة فلما رفعه فى الحال لم يجد للسفينة أثرا على سطح الماء ! .

فخطورة « السكاى » – كما سأنبه الفلاح واستقصى – أنه ملتقى لأربع تيارات

خطيرة أولها تيار « البسكاى » نفسه باعتباره خليجا وللخليج تياراته الخاصة والخطيرة ، إذ هو تيار داخلى باطنى تحت سطح الماء ، وهو أخطر من التيار الظاهر ، لأنه كامن وغير واضح مثل خليج أبى قير مثلا – والقياس مع الفارق – الذى يبدو على السطح ساكنا تماما ومع ذلك يخشاه حتى البحارة الكبار ، والعامة يسمون مثل هذا التيار « تيار السحْبْ » بتسكين الحاء والباء ، بمعنى أنك إذا نزلت تجد نفسه منسحبا إلى القاع برغم هدوء سطح الماء !

وإلى ذلك « فالبسكاى » ملتقى المحيط الأطلنطى ، وللمحيط أيضا تياراته وملتقى القنال الإنجليزى ، وللقنال أيضا تياراته . أما التيار الرابع فهو من محصلة هذه التيارات وهو على شكل دوامات وتيارات دوارة لاتستطيع السفينة أن تتخذ منها أى اتجاه إلا بصعوبة بالغة .

وخليج « البسكاى » يبدأ من منطقة جبلية اسمها « توروبنيا » فى الساحل الإسبانى وينتهى بمنطقة « أوشنط » فى الساحل الفرنسى . وكان لون المياه قد بدأ يتغير من أزرق قاتم إلى أزرق شديد القتامة معتم ، وكانت أسراب الدلافين قد بدأت تظهر وتتقافز حول السفينة مثل أطفال أشقياء خبثاء . وكان الفلاح يعجب من لون المياه حين تتناثر خلف « البروة » مقدمة السفينة وحول الدلافين فيبدو أبيض كرغوة الصابون . لكن معاشرته لجهاز « لايكوساوند » – أى جهاز قياس العمق المعلق فى « البريدج » علمه أن اشتداد القتامة فى زرقة البحر معناه أن العمق سحيق يكاد يصل إلى عشرة كيلو مترات بالطول . وأن زرقة اللون فى الأصل ليست سوى خيال السماء فى الماء كمرآة تسلط على مرآة .

فجأة أحس الفلاح أنه يريد أن يعتكف فى قمرته . لكنه خاف الاستسلام للاعتكاف ، فتسلق السلم إلى سطح « البريدج » حيث الصارى الحلق وفوقه إيريال اللاسلكى والرادار ، لكى يمارس متعته اليومية فى مراقبة الشمس وهى تغرق فى

المحيط وتصبغ خط الأفق بدمائها الأرجوانية . لكنه ما إن وقف على سطح « البريدج » حتى رأى نفسه يتساند على الهواء ، والرياح تكاد تطيره ، فاستدار ببطء ، ثم هبط من جديد إلى سطح الدور الثانى للقلعة . ثم حوّد يمينا ليفتح باب الممر ومنه إلى قمرته .

وبدأ يلاحظ أن حركة السفينة ليست عادية ، ولابد أن زلزالا خطيرا حدث ولايزال يحدث . فهاهو ذا ينحاز إلى الحائط الأيمن للممر فإذا بكتفه يصدمه الحائط الأيسر وإذا الأبواب المغلقة نصف الغلاق تنفتح على وسعها لترتد فى الحال كالقنبلة ، والسفرجية والبحرية يمشون كما يقول القرآن فى يوم القيامة « سكارى وماهم بسكارى » .

٢

ما إن انفتح باب قمرته حتى التصق بالحائط الداخلى فى عنف ، والتصق بها تماما ، فلم يجد الفلاح حماسا لإغلاقه . ثم إنه تهالك على الأريكة جالسا ، وصار يرقب الكرسى وهو يزحف على الأرض ببطء ثم يشتد زحفه ثم يصير مثل كرة البنج بونج ثم كالفأر فى المصيدة حين تهزها اليدان بعنف . ولما صار من المؤكد أن الكرسى سيحطم الجدار والسرير المقابل قام محاولا تثبيته فى الأرض بوساطة خطاف يتدلى فى أسفل ، فلم يستطع ، فكره استهتار المصريين بكل القيود . وقال بصوت عال : طالما أن للكرسى جنزيرا يتدلى من وسطه ليشبك فى الأرض بخطاف – فلماذا نحرره هكذا على الرغم من أننا فى البر مغرمون بتثبيت الكراسى ؟

ورن جرس التليفون فلذ له أن يتركه يرن لكن صوته المزعج حمله على النهوض إليه فى رفه فى الركن المكين . كان الصالون هو المتحدث يدعوه للعشاء ، وفكر

– لأول مرة – أن يعتذر عن تناول الطعام . لكنه تذكر أن دوار البحر لايقاومه إلا الغذاء ، وامتلاء البطن فنهض متحاملا وخرج إلى الممر يتساند .

٣

كانت قمرة « التشيف أوفسر » أى كبير الضباط – مفتوحة كالعادة ، وكالعادة أيضا مال الفلاح لينظر فيها . فدعاه « التشيف » للدخول ، فدخل وكان يتوقع أن يحدثه عن أى شيء إلا عن مشكلة المياه ، لذا فقد كاد يقع من طوله حين بدأ « التشيف » يلعن « التنكات » وبالمرة يلعن الاتحاد السوفييتى ، والترسانة المصرية ورجلا يدعى « حشيش » .

رفض الفلاح أن يصدق أن المياه التى تم شحنها فى مالطة قد أوشكت أن تنفد ولكن – يقول « التشيف » – هذا هو الله وهذه حكمته فماذا نفعل ؟ . . لابد من التوقف فى أقرب ميناء للتزود بالمياه . ويشهد الفلاح أنه قدر ماأحس بالضيق من هذا العبث أحس بقليل من الفرح ، إذ تتاح له الفرصة فى مشاهدة ميناء جديد لم يكن فى الحسبان .

وكان أقرب ميناء لهم هو ميناء « لاكرونا » الإسبانى . .

وقال التشيف : إنهم بعد ساعات قليلة سيدخلونه . .

ولم يشعر الفلاح بنفسه إلا وهو جالس إلى الترابيزة ينتظر قدوم العشاء .

٤

كانوا فى « البريدج » يترقبون زحف الميناء . .

وكان البحر قد بدأ يضيق شيئا فشيئا ، وهو الذى كان منذ ساعات قليلة مثل بالون خراق وهم فى قلبه . ثمة جبال كانت تظهر على الجانبين مثل أكوام من السبخ الأسمر تسبح برءوسها فى نصف البالون العلوى . ثم بدا كأن السماء الملبدة تنصب على الجانبين كتلا من السحب تكشف عن جبال فريدة .

وبرغم أن المضيق الذى صاروا يدخلون فى عنقه لم يكن ضيقا بالقدر المفهوم فإنه بداكالبيت . وصارت الجبال تتضح وتتميز ذرى الأشجار عن قمم الربوات ، ثم اعترضهم لسان مبنى من الرخام يمتد فى الماء مثل قوس ، يقابله فى المدى القريب قوس أخرى فكأن السفينة تمر فيما ومافيها جملة بين قوسين . . !

وكانت القوسان تصنعان ميدانا فسيحا من المياه تطل عليه عمائر المدينة وكان « لنش » البايلوت – المرشد – يحاذى السفينة حيث هبط هو ثم صعد ليتولى قيادة السفينة .

للمرة الثانية أو الثالثة كان الفلاح يتوى أن يتفرغ « للبايلوت » ويعايش فترة قيادته لكنه للمرة الثالثة أيضا نسيه تماما . ففجأة ظهرت العمائر الجميلة ليس فقط فى المواجهة ، بل على الجانبين ، وإذا بالقوس المجردة تختفى فى أعطاف قوس كبيرة من العمائر والمنشآت ، وإذا بالبحر العظيم مجرد ميدان صغير فى قلب المدينة . نعم فى قلب مدينة « لاكرونا » أول ميناء إسبانى على خليج البسكاى وآخر الحدود الإسبانية .

٥

عرف الفلاح أن مدينة « لاكرونا » معناها التاج ، وأن هذه التى صاروا فى قلبها تماما برغم أنهم لم يخرجوا بعد من السفينة مدينة صغيرة ، خفيفة الدم ، وأنها تعتبر من أجمل الشواطئ الإسبانية . ثم إنه نزل إلى قمرته ليغير ملابسه ومن خلال

« المريطة » – النافذة – كان يرى العمائر فتخلب لبه ، عمائر عمودية شاهقة ذات ألوان غريبة كأنها انعكاسات مكثفة لكل ما فى الطبيعة . من ألوان العمارة تبدو مجرد عامود طويل من النوافذ الزجاجية المغلقة ولم يكن هناك شرفات ، ويستطيع الجالس فى قمرة الفلاح أن يرى معظم الشوارع اللامعة من بين العمائر محددة تحديدا قاطعا .

فى قمرة الربان عرف الفلاح أن هذا الشاب الحلو هو وكيل « الإيجنت » فى « لاكرونا » وأن « الإيجنت » بدوره فرع من « الإيجنت » الرئيس فى العاصمة الإسبانية .

كانوا يكتبون قائمة بأصناف المأكولات المطلوبة للصالون من هذا الميناء ، وكان على « الشيف بيرسر » أى الضابط الإدارى أوالخوجة كما يسميه البحرية أن يوقع على القائمة باعتباره رئيس قسم الصالون فى السفينة ، ولم يكن قد جاء بعد ، ثم دخل الكلب « حسان » فى وقار خفيف الدم ، وأدار بصره فى الجالسين ، ثم أقعى بجوار مكتب الربان . ودخل وراءه مارشال طويل القامة يرتدى زيا عسكريا ، فارتفعت عين الفلاح من الحذاء ذى الرقبة إلى أعلى ، فوجد الفلاح نفسه أمام هتلر بلاشوارب أوقبعة ، وأيقن فى الحال أنه « الخوجة » صاحب الكلب « حسان » الذى يعشق هتلر ويدبج فى معبده الخطب العصماء يلقيها فى أنحاء السفينة ويسجلها على « الكاسيت » ليسمعها من يأنس فى نفسه القدرة على الانضمام إلى رسالته مركزا على أن الشعوب القوية يجب أن تتضافر لتخلص التقدم البشرى من الأمم الضعيفة التى تعوقه ، ذلك أن هذه الأمم هى فى الواقع نكبة على البشرية ، خلقت لتأكل خيرها دون أن تضيف شيئا إلى التراث الإنسانى !

أخذ الفلاح يراقبه وهو يتقدم فى خطوة عسكرية عتالا ليوقع على القائمة كأنه سيوقع على اتفاقية سلام بين العالم ، وإن كانت ملامح وجهه الملتوية المحمرة لاتحمل أى شعور بالسلام مطلقا . والطريف أنه بعد أن وقع ورمى بالقلم فى عدم اكتراث

وقف يسأل : هل كتبتم كذا وهل طلبتم الصنف الفلانى !

اضطر الفلاح إلى أن يسأل أحد أفراد الطاقم عن سر « الزأطلة » التى تبدو على الخوجة فقالوا له : إن كمية المشتريات صارت كبيرة وثمنها من ثم كبير . فتعجب الفلاح . فقال محدثه : إن أى مشتريات أوتصليحات تجريها السفينة فى أى ميناء يدفع عنها « كوميشن » أى عمولة . فإن كانت المشتريات تخص قسم السطح فإن « الشيف أوفسر » يتقاسم العمولة والربان ، وإذا كانت تخص قسم الماكينة فإن « الشيف إنجينير » كبير المهندسين يتقاسم العمولة والربان ، وإذا كانت تخص قسم الصالون فإن الخوجة يتقاسم العمولة والربان . وهذه العمولة تصل إلى عشرين فى المائة فى الموانى الغربية أما فى الموانى الشرقية فإنها منعدمة . ولهذا فمعظم السفن تكره الموانى الشرقية كره العمى . .

ثم عرف الفلاح من محدثه أن السفينة لاتدفع نقودا أبدا مقابل أى شراء أو تصليح . إن الإيجنت هو الذى يدفع عنها مهما كانت قيمة المطلوب . وماعلى الربان إلا أن يوقع على فواتير فى حين تدفع العمولة فى الحال وبعملة الميناء كذلك ، وللسفينة الحق فى طلب سلفة من الإيجنت توزعها على طاقمها كل على حسب قيمة مرتبه . .

قال زميل الفلاح للربان :

– عايزنا الساعة كام ؟

فرد الربان فى خشونة وغلظة :

– مفيش خروج .

اكفهر وجه الفلاح وابتسم الزميل ساخرا من هذا الكلام ، وصاح الفلاح فى الربان :

– يعنى إيه مفيش خروج . . هو إحنا مراتك ؟

فضحك الربان . وشعر الفلاح أنه يضحك ليدارى كسوفه . وقال :

— على أى حال قدامكم وقت بسيط . حاولوا أن ترجعوا بسرعة .

ثم إن الفلاح وزملاءه مضوا غير عابئين بكلام الربان . هبطوا السلم فى سرعة ، ثم دلفوا إلى الخلاء فى اشتياق لاحدود له . وكان الفلاح يريد أن يبدأ السير فى كل الاتجاهات دفعة واحدة .

وكان مندوب « الإيجنت » مازال يعدل سيارته لينطلق بها فأشاروا إليه فتوقف وفتح لهم الباب . فركبوا وبعد خودتين توقف ، واقترح أن يحضر لهم تاكسيا ونزل بالفعل ليستوقفه ، فاعترض الفلاح وقال : إنه لم يجئ إلى إسبانيا ليركب السيارات وإنما ليتصعلك فى شوارعها !

قال المندوب بلباقة : إنه يستطيع القيام بدور التاكسى إذا قابلوه فى تمام الرابعة من هذا المساء ، ففهموا من هذا الميعاد أن السفينة ستظل راسية إلى مابعد هذا الوقت بكثير ، ففرحوا وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية بقليل . فراحوا يجولون فى الشارع الرئيس ولايزال منظر العمائر يبهر الفلاح ، فكلما اقترب منها وجد أن طوابقها الأرضية من الرخام أما بقية الأدوار والشبابيك فتبدو كأنها من الألومنيوم والزجاج فقط .

وقيل له : إن هذه هى العمائر الجاهزة ، فلما اندهش من كيفية انتشارها بهذه السرعة قيل له إن هذا ليس فى مصر ، وإن هذه المدينة هى المدينة الجديدة ، وإن عمرها لايزيد على ستة أشهر فقط . أما المدينة القديمة فهى الداخل .

راحوا يجولون ويلتقطون الصور ، بالصدفة جاءت وقفتهم أمام محطة الأوتوبيس وهو من نوع « الدوبل باس » . أخذ الفلاح يبحث فيه عن أكوام اللحم التى تعلق عادة بالباب وتحشر فى الداخل ، فلم ير إلا سائقا فى غاية الأناقة والوجاهة وكانت الكراسى خالية إلا من رهط صغير متناثر .

ورأس الفلاح وقف سيف أن يركب وحجته أنه لايصح أن يرى أتوبيسا خاليا هكذا ثم لايركب وإلا فهو يتبطر على النعمة . ولكن لم يمنعه من الركوب إلا عدم وجود نقود إسبانية معه . .

كان عليهم أن يعبروا الشارع إلى الرصيف المقابل . فما إن طرحت هذه الرغبة حتى اندفع الفلاح داهسا الشارع بالعرض . فلم تمهل سيارة واحدة ، ورمقه بائع الجرائد بتهكم ثم ابتسم ، فتساءل الفلاح بحركة من يده ، فبرطم البائع مع إشارات من يديه تفهمه أنه همجى ، وكاد الفلاح يقول له : إن نظافة الشارع تغرى بإقامة الصلاة فوقه . وإنه ماتجرأ على اقتحامه إلا لخلوه من الزحام ، وكاد يقول له أيضا : إنهم فى بلده لا يقيمون وزناً لمثل هذه « الترهات » إذ هم ناس كبار النفوس ، على أنه من فرط خجله لم يقل شيئا ، إنما راح — ربما ليدارى خجله — يتفرج بالكروت المعروضة والمجلات ، وحين وقع بصره على مجلات الـ « سكس » نظر حواليه كاللص ، ثم تسللت يده وتناولت واحدة ، وراحت تتصفحها فى توجس شديد .

ثم إنهم مضوا فى نفس الشارع ، إلى أن أعجبتهم حودة تبدو كأنها مدخل لفناء مدرسة كبيرة تتوسطها قبة . فحودوا ، وأينما ساروا تقابلهم مقاعد من الرخام أو الخشب ، فجلسوا قليلا كأنما ليجربوها ، ثم نهضوا وساروا فى ممر قادم إلى شارع متعرج ملىء بالكوعات والمنعطفات . وكانت المحال كلها مغلقة لفترة الظهيرة . وكل معروضات الفتارين فجة ولاترقى إلى مستوى معروضات القاهرة .

وبانتهاء هذا الشارع الطويل أشرفت الساعة على الرابعة ، فذهبوا إلى حيث ينتظر المندوب .

٦

المكان يشبه حديقة الأزبكية فى القاهرة ، غير أنه بسيط ومحدود ، والحديقة مملوءة بالدكك الخشبية . جلس الفلاح يراقب عربة يد تبيع لعب الأطفال والسجائر ، والخردوات ، كأنها فى سوق العتبة بالضبط ، خلفها سيدة عجوز لاتكف عن الترتيب وتغيير المعروضات ، ولم تكن تلقى للفلاح بالا على الرغم من أن جلسته تكاد تكون متجهة إلى عربتها . غير أنها كانت – لابد – تعرف أنه أجنبى وأنه فلاح ، لاخطر منه ولاخير من ورائه .

جاءت امرأة فارهة ، لفت حوله قليلا ، ثم اخترقت الحديقة واختفت فى الشريعة الأخرى منها . ثم عادت بعد قليل وتوقفت بجانبه برهة يسيرة ثم جلست بجواره فاقتعر جسمه ، ووسع لها ، فنهضت ثم اختفت ثانية . وكان الزميل قد بدأ يضيق بالانتظار ، ولما قفز عقرب الساعة إلى الربع بعد الرابعة قال الفلاح لنفسه : إن « الولد المندوب » لن يجىء فما الذى يربطه بناس يضيعون وقته وخاصة أنه كما وصفه الربان دون ماماسية ولد كسبب ووقته محسوب عليه . غير أن الفلاح فوجئ برأس تطل من عربة وتعتذر على حين يفتح الباب .

٧

عرفوا أن اسمه « برناردو » ، وأنه متزوج حديثا وأنه كان يتعلم فى لندن لمدة ستة واحدة هجر بعدها التعليم ، واشتغل فى هذا العمل . ثم سارت بهم العربة فى نفس الشارع الذى اخترقوه ودخلت العربة نفس الحَوْدَة التى سبق أن أعجبتهم . وقال

« برناردو » إن هذه القبة لأقدم كنيسة . . وقال أيضا إن ميناء « لاكرونا » هذا هو وكر القراصنة القدامى وموطن صراعاتهم الوحشية ، ومهبط طموحهم ، وإنه أقدم الموانى الإسبانية ، وكم من قرصان سيطر على هذا الميناء سيطرة الحاكم بأمره ثم قال :

– أتعرفون كابتن مورجان ؟

استيقظ فى دماغ الفلاح كابتن مورجان بكل مغامراته لكنه حاول أن يتذكر منها شيئا محددا فلم يتمكن . غير أنه كان متيقنا بشكل جيد أن رواية كابتن مورجان البوليسية تسببت ذات يوم فى ضربه علقة ساخنة من أبيه .

مرت العربة بقبو فى منطقة نائية قيل إنه « قبر كابتن مورجان » فعجب الفلاح من البلد التى تخلد القراصنة ! ثم إن « برناردو » قادهم إلى بيت تظلله الأشجار يشبه أضرحة الأولياء فى الريف المصرى ، غير أنه حافل ببعض الكرامى والدكك ، وقيل له : إنه قبر « جون مور » وهو قائد عسكرى إنجليزى حارب مع الإسبان فى حربها الأهلية . وبالطبع لم يقرأ له الفاتحة ، إنما اكتفى الفلاح بتوجيه اسمه المكتوب على رخامة ، وانصرف إلى السور المرتفع عن الشارع بما يوازى عمارة من أربعة طوابق .

ومن وقفتهم كانوا يرون شارعين : أحدهما يكاد يختفى فى ظل الارتفاع المقامة فوقه المقبرة . والآخر يشكل رصيف الميناء . استطاع الفلاح أن يرى السفنية « رمسيس » واقفة هناك فى شموخ . فلما رآها وثبتها بين كثير من السفن خيل إليه أنه يرى بلدتهم الصغيرة وقد صارت قرية المثال .

كانت كوعة البحر قد أظهرت لهم جانبا آخر منه : هولسان عريض يمتد داخل المدينة . لكن شارع الرصيف يلتف حوله ويحتضنه صانعا مايشبه العقدة وشيطه وال داخل هذه العقدة الكبيرة بناء كالح من طابق واحد مثل دوار العمدة أشار اليه « برناردو » وصار يتكلم طويلا . فلما انتهى عرف الفلاح أن هذا البناء الصغير كان

سحنا للزعماء المعتقلين فى أثناء الحرب الأهلية فى إسبانيا . هبطت عين الفلاح مع يد «برناردو» إلى أسفل السور فرأى ماسورتين عليظتين لمدفعين كبيرين عتيقين قال «برناردو» إنها بقايا من الأسلحة الثقيلة التى استخدمها هذا القائد فى معركته الشهيرة فى هذا المكان .

من هيافة الفلاح استوقفه مبنى مطل على حديقة المقبرة موصول بها ، ويجزم أنه ما استوقفه إلا لكونه ذا طابع مصرى خالص يشبه المألوف على شاباها دار الأوبرا ، ولعله تصور أن هذا المبنى هو دار الأوبرا الخاصة بهذا الميناء ، وأن كل دور الأوبرا فى بلدان العالم واحدة من حيث الطراز وإن كانت غير كذلك ، من حيث المصير . سأل «برناردو» عن هذا المبنى فقال : إنه دار الكتب تحوى عددا كبيراً من المخطوطات والأمهات ، ولكنها لاتحوى أى مخطوطات أو أى كتاب عرفى .

فاندهش الفلاح من أن يمكث العرب فى هذه الديار ثمانمائة حول ثم لايتركوا ورقة فى دار كهذه ؟

٨

سبقهم «برناردو» إلى العربة ، أما الفلاح فقد تخلف مما جعل «اللذى يرى» يطل فجأة من فرجة صغيرة فى دماغ الفلاح . وببساطة أخرج له لسانه ساخرا من وقوفه هكذا ، ثم رماه بأن هذه الوقفة هى عنوان تخلفه الأزلى . فاعتذر عنه «حامل القلم» قائلا : إن التلكؤ عند الأشياء ديدن الفلاسفة ، ثم لمعت فى عينى الفلاح نظرة خبث ماكرة دائما يستشعرها داخله كلما ضبط نفسه متلبسا بسلوك صبيانى ؟

كان قد رأى على الدكة الخشبية الخضراء ولدا سمهرى القوام يبرك فوق بطنه كتمثال قلبته الريح على وجهه . فى البداية تصور الفلاح أن هذا الولد رأسين لكنه

حين اقترب منه استطاع أن يميز رأس الغزال المحتوى من رأس الدب المفترس . شعر بالدم يغلى فى عروقه ، استنكر وأستغفر وصفق على كفيه فى غيظ وهبالة كيونس شلبى فى مدرسة المشاغبين . مع ذلك دار حول الدكة ، لينظر من خلفها بشكل أحسن وأشمل . .

وقعت عيناه فى عينى الغزال مباشرة ودفعة واحدة ، فلم يفكر فى استردادهما قط . . فجعلت عيون الغزال المحتوى تحدق فيه بنظرة كهدوء البحر يستقبل ندى الشروق . ثم إنها ابتسمت وأجفلت كأنها ترفض تصديق أن العالم لاتزال فيه كل هذه البداثة . ولو قرأت جوف الفلاح لعرفت أنه بدوره يرفض تصديق أن العالم لاتزال فيه قدرة على أن يكون بدائيا هكذا

لم ينتبه إلى الأصوات التى تناديه إلا حين رأى العربة تتهيأ للسير بدونه وكان العرق يتصبب من جبهته .

مرة أخرى توقفت العربة أمام ذلك الفنار الذى كانوا يرونه وهم مقبلون نحو الميناء فى عرض البحر ، وكان على القرب يبدو مثله على البعد بارزا شامخا ذا شخصية لها ملامحها الخاصة . وقال «برناردو» إنه أقدم فنار فى العالم بناه الرومان من قديم الأزل ، فخيل للفلاح أن الربوة المقام فوقها تحكى عشرات الألوف من الحواديت والمغامرات الدامية . وكان يوافق على صعوده والتفرج عليه من الداخل ، ولكنه تذكر بيتا خربا فى قريته تسكنه أنواع مختلفة من العفاريت والمردة والزواحف والطيور الجارحة ، فتخاذل عن الموافقة ، على أن العربة دارت بهم حول الفنار دورتين ، ثم استقامت على طريق ذى منحدر يحاذى البحر ، ثم يبتعد عنه ، ليعود فيحاذيه ليختنق البحر نهائيا بعد ذلك . إلى أن وصلت المكان الذى انطلقت منه ، هنا استأذن «برناردو» فغاب فى مكتبه برهة يسيرة ثم عاد وسألهم عن خط سيرهم فقالوا : إنهم يريدون فقط التوقف عند محل بيع الشيكولاتة لأن «إيناس» زوجة

الزميل حسن مغرمة بها ويهوى دراسة مختلف أصنافها والوسيلة الوحيدة لهذه الدراسة طبعاً هي التذوق . فانطلق « برناردو » ثم استأذن في برهة يسيرة أخرى وعاد يحمل كيساً كبيراً مملوءاً بأصناف متعددة من الشيكولاتة أعطاه إيناس قائلاً : « شيكولوتو » . .

أحس الفلاح أنه يحب برناردو حباً شديداً . أوصلهم برناردو إلى مقر السفينة ثم صعد معهم حتى قمراتهم .

جال بخاطر الفلاح أنه يعزمه على الغداء ، وكان قميناً بأن يفعل لولا أنه تذكر أنه لأول مرة في حياته لا يميل إلى الفطير المشلتت أو الأرز المعمر ، وكم كان سعيداً حين فوجئ بإيناس تعود حاملة « مشخلعة » ربقة جميلة من صنع خان الخليلي وتعطيها « برناردو » كيما يهديها لزوجته . لحظتها كان الفلاح مستعداً لدفع كل ما في جيبه لكي يرى كل هذه الفرحة على وجه برناردو .

٩

دخلوا الصالون لتناول العشاء وفي يقينهم أن السفينة تتهيأ للإبحار ، وأن مناورة الخروج وشبكة القيام ، غير أنهم فوجئوا باسترخاء الطاقم أمام المقبلات الطاولة والكوتشينة . .

كان ثمة ود حقيقي قد أقيمت له القناطر بين الفلاح و « الشيف أوفسر » ليس من بينها أن الفلاح أعجبه هذا الاسم ، لكن الفلاح يبحث دائماً عن رفيق يساعده عند البذار كيما يرد له المساعدة عند الحصاد ، لم يكن في الأمر ثمة بذار لا ، ولا حصاد ، إنما كان البحر بينهما ، والبحر لذاعة في النفس الرقيقة لا تحتملها إلا برفيق .

ولقد أسر « الشيف أوفسر » للفلاح بأن السفينة « قد تتأخر » في « لاكرونا » أياماً برغم أن ما طلبه من مأكولات ومشروبات وفاكهة قد وصل ، وصار الفلاح يتلكأ أمام الأصوات ، ومن قمرة الربان جاءت الأنباء تقول : إن التوقف أمر وارد حتى الآن ، فاضطر الفلاح إلى أن يسأل :

– تقف لحد إمتى يعني ؟

– الله أعلم .

وفهم من حركة يد « الشيف » أن « الله أعلم » هذه معناها أسابيع ، وربما شهور ، فهتف :

– ليه يا إخوانا ؟

– السفينة محتاجة إلى إصلاح .

– إصلاح ؟ إصلاح ماذا والسفينة في رحلتها العذراء ؟

رد « الشيف » بهدوء :

– فيه شرخ في الماكينة .

انزعج الفلاح انزعاجاً لا يستطيع وصفه ، وازداد انزعاجه حين علم أن هذا الشرخ في الماكينة حتى قبل أن تدخل السفينة خليج البسكاي . على أن « الراديو أوفسر » – الضابط اللاسلكي – أشفق عليه فيما يبدو ، فانتقل إلى جواره وهمس له بألا يصدق هذا الكلام ، فالسفينة لن يتم تصليحها في (لاكرونا) ، لأن العملة الإسبانية منخفضة السعر في أوربا .

رفع الفلاح حاجبه :

– وما علاقة هذا بالبقاء في لاكرونا ؟

قال على حين يفرك أصابعه : – « الكوميشن » . . العمولة يعني . .

ثم أضاف . .

— أى تصليح فى السفينة يستفيد منه « الشيف إنجيبر » بعمولة كبيرة يأخذ الريان نصفها .

انتبه رأس الفلاح وطلب رؤية هذا الشرخ ، فطمأنه « الشيف » بأن الماكينة تنقسم إلى ثمانى وحدات ، وأنه يمكن إلغاء الوحدة التى بها الشرخ وتستمر الرحلة ، وأنه إذا كان ثمة ضرورة لإصلاحها فى (لاكرونا) فسيكون من أجل العمولة فقط !..

وحين خرج من قمرة « الشيف أوفسر » التقطه الريان ناظراً فى عينيه بريبة شديدة وفى عينيه سؤال : ماذا قال الشيف عنى ؟ ثم سحبه إلى قمرته فيما هو يحكى عن صداقته لشكرى سرحان واكتشافه لبعض النجوم قبل أن تصبح نجوماً . وقبل ذلك كان الفلاح يحب قعدة الريان وقرنه ، ويتطلع إلى دوره فى السفينة ، لكنه فى تلك اللحظة لم يعد يرى رياناً بل صار لا يرى سوى رجل عادى يستثمر موقعه ، وفقد الريان سحره وصار الفلاح يضيق بجلسته ويكتشف أنه ريان طويل القامة أكثر مما يجب ، مجرد خط طويل كالفنار يدهشك بجرأته الشديدة فى التحدث فى الطب والفلك والهندسة والفن ، ويبدو أنه يفهم فى كل شىء ، إلا فى البحر ، وأصوله ، فلم يره الفلاح رياناً قط ، ولم يره قائداً لأى شىء . على الرغم من أنه دائماً يتصدى ليقود ، فإن سلمت إليه القيادة كشف عن مهزار كبير !

١٠

خرجوا مرة أخرى إلى الشارع ، فى هذه المرة اصطحب معهم الريان « والشيف إنجيبر » وزميله المعين على السفينة « إيزيس » شقيقة « رمسيس » الذى جاء ليرى مستقبل سفينته من هذه الرحلة العذراء ، وباشمهندس الضمان الذى أوفدته الترسانة

كمندوب الأسرة فى فرح « العروس » وكان من الواضح من أول خطوة أن الريان يريد أن يظل رياناً حتى فى الشارع ، لكن الشارع نفسه كان أول من أبطل قعلته ، فاضطر للسير كما يسير عباد الله .

وبدأ الفلاح يرى فصولاً مصرية خالصة تمثل فى شارع إسبانى ، إذ كان كل واحد من الكوكبة يريد أن يفسح بحريته وعلى هواه ، وفى نفس الوقت لا يريد الانسلاخ عن الكوكبة . كل يريد أن يشرب شيئاً أو يأكل شيئاً فى صحبة الكوكبة ، ولكن بشرط ألا يتورط فى الحساب عن الكوكبة فلما تأكد للفلاح أن الكوكبة صارت مشغولة بذاتها انسلخ وحده وجعل يسير بمفرده على الرصيف اللامع كأن لم تدسه قدم . وكان مشغولاً بظاهرة منتشرة فى الشوارع : فى كل خطوة أو خطوتين يرى على الرصيف مجموعة من الأكياس البلاستيك فى شكل حقائب ممتلئة بأشياء ومغلقة ، فقال لنفسه : لابد أنها أحمال تركها صاحبها ، ثم ذهب يبحث عن تاكسى ، فلما وجد الشوارع ممتلئة بها ونظيفة بما يوحى أنها لابد محشوة بالملابس أو المشتريات الهامة قال . لابد أن عربة مرت منذ قليل ووضعت أمام كل محل مجموعة أكياس بها طلبات من مواد تموينية مثلاً إلى أن صدمه زميله فى الطريق فرآه ينحنى ويتناول مجلة أنيقة تطل من أحد هذه الأكياس ، وإذا بالشيف إنجيبر ينظر إليه شذراً ويقول فى « جليطة » :

— كده .. توطى كمان وتأخدها .. خليت إيه للبحرية ؟ فرمى زميله المجلة مكانها وقال :

— خلاص يا عم ولا تزعل .

هم الفلاح بالاعتراض واستعد ليقول : إنهم ليس من حقهم الاعتداء على حاجات الناس . هم صحيح يتركونها فى الشوارع هكذا دون خوف عليها لوثوقهم أن ليس بينهم لص ونحن — المصريين — لا نقل عنهم أمانة وحسن خلق .

من حسن حظ الفلاح أنه قبل أن يفتح فمه سمع « الشيف إنجيرو » يمتدح هذا الفقيد الأوربي في إسبانيا . ويتمنى لو التقى في مصر بدلاً من الكتاشين والعربات الجرية . ولم يكن يخطر ببال الفلاح أن الناس هنا يعتنون حتى « بالزبالة » كل هذا الاعتناء ، ويحشرون خلفاتهم في أكياس تشتريها عشيرته لتضع فيها أغلى ما تشترى .

ثم إن الفلاح أحس فجأة بالتعب من أثر التغير الجوى المفاجئ . فطلب العودة إلى السفينة . وقرر أن يعود وحده . ثم إنه استدار عائداً يبحث عن العمارة الفلانية ، والدكان المطل على ناصيتين ، والشكل الفلاني حتى وصل إلى الميناء .

حين صعد إلى السفينة عاوده الإحساس بالعودة إلى البيت فاختفى الألم وخاصة بعد أن علم أن خبيراً استدعى للكشف على السفينة . وقرر عدم ضرورة التصليح مطلقاً . .

ثم أبحرت السفينة في الماء .

ألمانيا الغربية تستقبل الفلاح
بمظاهرة اليخوت في الكيل كنال

١

كان الكلب « حسان » يسير بجوار « اللابالداء إلحى » . وكانوا يرونه من « ميرابيلا شابلك » — الصالون — كانت رقبته قد ازدانت فجأة بسوار من الجلد الأبيض الفاخر وسلسلة فضية تليق بلورد كبير .

تذكر الفلاح أن هتلر هو المثل الأعلى للخوجة ولم يكن برفاجين أبدى إعجابه بالسوار والسلسلة . فأيده الربان لا في الإعجاب فقط بل في عدم الزيادة أيضا حيث أضاف مؤكداً في خبث أن هذه السلسلة قد اشتراها الخوجة اليوم بالشيء الفلاني . هنا اقترب « السكنده أوفسير » من الفلاح وهمس له بأن العمولة التي تقاضاها الخوجة عن المأكولات المشتراة من إسبانيا حلت بالخير الوافر على « حسان » !

انتبهوا جميعاً إلى صوت عالٍ يجيء من ناحية « الإشر » — مؤخرة السفينة . فلما ران عليهم صمت الانصات تبين لهم أن ثمة من يقف الآن خطيباً ، وكان الكلب

«حسان» ينصت هو الآخر ، فلا تعرف على صوت الخوجة ، اندفع يجرى تجاهه واندفع وراءه الفلاح لينفرج .

«الخوجة» واقف خلف «الحلى» – المطبخ – وحوله عدد قليل من البحرية معظمهم سفرجية . أما هو فكان منتصب القامة أين منه هتلر نفسه ؟ وكان منفعلا ذلك الانفعال الذى يختص به الزعماء وأصحاب الرسالات العظماء وكان الفلاح «لا يدرى على يضحك أم يصفق فى إعجاب ؟ فمعظم الخطبة كلام غير متماسك ، فى وسطه بعض عبارات متفردة لا تصدر إلا عن مفكر رزين ممتلىء كان يقول :

«إن الشعوب لابد أن تحتفظ بطهارتها ، ولابد أن تحمى نفسها من الأجناس الأخرى .. فإن اختلطت البذرة ببذرة أجنبية انكسرت الشعوب ، وماعت شخصيتها وفقدت ثوريتها .. إن الأقوياء مدعوون للسيطرة على الضعفاء وتطهير الأرض منهم ، رقعة الأرض لا تتسع للجميع . والأقوياء الأذكياء أحق بها من غيرهم .. » .

انطلق واحد من السفرجية مصفقا ، ثم معيدا على الأسماع بعض ما سمع مقلدا صوت الخوجة فكأنه رسم كاريكاتير للكاريكاتير وخطوط شديدة الوضوح والبساطة ضحك الفلاح حتى دمعت عيناه أما الخوجة فصمت عاقدا ما بين حاجبيه فى غضب ، ثم رمى السفرجى بنظرة احتقار ، وقال – كالزعماء ناقلا بصره بين الجميع .

أنتم رعاع تمشون على بطونكم !

ثم أشار إلى «حسان» فجرى إليه يهز ذيله . ولا يكذب الفلاح حين يؤكد أن هزة ذيل الكلب برغم نشاطها كانت مفتعلة ومسرحية وكان الكلب كذلك فى عين الفلاح ذكيا خفيف الدم جدا .

والواقع أن هذا الكلب القوى المهيب برغم أنه طفل فى الشهور الأولى من عمره

والذى اشتراه الخوجة من كلية البوليس ليدربه على مزاجه – كان يبدو للفلاح أنه غير مقتنع بشخصية الخوجة أدنى اقتناع محتقرا لمستوى الطعام الذى يقدمه إليه بل محتقرا لمستوى البيئة كلها ، لكنه على الرغم من ذلك لم يتخل عن «بروتوكوله» باعتباره كليا من جنس أرقى .. والحق كل الحق أن هذا الكلب كثيرا ما كان يعطى صاحبه دروسا عملية فى فن المعاملة واحترام النفس ، فلطالما راقبه الفلاح ورآه يستهجن الصفير الذى يناديه به الخوجة ، فإن بالغ الخوجة فى الصفير رفع الكلب رأسه مطرطقا أذنيه مجيلا بصره أمامه فى كبرياء عنيد ، فإن شخط الخوجة مناديا له بعنجهية غليظة أطلق فى وجهه صيحة واحدة متبسرة ولكنها حادة ورادعة ، ثم يعود إلى استرخائه أو ينهض ويستدير منصرفا إلى بعيد فى عدم استهانة وفى جلالة النجوم اللامعين فى المجتمع ..

وفى هذه اللحظة جرى إليه الكلب «حسان» يهز ذيله هزة مسرحية كأنه على مستوى الموقف ، وكان يجب أن يجامل صاحبه ولو كذبا ، ثم إنه مضى وراءه حتى اختفيا وبعد برهة يسيرة ظهر «الخوجة» من جديد فوق سطح «الإش» وأمام حبل طويل ممدود صار يقلب عصيله ويتحسسه فى اشمئناط وقرف .

٢

وردت برقية ساخنة من الترسانة المصرية إلى مهندس الضيان ترجوه أن يتصل بها فورا ليفيدها عن حدوث الإعطال وعن مشكلة المياه ولما كان الفلاح قد أغرم بمحطة اللاسلكى وقضاء الوقت فيها فقد أتيح له أن يقرأ بعض البرقيات وأن يتابع الرحلة من خلالها ، وكان لابد أن يلاقى مهندس الضيان ويسأله عن رده ولما كان مهندس الضيان يخاف التحدث مع الصحفيين برغم أن الفلاح يشهد بأنه مهندس شريف بل

من أشرف من قابلهم فى حياته على الإطلاق ظل لذلك قابعا فى محطة اللاسلكى حتى قرأ — رده : «لم نتثبت من أن هناك تسربا فى المياه ، والمشكلة هى كثرة الاستهلاك فقط . أما عن الشرخ المزعوم فإنه سطحى وفى الوحدة الثانية ، ويمكن مواصلة الرحلة حتى يتم التصليح فى القاهرة» . وقد انتهز الفلاح فرصة لقائه بالمهندس ، فسأله عمن يتحمل نفقات التصليح أو الخسائر التى يمكن أن تتسبب عن تسريب المياه ، فأجاب : بأنه لا الترسانة المصرية ولا شركة الملاحة بل شركة التأمين الروسية ، إذ إن الترسانة حين تعاقدت هى وروسيا على استيراد هذه الخامات المصنعة لتبنى بها أعدادا من السفن تعاقدت فى نفس الوقت وشركة تأمين تستطيع أن تعوضها إذا ماتسببت هذه الخامات فى أى خسائر فى حين تعاقدت شركة الملاحة وإحدى شركات التأمين الأمريكية على السفينة نفسها كبضائع وآلات تشغيل .

٣

هدأت السفينة من سيرها وعرف الفلاح أنها دخلت القنال الإنجليزى ولكن بالعرض ، وأن أقل عرض لهذا القنال يبلغ تسعة عشر ميلا ، وهى المنطقة التى تقام عندها مسابقات عبور المانش ، وعرف أيضا أن المنطقة التى تعبرها السفينة الآن بين «أوشانط» و«بركسهام» عرضها مائة وخمسة وثلاثون ميلا .

كان الليل حالكا والفلاح فى «البريدج» — غرفة القيادة — ينظر أمامه فيرى مقدمة السفينة تغوص فى جبال الظلام ، وليس من شىء واضح أمامها على الإطلاق ، ولم يشأ عقل الفلاح أن يستوعب مسألة أن تسير السفينة بوساطة حسابات وخرائط موضوعة بدقة وهاديها الوحيد الآن هو عين الرادار . فلما راح يقلدهم فى النظر فى الرادار لم يجد على الشاشة إلا خطوطا وظلالا . وأشاروا له على

نقطة صغيرة فى شاشة الرادار تلمع حولها العمد الضوئية المتوثبة وقالوا : هذه هى السفينة ، فانسحر الفلاح وظل يحدق فى الفراغ المظلم ، ويتخيل أنهم جميعا فى قلب زلعة مظلمة أو فى جوف حوت كبير !

وكانت البريدج «على قدم وساق» . و«الراديو أوفسر» ترك محطته وجاء يجرى اتصالاته من الـ «فى — أف — إتش» وعرف الفلاح أنه يتصل بمحطة هولندا الأرضية حيث إن توكيل الشركة الخاص بالمرشدين فى أوربا يتمركز فى هولندا . وكانت السفينة قد أبلغت هذه المحطة أنها ستصل إلى «بركسهام» فى تمام الساعة الخامسة من مساء الخميس ١٥ من يوليو لتأخذ مرشد بحر الشمال الذى عليه أن ينتقل بالطائرة من هولندا إلى بركسهام الإنجليزية حيث ينقله اللنش إلى المكان المحدد للانتظار فى عرض البحر . .

لكن الريح كان على ما يرام . والتيار كان قويا ، فدفع السفينة . وبعد أن كانت منضبطة على اثنى عشرة عقدة فى الساعة اندفعت بأقصى من هذه السرعة . وفى مساء الأربعاء راجعت «البريدج» حساباتها فوجدت أن السفينة بهذه السرعة ستصل فى الرابعة من صباح الأربعاء بدلا من الخامسة من صباح الخميس ، فأرسلت برقية مستعجلة بتعديل ميعاد وصولها ، ووصلت البرقية إلى المرشد بعد أن نقلتها المحطة الأرضية وأبلغتها إياه فى منزله تلفونيا ، فرد على السفينة ببرقية مستعجلة أيضا قال فيها : «وصلتنى البرقية وسأصل فى الميعاد» .

على أن السفينة وصلت إلى مقر الموعد فى تمام الثانية والنصف من صباح الأربعاء بدلا من الرابعة لأن قوة التيارات المائية كانت أكبر مما قدرها ، الأمر الذى خلق توترا فى «البريدج» حتى اضطر الربان إلى الصعود على غير عادته . ولم يفعل شيئا أكثر من أنه ظل يذرع ويستنزل اللعنات على «روسيا» وعلى الأمواج والتيارات .

وكان «الراديو أوفسر» قد اتصل بالمحطة الهولندية ووقف فى انتظار ردها .

وجاء ردها حاسما وواضحا . « المرشد فى هذه اللحظة ليس بالمنزل ، وسيتصل بنا لدى عودته فنتصل بكم » فلم يكن أمام السفينة سوى أن ترمى الخطاف وتنتظر حتى يرد « البايلوت » وظلوا وقوفا فى مكانهم حتى الثالثة والنصف صباحا حين رد « البايلوت » بأن البرقية وصلته وأنه سيصل فى السابعة أو الثامنة صباحا على ظهر أول طائرة . . وكل هذا — طبعا — على نفقة الشركة المصرية للملاحة البحرية . .

٤

عجب الفلاح من هذه الرياح !

كيف وافقت هواه ؟ كيف علمت أنه وقع ضحية وهم كبير لم يدرك حقيقته إلا لحظة وضع قدمه على ظهر السفينة ؟ .

لقد قيل له : إنه مسافر إلى خط الشمال وما أدراك ما خط الشمال ودوله الإسكندنافية التى طالما سمع عنها الفلاح ؟ وقرأ : السويد والنرويج والدنمرك وبالإضافة — وفوق البيعة — بعض دول أخرى سوف تمر بها السفينة وسيهبط إليها الفلاح مثل إنجلترا وفرنسا وألمانيا شرقا وغربا . .

على أن هذه « العمارة » الهائلة من الأحلام كانت تتساقط دوراً بعد الآخر أثناء اللهاث وراءه يوم ابتدأ الرحيل حتى جاء الحلم إلى البلاط ، وصار مثل ورقة تعبث بها الريح ، والفلاح ينظر إليها فى بلاهة الذئب ، ثم اختفت الورقة تدفعها سحائب الغبار وقيل له : إن رحلته العذراء يبدأ شحنها فى سفينة البضائع (رمسيس) ليتم تفريغها بعد أربعة عشر يوما فى ميناء (ويزمار) بألمانيا الشرقية . .

مستحيل طبعا أن يتراجع الفلاح وهو الذى داخ واكتشف أن عدد الدوخات ليس سبع دوخات كما يزعمون ، لكى يضع قدمه على هذه السفينة ، ولا سيما أنه لم

يسع إلى هذه الدوخة . قط ، إنما وضع فيها فجأة كما يوضع الطفل — فجأة أيضا — فى لحظة الميلاد ! وكانت حال الفلاح مثلها مثل حالة الميلاد تماما يستحيل فيها الرجوع إلى الوراء . . وقال لنفسه : إن الرياح وحدها هى التى تكفلت بوضعك فى هذه التجربة ويبدو أنها مصرة على أن تظل محتفظة بالزمام فى يدها ، فماذا يضيرك إن تركتها ؟ إن أى رحلة من الرحلات لا فرق بينها وبين رحلة الزواج يتوهم فيها الزوج أنه صاحب العصمة والواقع أنه ليس صاحب شىء على الإطلاق ! . .

غير أن الفلاح مثل آبائه كثيرا ما يطمئن للرياح ، فهى دائما فى نظره بشير بسقوط المطر ، ولم يكن قد مر وقت طويل فى عرض البحر حتى علم أنها — الرياح — قد جمعت كل هذا الطاقم من طبائع متنافرة وأمزجة وأهواء مختلفة اختلافا بينا ، ليحدث من تنافرها واختلافها ما يتيح للفلاح رؤية الكثير والكثير ، ويعطيه زادا يفوق ما قد يحصل عليه من زيارة البلدان .

ثم إنه ما إن تحركت السفينة من ميناء « لاكرونا » الإسبانى حتى تأكد للفلاح أن الرياح تشتغل لحسابه ليس غير ، بل إن السفينة بدت له متطوعة — فقط — لعرض المواقف عليه أو لعرضه على المواقف متوسلة فى ذلك — شأن الطبيعة الرائعة فى غموضها حسب يبدو بمقاييس العصر مضحكا وتافها ، لكنه مع ذلك لا يقبل المكابرة : هو سريب فى المياه .

وكان على السفينة أن ترسو فورا على أقرب ميناء . .

٥

وسرعان ما رأى الفلاح قوائم جديدة من المطلوبات يتم تدوينها بسرعة غير أنها هذه المرة حافلة بالويسكى والبيرة ومايسمى بالكرفوازية والسيجار وأشياء أخرى

ذات أسماء يسمعها الفلاح لأول مرة ، فيثير فيسأل ، فيعرف أن معظمها أشياء معروفة لديه ، وربما كانت بادنجانا مثلا ! على أن مالم يكن قد سمع به في حياته هو ذلك المسمى بالهامبورجر ، ولم يكن هذا الهامبورجر ليدخل في دائرة اهتمامه لولا أنه رآهم جميعا يتفون بحياته . فلما ذاقه الفلاح صدفة ولم يجد له طعما أدرك أنه وضع على عتبات الجنون . . !

كل الطلبات كانت على ذمة حفل التدشين المقرر أن تقيمه السفينة في أول ميناء ترسو عليه ، إذ هي عذراء . وهذا الميناء طبعا هو ميناء (ويزمار) بألمانيا الشرقية على اعتبار أن الموانى السابقة عليه ليست مقيدة في جدول الرحلة ومن ثم فكأن السفينة لم تتوقف .

ثم قيل له : إن الميناء الذى ستدخله السفينة الآن لتتزود بالمياه والطلبات اسمه (الكيل) أحد موانى ألمانيا الغربية . سرح الفلاح سرحة طويلة لم يعكر صفوها إلا غضب « الشيف أوفسر » حيث كان يزمجر . فهب له الفلاح ، فلما عرف الحقيقة أشفق ليس فقط على السفينة بل على مصر كلها . فالدولة تعمل في واد وكل سفائن البر تعمل في واد آخر ، لتهدم الأيدى الطويلة اللعوب ما تبنيه الأيدى المخلصة وهى قليلة : ذلك أنهم « طلبوا من الشيف أوفسر » أن يكتب تقريرا ينص فيه على أن لنشات الإنقاذ الملحقة بالسفينة تنقصها مفاتيح الكونتاكت ، ولم يكن ذلك صحيحا على الإطلاق حتى لو افترضنا صحته ، فإن كل لنش مزود « بمقلة » تغنيه عن المفتاح ، وعلى ذلك رفض « الشيف أوفسر » كتابة التقرير ، فتحداه قسم الماكينة ، وقام بكسر « المقلة أيضا لكى يرغمه على الموافقة لكى يكبر حجم الإصلاحات التى يدبر قسم الماكينة لإجرائها في الكيل ، لكى تكون العمولة بدورها شيئا يملأ قبضة العين الفارغة . . !

وفى لحظة ذاك أدرك الفلاح كم كانوا جميعهم يعاملون السفينة بعدوانية تبلغ

أحيانا درجة الخسة ! والسبب أنها روسية الأصل ! فهى لذلك « ديك كلب » لا تصلح ، وتخريبها حلال ! الواحد منهم يصعد السلم وفى نيته أن يخلع « الدرابزين » في يده ويتمنى أن تلكأ الحنفية في دفق المياه لكى يكسرها بقبضته في غيظ ولم يكن ثمة علاقة بين معظمهم وبين هذه العروس الجميلة الرشيقة التى دفعت مصر مهرا لها ثلاثة ملايين جنيه ، لتزفها في النهاية إلى ناس ينهشون عرضها قبل أن يقترنوا بها ، حتى إذا ما ركبوها امتهنوها وأنكروا شرفها لا لشيء إلا لكى تنكسر عينها حين يزمعون تشغيلها لحسابهم الخاص .

ولقد فكر الفلاح مرارا أن يقذف بنفسه في البحر من فرط التقزز والغثيان ، وكانوا يقولون له : اشرب من ماء البحر تفق وتُشفَ من الدوار ! على أنه لم يكن يقبل الشرب من ماء البحر حتى لو مات عطشا !

٦

لم يكن بحر الشمال قد انتهى ، بعد حين دقت ساعة جرينتش منتصف الليل وساعة أيديهم الواحدة . وكانت السفينة قد التقطت من عرض البحر مرشدا جديدا ليدخلها في « الكيل كنال » ثم أسلمت له قيادها .

أخذ الفلاح يشهد المناورة واقفا من « البريدج » وحواليها محاولا في نفس الوقت رصد إحساسه بالخروج من مياه عامة للدخول في مياه إقليمية في نفس البحر ، فلم يجد سوى الفراغ اللانهائى ، وإن كان قد علم أنهم صاروا في المياه الإقليمية لألمانيا الغربية . .

وفجأة تلون زجاج النوافذ بلون السماء ، وبدأ الليل فوق سطح السفينة جميلا إلى درجة ساحرة . كان ليلا مدهونا بالتركواز ، وكان القمر متربعا فوق الصارى الأمامى

مباشرة كأنه فانوس يمضى به الصارى يشق الحجب الشفافة !

ولقد انتهت المناورة وأشرفت السفينة على أربعة مداخل توصل إلى حوض تبدأ به « الكيل كنال » وهى مجرد قناة مثل قناة السويس بالضبط ترجمتها قناة الكيل أى القناة التى تمر ببلدة « الكيل » وهى قناة صناعية تتبع ألمانيا الغربية . اشتقت فى أرضها لتقريب المسافة بين القنال الإنجليزى – بحر الشمال – والموانى المحيطة بها . وتستخدم فيها طريقة الأهوسة . ذلك أن منسوب المياه داخل منطقة الكيل نفسها يخالفه خارجها فى المناطق المجاورة لها .

وهى تبدأ بحوض للدخول وآخر للخروج ، ونظرا لأن بحر الشمال فى منطقة أعلى من منطقة الكيل فإن الماء إذا ترك على سجيته فسيغرق المنطقة كلها ، ولذلك فإن الحوض بشقيه – دخولا وخروجا – وظيفته اعتراض الماء المتدفق من بحر الشمال بوساطة سد متحرك يتزاح على الجانبين بمحرك ميكانيكى حتى يظل الحوض بمنسوب من الماء يناسب حجم السفينة العابرة ثم يغلق من جديد ، فإذا انصرفت السفينة تم تسريب المياه إلى البحر ثانية .

والسفينة تقطع هذه القناة فى ست ساعات بسرعة اثنى عقدة فى الساعة ، لتصل إلى بحر البلطيق .

أسلمهم الحوض إلى « الكنال » والليل التركوازى إلى صباح مشرق غاية فى الرقة ، فصعد الفلاح إلى سطح « البريدج » فى صحبة زميليه وكان ثمة آخرون على السطح أيضا .

الفلاح مأخوذ بسحر الريف فى ألمانيا الغربية : على الجانبين غابات هائلة من الأشجار لم يعرف نوعها على التحديد وأغلب ظنه أنها أشجار السرو التى قرأ عنها فى الروايات الألمانية والأمريكية ، العين حائرة بين هذه الغابات وبين القناة نفسها ، فإذا سقطت العين من القناة شاهدت مياها فى لون الطحينة ، وشاهدت عرض القناة لا يكاد يتسع لسفينتين ويزيد قليلا ، كذلك شاهدت العين على الضفتين الكثير والكثير مما يجلب البصر : فالأرض مرتفعات ومنخفضات مملوءة كلها بالأشجار . قامة الشجر القزم تتساوى هى وقامة الشجر العملاق حين يكون الأخير فى المنخفض ، وربما بدت قامة الشجر القزم أكثر ارتفاعا من قامة الشجر العملاق . .

ومن حسن حظه أن السفينة كانت تسير ببطء ضرورى . فكانت الأشجار تنسحب إلى الوراء فى تمهل كعارضات الأزياء عند بلدة فى مدخل الكيل اسمها « بروتسل بوتل » انتهت مهمة المرشد وصعد مرشد ثان قاد السفينة إلى أول الهويس ثم صعد مرشد ثالث يختص بالقناة وحدها ومعه اثنان من الضوماتجية (الضوماتجى) وهو البحرى الذى يمسك بعجلة القيادة فى السفينة إذ هى تسمى : الضومان . . وأحيانا يقوم الطالب الـ « كاديت » بهذه المهمة كنوع من التدريب العملى على كل شىء فى السفينة ، وكان على ثلاثتهم أن يوصلوا السفينة إلى منتصف « الكيل » وكان الفلاح يشاهد لعبة المرشدين ، ويتمنى لو كان مرشداً يعيش هكذا مثل طائر البحر الجميل .

٧

على أن شيئا آخر كان قد بدا يجلب لبه حقا ويجتذبه من عالم البحر الساحر إلى عالم آخر أكثر سحرا . ذلك هو منظر (اليخوت) الصغيرة التى كانت تسبح فى طول القناة ، رجال البحر يسمونها (الكواتر) أما الفلاح فيصر على استخدام اسم اليخت والواحد منها عبارة عن سيارة ملاكى غاية فى الاحترام والرشاقة غير أن جسدها ينتمى إلى عالم البحر بالمقدمة والمؤخرة المدببتين قليلا ، فكأنها سيارة رولزرويس . تتنكر فى شكل قارب يؤدى فوق سطح الماء رقصة الانتباج والطرب . نعم ، فهذا

الميل يميناً ثم يساراً بكل هذا الهدوء النشوان لا يمكن إلا أن يكون طرباً حقيقياً .

في البداية خيل للفلاح ومن معه أو من هو معهم أنهم أشخاص مهمون على مستوى دولي . وأن ألمانيا الغربية علمت بقدومهم إلى « الكيل كنال » فاستعدت وأقامت لهم هذا الاستعراض الأرستقراطي المذهل المهول ، لتريهم عينة من الجنة التي يعيشها أهل الغرب . السفينة تمشي ببطء رائع واليخوت تسير في عكس اتجاههم تجاوزهم إلى الخلف كسائل العسل أو اللبن يزحف تاركاً على جدار الوعاء دوب حلاوته . كل يخت يحمل أسرة صغيرة كلها عارية تماماً إلا من رقعة صغيرة تحدد المستور أكثر مما تستره ! آه من حمامات الشمس التي تأخذها النساء فوق ظهور اليخوت . في مقدمة اليخت حجرة للقيادة وثمة من يمسك عجلتها وخلف حجرة القيادة صالون أنيق مثل حوش في حديقة تجري من تحتها الأنهار ، وعلى السطح ، وفي العراء تماماً تنطرح كل غادة وغادة رفض الفلاح طويلاً أن يصدق أنها من لحم ودم . تنام فاردة ذراعيها وساقيها مستسلمة للشمس أو مضطجعة فوق كرسي ذي مدد ، أو راكبة على حمار خشبي وفي مواجهتها يركب رجل عار هو الآخر على نفس الحمار ، لعله زوجها أو صديقها أو خطيبها يعلم الله ، لكن الفلاح يشهد أنه رأى الجسدين يقتربان ويلتصقان عبر الحمار ، وتمتد الأذرع لتطوق الكتفين أو العنقين ورأى الشفاه فوق الشفاه لا تلهب سوى جسده . يتم هذا ليس فقط تحت سمعه وبصره ، بل إن الشمس نفسها كانت في قمة نشوتها عند الضحى وكأنها سعيدة بدفئها الذي تجسد فوق هذه الأرض أجساداً تطلب الحلال !

ويقترب اليخت يتجسد في عدسة المنظار المعلق في رقبة الفلاح ، ليختفي شيئاً فشيئاً كأنما اختفى داخل جوفه هو . وإذ يقترب اليخت ترتفع أيدي من فيه وترسل التحية والقبلات لركاب السفينة باعتبارهم ضيوفاً أعزاء . الود ساحر وما يتركه في نفس الفلاح أكثر سحراً . تظل الأيدي تلوح في الهواء تتبادل التحايا كأن العالم قد

شمله السلام المنشود فجأة واكتشف البحر في كل أنحاء الأرض أنهم إخوة وأبناء عم وأقرباء وأصهار . . !

يسراه ممسكة بالمنظار المكبر وعيناه صاعدة هابطة بلا توقف . من خلال المنظار يرى الغادة العارية تحت قدميه مباشرة تتمدد وتبتسم له شخصياً . على حين يزحف بها الموج إلى بعيد ، حتى إذا ما اختفت دخل المنظار جسد جديد وربما كوكبة من الأجساد. هذه الأجساد التي كان يراها في مجلات الجنس المهربة فتشتعل دماؤه لمجرد تصوره أنها مصورة بالكاميرا وليست مرسومة بالفرشاة أي أنها واقع له أصل حي وليست مجرد خيال رسام ! وحين رأى صوراً صريحة للأوضاع الجنسية تتداولها على ظهر ورق الكوتشينة مع ولد على مقهى بالقاهرة سمع من يقول من أهل بلده : إن هذه الصور ليست حقيقية إنها لنساء من الجبس الملون صبت في قوالب هذه الأوضاع ، يقول هذا لشدة يقينه أن ليست على وجه الأرض نساء تفعل هذا على الملأ ! ولقد ضحك الفلاح يومها من هذا القول واليوم ضحك من نفسه حين أوشك أن يزعم الزعم نفسه على ما يراه الآن . . !

لكنه قال لنفسه : من المستحيل أن يكون هذا واقعاً ! فهل ثمة في هذه الدنيا من يعيشون هكذا . أيمكن أن تكون هناك جنة على الأرض بهذا السحر وهذه المتعة وهذا الجمال ؟ هؤلاء ناس يمارسون المتعة حتى الثمالة . وهاتيك نساء متسقة الأجساد بوجوه نضرة كأنها مقطوفة لتوها من شجر الفاكهة ، ثم إنه سأل نفسه : ما الذي يمتلكه الرجل ؟ أو ما الذي يمكنه دفعه حتى يحق له أن يتمتع كل هذه المتعة ويعيش هذه الحياة ؟ أنعمة إلهية يمنحها الله لناس دون آخرين . أم أن خرافة الجنس الأرقى تلد الشعوب الأرقى ؟

ثم أحس بشيء يزحف على صدره ويصيبه بكثير من الاكتئاب لعله إحساس باطني بأنه كفر . وأنه فرط في بعض قيمه . وتذكر أن جسده يقشعر حين يدوس عفواً

بحذائه على سجادة الصلاة وخيل إليه أنه سيُشل إذا اضطر للمرور من أمام شخص يصلى فكيف به يشعر بنفس القشعريرة ونفس الرعدة لدى رؤيته الآن لما يرى ؟ لقد شعر أنه بحاجة إلى تأجيل الرد على هذا السؤال . فلا جناح على المؤمن إذا انفتحت أمامه ملفات العشق دفعة واحدة أو انزاح الستار أمامه عن أبيه آدم وأمه حواء معا لأول مرة فى التاريخ فى الفراش ! ربما كان على المؤمن الحقيق أن يغض الطرف حياء ، لكن الفلاح لم يكن يستطيع أن يغض الطرف فقط ليس لأنه قليل الإيمان ، بل لأنه فى تلك اللحظة ، قد بدأ يقتنع بأنه « يرى » وأن ستارا انزاح عن عينيه هو ، فكيف بنفسه يسدله ؟ . .

٨

انسحبت مدينة (هولستان) إلى الوراء ، واقتربت السفينة من برج الكيل ومل الفلاح رؤية العرى الذى أرهقه أيما إرهاق . فأطلق بصره فى الفضاء فلاحظ أنه يحاول ضبط أنفاسه ، كما لاحظ أن ثمة شعورا بالبهجة ، لم يكن يخالجه ، إلا أن مشهد الغابات المتراصة على الجانبين كان يشده إلى جولان طويل ربما امتد بقية العمر ، فقد كان يرى من خلال جذوع الأشجار طرقا مرصوفة تمتد فى أعماق الغابة وتتقاطع وتتلوى فى أنصاف دوائر . وعربات فى حجم علب السجائر تزحف وتختفى بين الجذوع .

فى الواحدة ظهراً أجريت مناورة الخروج من حوض هذا البرزخ السحرى ، ثم توقفت السفينة على رصيف برج الكيل ، وهو رصيف مبنى فى سفح غابة ظليلة شديدة الكثافة تنتشر فوقه بعض الأوناش وبعض المحال المغلقة ابتهاجا بيوم السبت . .

كان الرصيف على اليمين فى سفح الغابة وعلى اليسار ، على الضفة الأخرى النصف الآخر للغابة . وهو أقل كثافة . ظهرت خلاله قرية صغيرة . تتناثر بيوتها ذات السقف الجملون بين الأشجار قيل : إنها قرية اسمها « كنال لاجراهاس » يقطنها عدد من الفلاحين فارتسم فى ذهن الفلاح مشهد ناس يلبسون السراويل بشكة وشراريب والقمصان الزرقاء . ويمشون يحملون الفئوس والكريكات ويأكلون الخس والسريس والعيش المقدد من منديل محلاوى مربوط حول وسطهم ، يجرون خلف حمير تحمل السباد أو خلف المحاريث ، لكنه لم يجد سوى أباطرة وملوك يشك أنهم يعيشون الحقيقة ، بل يمثلون مسرحية .

فهذا البيت الأحمر الجميل ذو الستائر الفضية والسلم الرخامى الهابط إلى حوض أخضر تتوسطه نافورة على شكل تمثال لحوت برونزى يبخ الماء من فمه لا يمكن أن يكون بيت فلاح أو هذه الحورية الهيفاء ذات المايوه البيكنى المضطجعة على سرير فى الفراندة تقرأ الجرنان لا يمكن أن تكون زوجة أو ابنة فلاح ! وهؤلاء الأطفال الذين لا يمكن تمييزهم من الورود المتناثرة حولهم ليس من المعقول أن يكونوا أولاد فلاحين ! وأى فلاح هو هذا الذى يجول فى هذه الحديقة المزهرة تداعبه الورود فيتدلل بإبعاد وجهه عنها ، يرتدى بذلة أنيقة على أحدث موديل ؟ ثم ما هذا الذى يلمع خلفه من بعيد ؟ إن الشمس المراوغة هنا تنعكس خلفه وتبعث دوائر من الضوء الساطع تزحف على جسد الحورية المتمددة ، إنه فانوس السيارة ، وخلف السيارة جرار ، وخلف الجرار آلات أخرى كثيرة . .

ضرب الفلاح قدميه فى الأرض وقال :

إذا كانت ألمانيا تريد إقناعى بأن هؤلاء هم حقا فلاحوها فلابد أنهم من ذلك النوع الذى ينجح عندهم فى انتخابات مجلس الشعب واللجان المركزية إن لم يكونوا جميعهم يقومون بأدوار فى مسرحية أو فيلم سيصدر إلى الخارج !

وعاد يراقب هذه الحياة التى هى فى حساب مقاييس المانيا الغربية متواضعة وبسيطة وفى عرف الفلاح قطعة من الجنة ، لأنه وهو فلاح ابن فلاح لم ير هذه الحياة حتى بالنسبة لأصحاب الوسية الذين كان يعمل عندهم فى عابر السنين ! وبرغم أن الفلاح كان واثقا وثوقا تاما من أن أحدا من الذين يعيشون هذه الحياة لا يشعر به ولا بوجوده فإنه لم يصدق أن هذه الحياة حقيقة واقعة ، ربما لأن البيوت بنظافتها وما حولها من أشجار كثيفة كانت كلها مشاهد تستدعى فى ذهنه ليس فقط أفلام السينما بل صور الجنة كما رسمها شيوخ الدين فى خياله من قديم !

٩

ثم إنهم – الفلاح ومن هو معهم – هبطوا إلى الرصيف ، صعدوا فوق (مدق) رفيع يلهثون ويتمايلون حتى وصلوا إلى قمة التل الأخضر ، فإذا بهم أمام طريق بلورى يشق الغابة نصفين قادما من منحدر بعيد تبدو السيارة وهى قادمة منه كأنها فك حوت لا مع العينين يطل برأسه فوق سطح الماء . . ويتوغل فى أعماق لا نهاية لها من الغابة . .

أغراهم الطريق فمضوا وظلوا يمشون إلى أن هد التعب قواهم ، ولم يروا ثمة مدينة أو ما يوحى بوجود مدن على الإطلاق ، وبرغم أن النهار لم يكن يعد قد انسحب فإنه آثر الانسحاب من الغابة وحدها ، فلما هبط الليل كله دفعة واحدة صارت الأرض كتلة سوداء صماء والطرق اللامعة بوادر المشيب فى الرأس الفاحم !

وكان لابد أن يرجعوا ولكنهم لم يفكروا فى الرجوع إلا حين داهمهم المطر فجأة فكأنه جزء من مؤامرة خسيسة دبرتها الطبيعة عن عمد ! كانوا يوحوحون ويطرحون على أكتافهم بلوفرات . فلما تذكروا أنهم يمشون بين أشجار كثيفة عتيقة أحسوا

يتحازون إلى الرصيف شيئا فشيئا إلى أن خفت رخات المطر كثيرا ، فعرفوا أنهم صاروا تحت الأشجار ، وكان للسكون صوت موسيقى شجى إلى درجة ساحرة ينسى الإنسان خلالها أنه إنسان يرتدى بدلة وحذاء ومنظارا ، ويحس أنه قد صار جزءا لا يتجزأ من هذه الطبيعة التى تغنى بصوت المطر ، حتى ارتعاشهم من لفح المطر والريح ، صار فاصلا موسيقيا من سيمفونية المطر . فبرغم الظلام كانت خيوط المطر واضحة على الطريق المرصوف وضوحا محددا كأنها الأوتار شدت إلى الأقواس ، وصوت الرخ لا يضيع فى صوت تساقط القطرات نفسها من فرع إلى فرع كأنما الأوراق تفرّدُ الكفوف للقطرات ثم تطرحها على أخت لها تحتها لا يضيع أبدا صوتها فى صوت الوحوحة فكل صوت له فى زحام الأصوات تفرده على أن الغريب أن صوت الوحوحة كان كلما ارتفع قليلا اقترب من الزئير وامحت منه اللغة الإنسانية بكل قواميسها الموضوعة . .

صار من العبث أى انتظار ، فشمروا هدومهم ، وتوكلوا على الله عائدين ، فإن لمعت من بعيد فوانيس عربة مضاءة خلا السير واستمرأت الأجساد جلد سياط المطر حتى إذا ما صارت الأضواء شرائط من الدخان الأبيض ترحف نحوهم تصاعد معها زئير جديد كمدعو يشارك فى هذا المهرجان المبجح العظيم الشديد القسوة . الشرائط البيضاء المشعة تثير فى نفس الفلاح الأمتان تحسن الحلق . فإذا هى تقترب منهم تهدئ من زحفها وتطيل فرصة الإضاءة ثم تظهر خلفها عربة تتمهل وتتمهل حرصا على ثياب السائرين وعرضا للخدمات ، لكن الطريق الذى كانوا يسيرون فيه كان عكس اتجاه السيارات .

ظل الطريق يطول ويطول والفلاح لا يصدق أنهم كانوا قد قطعوا كل هذه المسافة ، ولكن طريق الرجوع دائما أشق . .

١٠

علموا أن السفينة ستنتظر فى هذا الرصيف حتى الصباح . قال الفلاح :

– لماذا ؟ المياه وأخذناها فلم الانتظار ؟

قال « السكند أوفسر » :

– الطلبات التى طلبتها السفينة لم تجئ بعد ، فاليوم ست وجميع المحال مغلقة و « الإيجنت » حائر ، والربان مصر على أن يدخل ألمانيا الشرقية بعد قليل أو كثير من الوقت . وفى جيبه « مارك غربى مهيب » !

فتعجب الفلاح فرد عليه « الذى يرى » بأن هذا شىء طبيعى فى ظل هذه الفوضى ، وهنا نظر « حامل القلم » يريد أن يدون ملحوظات فاعتقله « الذى يرى » محذرا إياه استخدام الأسلوب المباحثى ، فانزوى فى الحال وعاد الفلاح يسأل :

– مهمة هى إلى هذا الحد هذه الطلبات ؟

فأكمل صوت « حامل القلم » :

– حتى إننا نضحى بيوم كامل فى انتظار على نفقة الشركة ؟

قال « السكند أوفسر » :

– طاقم كامل من الـ « لايف جاكت » . . أو جاكت الإنقاذ .

اندهش الفلاح غاية الدهشة : ذلك أن السفينة كانت منذ أيام قد وزعت عليهم جميعا طاقما من اللايف جاكت هذه ، فلما أخذ الفلاح واحدة منها قال : ما هذه ! قالوا سنجرى مناورة غرق . قال : وما معنى مناورة الغرق يارفاق ؟ . قالوا : تمثل أن السفينة مشرفة على الغرق وعلى كل واحد أن يلبس هذا الجاكت ، ويستعد لإلقاء نفسه فى الماء ! يومها شابت الشعيرات المتبقية فى رأس الفلاح ، وقرر

الاختفاء فى أى دولاب حتى تنتهى هذه المناورة المؤامرة ، وسأل عن موعدها فقالوا ، إنه لم يتحدد بعد . ولقد مضت الأيام وانقطع الخبر نهائيا وظلت اللايف جاكت مرمية كالقتيل تحت حوض المياه فى قمرة الفلاح . وهى رقعة من قماش الأشرعة على هيئة صديرى يُحشى صدره بالفلين . منظرها قبيح مظلم ، فى كل يوم يحييها الفلاح تحت الكنبة ويعود فيجدها مكانها تحت الحوض من جديد ، لأن السفرجى كل صباح يغسل أرض القمرة ويبرز محتوياتها الرسمية للعيان .

إذن فلماذا تشترى السفينة طاقما جديدا من اللايف جاكت ، وتصر على الانتظار حتى تفتح المحال ؟ .

هكذا سأل الفلاح بغيظ ؟

فقال « السكند أوفسر » إن « الشيف أوفسر » لا يثق فى طاقم اللايف جاكت الموجود لأنه صناعة روسية !

١١

انتهز « الراديو أوفسر » فرصة توقف السفينة وطلب تصليح الرادار الذى لم يكن يحتاج إلا لقليل جدا من الحب حتى يعطى سره البسيط العميق . . ولا يستطيع الفلاح الحكم : باحتمال أن « الراديو أوفسر » جهل تركيب الرادار الروسى أو أنه أنشد إلى سحر العمولة بالمارك الغربى !

١٢

أخيرا تحركت السفينة . وبدأت تدخل فى بحر البلطيق . وكان صوت الموج ينبح فى وكناتها ، ولكن الفلاح لم يكن يقتنع بأنها تسير . . !

« فوتدا » – أى رمى العقول فى البحر !

١

ثقة الفلاح فى كلام « السكند أوفسر » لم تعد فى حاجة إلى دليل ! ذلك أنه تدين حديثا بعد أن استنفدت الموانى العالمية شقاوئه الشبابية فهو يؤدى الفرض بفرضه ، ويتحدث بالآية والحديث النبوى ، ويستغفر لدى الشعور بأى ذنب ، ولذا فإن الريان – المتفنن فى إطلاق الأسماء المستعارة على الناس – يسميه الواعظ من قبيل التريقة والغزء بأمثاله ممن يتدينون فى البحر . . مع أن الريان نفسه كان يبالغ فى إظهار تدينه ؛ ففى قمرته مصحف كبير وآخر صغير ، وفى مكتبته الصغيرة مجموعة كتاب (فى ظلال القرآن) لسيد قطب و (الفتنة الكبرى) لطه حسين ومجموعة أخرى من الكتب التى صدرت فى الفترة الأخيرة تهجم على عبد الناصر وتشكك فى ذمته ووطنيته ، ومجموعة من روايات تولستوى وشتاينبك وهيمنجواى ، وسجادة الصلاة واضحة للعيان وأداء الصلاة فوقها – أيضا – شىء واضح للعيان !

ولقد فهم الفلاح أن الريان يسخر من تدين « السكند أوفسر » لأنه فى الحق صادق تمام الصدق فى تدينه وهو فى عز الشباب فى حين يتشكك الريان نفسه فى تدين نفسه ويرى أنه « مدلس عليها بإظهار التدين ! ولم يكن الفلاح يحق حقيقة ما فهم عن الريان أو عن أحد غيره ، لأن الريان نفسه لم يكن يحق حقيقة نفسه ، إذ كان ينتهى من الصلاة مباشرة ليكمل حكاية الهدف منها تشويه شخص أو عرض سيدة ما ! إلى أنه لم يكن شجاعا بأى من المقاييس ! الأمر الذى جعل الفلاح يستريح لشخص « السكند أوفسر » ويقضى معه بعض الأوقات . .

و « السكند أوفسر » فى نظر الفلاح أكثر شجاعة أيضا من « السيرد أوفسر » الذى كان ينسحب من الحديث إلا ما كان منه فى الكتمان على أن الفلاح يحترم كفايته ويحبه بقدر ما يحب « السكند أوفسر » . .

وفى تلك الليلة ليلة تحرك السفينة من « الكيل » إلى بحر البلطيق استطاع الفلاح أن يلتقى هو والفلاح الذى فى أعماق « السيرد أوفسر » ولا تسألوا كيف ؟ فالفلاحين بعضهم مع بعض لغة قد تغمض عليكم . كان الفلاح يعرف أن « السيرد أوفسر » يقضى آخر رحلة له مع الشركة المصرية للملاحة البحرية ليعمل فى مركب أجنبى بمرتب يوازى مرتب الريان وكبير الضباط معا . .

وكانت هذه المناسبة فرصة لأن يعرف الفلاح كثيرا مما يسمونه « الكوسة » فى الشركة فهذه « الكوسة » الملعونة لابد أنها قوة ذات شأن فهى التى تختارك من الشارع أو من السوق أو من على سريرك وتقول : أنت تسافر – وهى التى بقدرة قادر تقف أمام صاحب الحق الوحيد فى السفر وتقول : ليس عليك الدور ، ولا يجىء الدور أبدا إلا لمن أثبتوا قدرتهم على الرجوع بالهدايا القيمة لمن بيدهم الأمر . . وعلى ذلك فهناك ربابنة وضباط ومهندسون وبحرية لا يجىء عليهم الدور أبدا برغم كفايتهم المشهود بها ؟ فى حين أن زملاء لهم لا يهبطون من البر إلا ليسلموا على أهلهم ،

وهؤلاء فى الواقع ليسوا ربابنة أو مهندسين بقدر ما هم حملة هدايا يؤمنون بحقيقة أن (اللى ياكل لوحده يزور) .

ولقد عجب الفلاح من هذا المثل الجميل الذى عبر به الأقدمون عن قيمة عظيمة هى عدم الاستئثار بالرغيف . كيف يصبح عنوانا للمراهنة واقتسام الحرام ؟ ..

وقال « السكند أوفسر » بغضب هادئ أو بهدوء غاضب :

– الربان والباشمهندس والشيف أوفسر والتسيف بيرسر (الحوجة) فى أى مركب يشتغلون لحسابهم الخاص وليس لحساب الشركة التى يتقاضون منها مرتبات . فالربان يشترك هو ورؤساء الأقسام فى العمولات مناصفة بينه وبينهم وتتردد العمولات ما بين عشرة فى المائة وسبعة عشر فى المائة وهذه العمولة تدفعها الموانى الغربية فقط ولذلك فإن الربابنة لا يحبون التوقف فى أى ميناء شرقى . إن الشركة ملأى بكل عجيب وغريب من الأمور والقوانين التى تخلق أجيالا من اللصوص العتاة أو أى شريف لا يمكن أن يجد لنفسه مكانا فى بحرها إلا فى نهاية السُّلم وعند الاحتياج الضرورى له ! إن الشركة تشبه التيار الرابع فى بحر البسكاى تيار السُّحُب – يفتح السين وتسكين الحاء – المتخلق من التيارات المتعددة التى تصب فيه ، وهو تيار خوى وخطورته أنه يسحب إلى أسفل القاع . . !

ثم ارتفع غضب « السكند أوفسر » وراح يتساءل : لماذا تفتح الشركة مكاتب لها فى إنجلترا وفى خط الشمال ؟ هل ذلك يوفر للشركة على حد تعبيرهم ، أو أن هذه المكاتب فى الواقع مفتوحة لجمع أنصاف العمولات للرءوس الكبيرة فى الشركة ؟ ثم ما هذه المكاتب ؟ لقد افتتحت الشركة مكاتب فى دول أجنبية لتضع فيها لقيطا معينا من موظفيها تتكلف أموالا يقشعر البدن من أرقامها كما يقشعر من مظاهر البذخ فيها : سكرتيرات أجانب وأثاث وأجهزة مكاتب تتضاءل أمام فخامتها سفاراتنا المصرية فى الخارج ! وتزعم الشركة أن هذه المكاتب أقيمت لتنظيم العلاقة بين

سفنها والقرصانات والتوكيلات البحرية . . !

وصمت على حين يلتقط أنفاسه ويشعل سيجارة ثم راح يتساءل مرة أخرى : هل الربابنة قاصرون عن هذا العمل ؟ إننى أدعوك إلى طرح هذا السؤال فى صحيفتك . ما مدى المصروفات الخارجية فى هذه المكاتب ؟ وماذا تجنيه الشركة من ورائها ؟ إذا كنتم حريصين فعلاً على القطاع العام ويهمك أمر المال السائب فابحثوا وراء هذه الأمور ، ثم اسألوا أيضا عن جميع الربابنة القدامى : أين ذهبوا بخبرتهم ؟ وإنى لأقول لك : لقد شتتهم الشركة تشتيتا لكيلا يكون لهم شخصية أو إرادة فى الكيان البحرى فى الشركة ، إذ فرضت عليهم الديكتاتورية وسوء المعاملة فتركوا الشركة غير آسفين ولا مأسوف عليهم ! وهم يعملون الآن فى السفن الأجنبية أو سفن القطاع الخاص . .

ثم جاء من يذكر « السكند أوفسر » بموعد الوردية . وكان « السيرد أوفسر » قد لاحظ منذ البداية أن الكلام دخل فى « الغويط » فانسحب دون أن يشعر به أحد ولم يكن أمام الفلاح إلا أن ينصرف .

٢

فى قمرته وجد « حامل القلم » و « الذى يرى » ينتظرانه وقد لاحظ أنهما ليسا على وفاق ، ففرح جدا ولم يحاول الإصلاح بينهما حتى يتسنى له أن يرتع وحده فى هذا الهواء الطلق . وما إن انبطح الفلاح جالسا حتى بادره (الذى يرى) :

– ما رأيك ؟ . أيجرؤ صاحبك على كتابة هذا الكلام فى موضوع صحفى عن الرحلة ؟

انكمش الفلاح ولم يرد . فقال « حامل القلم » :

– إذا لم أكتب ما سمعت ورأيت فى هذه الرحلة أكون ما ارتحلت ! دل « الذى يرى » :

– لكى تكتب هذا عليك أن تستكتب الأطراف أقوالهم ممهورة بتوقيعاتهم وإلا فأنت تكتب الكلام على عواهنه !

رد « حامل القلم » :

– إن أحدا لن يقبل هذا ، ألم تسمع « التشيف أوفسر » نفسه يردد مرارا وتكرارا أنه لا يستطيع الإيغال فى التصريح خوفا على نفسه وعلى مستقبل عياله ؟ .

قال « الذى يرى » :

– لو استطعت الحصول على توقيعاتهم تكون قد صنعت موضوعا حرّاقاً وساخنا !

قال « حامل القلم » فى ثقة :

– أنا واثق من أن الأطراف المتكلمة لن تنكر ما قالت ، أما وضعها أمام التوقيع فإنه سيشككها فى الأمر . وتحولى من كاتب إلى محقق فى محضر بوليس ، الأمر الذى يضع الأطراف فى حالة عصبية غير ملائمة .

قال « الذى يرى » :

– إذن فاكتب من الآن بعض مذكرات وحدد مصادرك تحديدا قاطعا .

أومأ « حامل القلم » موافقا :

– هو ذاك .

هب « الفلاح » واقفا رافعا ذراعيه مستنجدا :

– فى عرضكم ! ستفسدان على صداقاتى . . حلمه حسة ونذالة منكما . ما ذنبى أنا إذا كنت تريد الظفر بموضوع حراق ، والآخر يريد الظفر بمشهد يرضيه ، اسمع أنت وهو : اصنعا معروفا . . لا شأن لكما بى ، أنا فى حالى وأنتما فى حالكما . أنا

مالى ، أنا رجل جئت هذه الرحلة لأمتع نفسى وأزيل عنها الصدأ ، وهؤلاء ناس حيوا لى وفتحوا لى صدورهم وصاحبونى فلماذا أغدر بهم وأورطهم أمام رؤسائهم فى سين وجيم ؟ وأنا لا أشك فى أنى سأقابلهم بعد ذلك عشرات المرات وإن قابلتهم فلا شك أنى سآخذهم بالأحضان . أليسوا رفاق رحلة ومأكل ومشرب ونوم ؟ أمامكما « جيمى » فى القمرة المجاورة . اذهبا إليه وشجعاه على ما يفعل إنه يحمل فى جيب صدره ورقة مطوية وقلما يتعقب بهما أخطاء الهواء ويدونها علنا وأمام الهواء . . . إنه مثل ملك اليسار يسجل على كل إنسان ما يلقى به فى نار جهنم ! أما أنا فلا أريد أن أسجل شيئا ، ليس جبنا وليس تدليسا ، بل إيمانا بأن ثمة فائدة من كل هذا لن تتحقق !

ثم أشعل الفلاح سيجارة وانزوى فى الركن لا ينظر إلى أحد . وإن كان يشعر أن نظرات الاحتقار توجه إليه من مقصوف الرقبة « الذى يرى » الذى يغمض عليه عينه ، ويتهمه بالانتهازية ، كلما « هوب » نحو باب مفتوح ! وكان لحظتها يتألم لكنه يستعذب الألم فيما يسمع « التشيف أوفسر » يناديه باسمه مجردا علامة الصداقة والود فما إن دخل « التشيف » عليه قرنه وراح يحدثه عن همومه وهواجسه حتى كان الفلاح قد « فرقع » حامل القلم « والذى يرى » وصار يسامر التشيف . . إلا أنه لم يكن واثقا أن النصر سيكتب له عليهما .

٣

بعد حوالى ثمانى ساعات من السير فى بحر البلطيق أشرفوا على ميناء « ويزمار » أحد موانى ألمانيا الشرقية ، وهو الميناء التى سترفأ إليه السفينة وكان المفروض أن تزود السفينة بمرشد من محطة إرشاد ميناء « ويزمار » ليدخلهم الميناء ولكن هذا

المرشد لم يأت . وبدلا منه جاءت التعليمات تأمرهم بالانتظار فى مكانهم إلى أن يفرغ للسفينة مكان على الرصيف !

عم السفينة كلها شعور باكتئاب ، رهيب ، انعقدت الحواجب وكثرت المشاحنات وعلت الأصوات أكثر مما يجب ، وكثر وقوع الأطباق واندلاق الشاى فوق الثياب . وعلم الفلاح أن سبب هذا كله هو « رمى المخطاف » وسمعهم يرددون كلمة المخطاف كأنها سجن القلعة ! وقال : لابد أن أرى هذا المخطاف . ثم إنه نزل من فوره وسار بجوار العنابر فى اتجاه « البروة » مقدمة السفينة مشوارًا طويلاً .

حتى إذا ما وصل إلى مقدم السفينة صعد سلما صغيرا إلى سطحه فرأى مربعا مفتوحا فوق السطح ، فنظر فى جوفه ليرى ما يشبه محطة الكهربية فى الشوارع ، وقالوا له : « هذا هو بيت المخطاف » . .

مصيبة ! أينام المخطاف فى كل هذه المساحة ؟ . وابتسم « الباش ريس » وشرح له أن الذى ينام فيها هو الجنزير المثبت فى المخطاف ، وهو جنزير إذا حزمت به عمارة رمسيس وشددته فلابد أن يقطعها قطع الخيار . . أما المخطاف نفسه فهو علامة الهلب الشهيرة . وزنه لا يقل عن خمسة أطنان من الحديد . . ما إن يسقط فى قلب البحر حتى تتوقف السفينة فى مكانها . وأقصى ما تفعله الريح أو الأمواج فيها أن تجعلها تدور ببطء شديد حول نفسها ، أو تنزحزح يمينا أو يسارًا ، أو أماما ولكن فى دائرة محدودة مركزها نقطة التقاء المخطاف بقاع البحر !

لكن ماذا لو انحشر المخطاف بين الصخور أو انغرز فى أعماق رخوة ؟ أجاب « الباش ريس » : إنه حينئذ يتم قطع الجنزير وترك المخطاف فى مكانه على أن يربط فى أعلاه عوامة رمزية ترشدهم إلى مكانه حين يعودون لانتشاله .

وكان عائدا هو و« الباش ريس » بجوار العنابر كأنهما يمشيان على شاطئ قناة رفيعة . فى حقل مروى حديثا تغطى المياه سطحه من جميع الجهات . وتبدو السفن

البعيدة الراسية المخطاف هى الأخرى كمجموعة من القرى الصغيرة المضاءة بلمبات الغاز .

جلس الفلاح فوق حافة « اللاباندا » يستمع إلى حكاية البحرية . .

إنهم أشكال وأنواع : بعضهم قديم ، وبعضهم نصف قديم ، وبعضهم جديد . فى الماضى كان البحرى يتخرج من مدرسة اسمها الفاروقية . وهى عبارة عن مركب تتبع مصلحة الموانى يوضع فيها الأيتام كى يتعلموا فن البحر . وهذا المركب لا تزال حتى الآن ، ولكنه نصف غارق فى رصيف المتروكات بجوار الشركة العربية لإصلاح السفن بعد أن مُلئت كل مراكب الدنيا بالبحرية . وهناك فئة أخرى هم أولاد البحر معظمهم من أولاد البحارة القدامى الذين يثرون فى الميناء وعملوا بنبوطية ثم التحقوا بالبحر نفسه . أما البحرية الحاليون فإنهم ينقسمون إلى عدة فئات . بعضهم كانوا جنودا فى القوات البحرية فلما خرجوا من الجندية اعتبروا أنفسهم ذوى خبرة فاستخرجوا جوازا بحريا من الفنارات واشتغلوا بحارة على السفن التجارية ، وهم طبقة كبيرة جدا ، وهناك طبقة ثانية كانوا فى الأصل طلبة توقفت أمخاخهم الطلابية عند حدود الثانوية العامة . ولأن مجاميعهم فى مستوى أمخاخهم وأمخاخهم أضعف من الكليات والمعاهد العليا . فبطريقة ما استطاعوا الحصول على جواز سفر بحرى وعملوا فى البحر . كذلك توجد فئة ثالثة من البحرية كانوا فى الأصل موظفين بالثانوية أو الإعدادية أو الابتدائية القديمة ، ولم تعجبهم مرتباتهم فاستخرجوا جواز سفر بحريا وعملوا بحارة على السفن التجارية ، وهؤلاء لا تأخذ منه سوى « الأونطة » فقط ، أما الشغل والخبرة فلا . .

وفى الماضى كان الواحد من البحرية يحصل على مرتبه ومرتب « نص بحرى » من كثرة شطارته وجسارته ، أما اليوم فترى الواحد منهم ، رجلا شائخا ولا تزال رتبته « نص بحرى » والواحد يبدأ العمل بوظيفة « ربع بحرى » وهو وشطارته ! فإن كان

ذا همة يرقى إلى « نصف بحرى » ثم يترقى إلى « بحرى » وإلى « ريس بحرية » وإذا كان فى العمر متسع فإنه يترقى إلى آخر رتبة وهى « الباش ريس » وهذا هو بتعبيركم بأهل الكلام والوظائف « السلم الوظيفى لنا » .

هكذا أنهى « الباش ريس » كلامه عن البحرية على حين يهض واقفا ويضيف :

– هؤلاء طبعا يختلفون هم والطاقم من الضباط والمهندسين فإنهم يتخرجون من الأكاديمية البحرية التجارية .

ومضيا معاً حتى قمرة « الباش ريس » وهو لا يزال يتحدث :

– نسيت أقول لك يا أستاذ : إن البحرى ليس هو الذى يعمل على السفينة ، البحرى هو المسئول عن العمل بالسطح ، سطح السفينة طبعا . والسطح هذا أحد ثلاثة أقسام يتكون منها طاقم العاملين على أى سفينة تجارية فى العالم . ونسيت أن أقول لك إن البحرية هم قيادة السفينة ، وقانون البحار يعرف هذا ويكتبه فى دفاتره ويعلمه فى الكليات ، وقسم السطح كله يتولى صيانة السفينة والقيادة والأعمال التى بنيت من أجلها السفينة .

ولم يكن الفلاح قد نسى أمر المحطاف بعد ، فعاد يسأل عن المدة التى يمكن أن تبقاها السفينة فى المحطاف . فابتسم « الباش ريس » وقال إن هذه محنة تعودها إذ لا مفر منها ، يعتبرونها مدة سجن لمدى شهر أو شهرين أو نصف شهر أو حتى أسبوع لكنهم دائما يقولون لأنفسهم إن المدة لن تزيد على عشرة أيام بالكثير فإن زادت على ذلك أجارك الله من الأيام التالية !

٤

حار الفلاح واستجار ، ولم يكن قد مضى سوى أيام قليلة على رمى المحطاف وقد خلا الطريق لـ « حامل القلم » و « الذى يرى » ، فصال وجال القلم ودون وغاص « الذى يرى » فيما يرى حتى أصبح عزوفا عن أن يرى . امتلأت كشاكيل « حامل القلم » بالمشروعات الروائية وصدق عليها « الذى يرى » وقام بين الاثنين وفاق أذهل الفلاح وجعله يتوقع أن يكون من بين الشخصيات التى سيتم تعريتها فى المشروعات الروائية ، فلقد كان الفلاح مثل بقية الطاقم جزءا لا يتجزأ من هذا العالم السجين فى قلب البحر سجنا بلا حراس لكنه عات ورهيب وكان كل واحد قد حكى ما عنده فلما فرغت حواديته حكى حواديت غيره ، ولما فرغت حواديت غيره ظهرت نوادرهم ، حتى إذا ما فرغت نوادرهم تكشفت مآسيهم وعوراتهم فعصفت بالقية الباقية من توازنهم . . وصارت السفينة أغنى من أغنى مستشفى مجاذيب فى العالم . فإذا كانت مستشفى المجاذيب تضم المجاذيب . بالفعل وهم من السهل تخويفهم أو حقنهم فإن السفينة فى المحطاف تضم المجاذيب العقلاء ، المجاذيب الذين يعرفون ويعون أنهم صاروا مجاذيب .

الفلاح أيضا كان يعى مثل ما يعون . ولكن الذى خنق صدره حقا وكاد يكتم أنفاسه هو اكتشافه فجأة أن السفينة ضيقة مزدحمة ازدحاما كيوم الحشر ، صحيح أن كل الذين فيها لا يتجاوز عددهم الأربعين فردا على سفينة طولها مائة وخمسة وثلاثون مترا وذات خمسة طوابق إلا أن الفرد إذ تطول مدة المحطاف لا يصبح فردا . بل يصبح أسرة بكاملها ، تعيش معهم فى السفينة بكل همومها ومشاكلها . ويصبح

كل واحد إذا دخل أى فترة يتوقع أن يرى فيها زوجة صاحبها وقد فرغت نفودها وأولاده وقد تعطلوا عن مدارسهم أو أمه وقد أكلها القلق أو أباه يعانى سكرات الموت . . !

وكان الفلاح يخرج ضائقا إلى سطح « البريدج » أو إلى (الكوبرته) فيتعثر فى مشاكل لا حصر لها . وقد يجزم أنه تعثر إذ وجد ابنه فى عينيه وصوت زوجته فى أذنيه !

٥

عجزت محطة اللاسلكى عن الاتصال « بالإيجنت » أو بمندوب الشركة المقيم فى هولندا ، فراديو الاتصال فى هذه السفينة بالذات ليست به موجات الاتصال من القناة (١٧) حتى القناة (٣٠) وقيل : إن هذا المندوب هو مندوب الشركة المصرية فى موانى بحر البلطيق ومسكنه هولندا . وقيل أيضا إنه ليس من رجال البحر فى شىء ، إنما هو ضابط قديم أعطى هذه الوظيفة على قدر مقامه ، وإنه يختلف هو ومندوب (الكونتنتال) الذى يمثل الشركة المصرية فى موانى شمال أوربا ، ويقطن مكتبا كالذى تحدث عنه « السكند أوفسر » والوظيفة القانونية لكل منهما هى الإشراف على جميع مراكب الشركة التى تصل إلى منطقته إشرافا تماما على الشحن والتفريغ والتصليح والإمداد والتموين ، فكأنه صورة مصغرة من إدارة الشركة كلها ممثلة فى شخص واحد له حتى الأمر كما أن لتوقيعه قيمة كبيرة .

عجب الفلاح من أن هذه المحطة اللاسلكية المهولة تعجز فى مثل هذه اللحظة الهامة عن الاتصال بالمندوب فى هذا النطاق الضيق وهى المجهزة تجهيزا علميا حافلا ، لكن عجبه زال حين أدرك أن الاتصال فى الواقع مفقود حتى بين الشركة

وأبنائها وبين طاقم السفينة والسفينة نفسها على أن الذهول كاد يعصف به حين أخبره « التشيف أوفسر » أن السفينة تحمل أربعة آلاف وسبعمائة وخمسين طنا ما بين أرز وقطن وغزل وقماش وملابس تتقاضى الشركة عنها نولونا قدره ثمانون ألف جنيه مصرى . فى حين أن السفينة صرفت حتى اليوم – ١٦ أغسطس سنه ١٩٧٦ – ما يزيد على ثمانين ألف جنيه على أساس أن مصروفاتها فى اليوم الواحد تبلغ ألفين وخمسمائة جنيه . . !

وكان « حامل القلم » يحاول تدوين هذه الأرقام إلا أن « الذى يرى » كان ينظر إليه فى سخرية ويردد ذلك المثل العربى القديم :

ألا واعلى يا أم عامر !

ولابد أن « أم عامر » هذه كانت مغرمة بتحريك المنخل فى الفراغ ، وقال « التشيف أوفسر » وهو يراقب دهشة الفلاح :

– فوضى ! لا تندهش من نتيجة الفوضى فالسفينة تخرج من الإسكندرية وليس لديها أى علم بما ستحمله من هنا أو من هناك . المعلومة الوحيدة عندها أنها ستفرغ شحنتها فى الميناء الفلانى وعلى السفينة أن تظل هدفا للأمواج الطارئة تتلاعب بها كيف تشاء . من علامات الفوضى كذلك أن السفينة (رمسيس) تسير الآن فى خط المفروض أنه خط الشمال ، حمولتها سبعة آلاف ومائتا طن ووراءنا الآن مباشرة وفى نفس الخط السفينة (المندرة) وحمولتها سبعة آلاف وخمسمائة طن والسفينة (مريوط) سبعة آلاف وخمسمائة طن أيضا والسفينة (٦ أكتوبر) وحمولتها ثمانية آلاف طن . فهل هذا تخطيط ؟ وهل هذه إدارة عمل ؟ أى محمول فى الدنيا يرمى كل هذه السفن فى خط واحد بعضها وراء بعض وينتظر أن تعود إليه محملة بالمكاسب . . ؟

•

لوى « الفلاح » بوزه فى اشمئزاز ، ونظر « حامل القلم » سائلا :

ومن المسئول عن هذه الفوضى ؟ .

قال « النشيف » :

– لا أريد أن أتكلم عن الإدارة التجارية بالشركة المصرية . .

فأنا لا أريد أن أفصل من عمل أو أن أمنع من السفر !

احتى « حامل القلم » مما طمأن « النشيف أوفسر » قليلا وجعله أكثر صراحة فأخذ يتساءل : فى السنوات الأخيرة : كم عدد المرات التى تغير فيها مديرو الشركة وموظفوها ؟ وما الأسباب ؟ ثم أجاب : إن على من يريد معرفة الحقيقة أن يبحث فى أوراق الشركة ومحاضرها حول هذين السؤالين السابقين . .

سأل الفلاح :

– ولكن ، كيف تكون البضائع قادمة لألمانيا الشرقية ، ثم لا تجد مكانا للسفينة على الرصيف ؟ .

ويرز حامل القلم ثانية :

– ما معنى هذا ؟ تحمل لهم البضائع ثم يدوحولنا ؟

قال « النشيف » :

– الاتفاق : تسليم الميناء . وليست تسليم الرصيف .

الدهش الفلاح . وسأل « حامل القلم » :

– ما الفرق بين الاثنين ؟

قال « النشيف » :

تسليم الميناء معناه أن السفينة حين تصل عليها أن تفرغ شحنتها وعلى هيئة الميناء إيجاد مكان لها على أى وضع . وإذا تأخرت الهيئة فى ذلك تدفع غرامة أو تعويضا للسفينة تختلف قيمته باختلاف حمولة المركب وهو يصل أحيانا إلى ثلاثة آلاف جنيه فى اليوم ، أما تسليم الرصيف فإن السفينة حيث تصل عليها أن تنتظر حتى يخلى لها

مكان ، ولا يكون لها الحق فى المطالبة بتعويض نظير التأخير ، وكل سفن القطاع العام عقدها عادة تسليم رصيف . .

صاح « الفلاح » :

– ولماذا يختار القطاع العام هذا الوضع ؟ أهو انتباه إلى الرصيف مثلا ؟ . .

رد « النشيف » بهدوء :

– السر فى نفس يعقوب !

ثم أضاف بعد برهة يسيرة :

– وللعلم : المراكب التى تدخل مصر يكون عقدها عادة تسليم ميناء ، ولذا فإن مصر تدفع تعويضات لا حصر لها بعد أربع وعشرين ساعة من دخول السفينة !

هنا أسر « حامل القلم » على البقاء فى هذه القعدة فى قرة « النشيف » حيث افندوه والشاى والأسرار . وقد علم أنه من بين أسرار المخطاف وخسارة سفن القطاع العام شركة اسمها « مارتيرانس » وهى شركة قطاع عام أيضا ، أنشئت فى أوائل الستينيات لكى تقوم بعملية تجميع البضائع التى تستوردها الحكومة المصرية من مختلف أنحاء العالم . والاتفاق مع أصحاب السفن على نقلها إلى جمهورية مصر العربية . وهى الشركة المصرية الوحيدة التى تقوم بهذا النشاط ومن أول واجباتها – وهو صادر فى قانونها – أن تكون الأولوية فى نقل البضائع للشركة المصرية للملاحة البحرية باعتبارها الشركة المصرية الوحيدة قطاع عام .

ولكن فى أوائل عام ١٩٧٤ أنشئت شركة قطاع خاص مكونة من شركة مصر للتأمين وبعض المساهمين العرب والاقتصاديين المصريين اسمها شركة الإسكندرية للأعمال البحرية ، ومن اختصاصها عمليات ربط البضائع أيضا مثل « مارتيرانس » وفى حينها أعطيت امتيازا فى ذلك من وزير النقل البحرى ، ولما كان هذا يخالف القرار الجمهورى الذى من أجله أنشئت « مارتيرانس » فقد قامت قضايا بين

الشركتين فصل فيها القضاء لمصلحة شركة الإسكندرية فى الجولة الأولى ، ولكن « مارتيراس » كسبتها فى الجولة الثانية والأخيرة والفاصلة وبذلك صارت هى الشركة الوحيدة التى من حقها ربط البضائع التى تستوردها مصر والقيام بتدبير نقلها على السفن سواء كانت مصرية أو أجنبية على أن تكون الأولوية لسفن الشركة المصرية للملاحة البحرية . .

غير أن الذى يحدث الآن أن الشركة المصرية للملاحة البحرية تربط لها دائما بضائع أقل نولونا : فمثلا إذا كان هناك خمسمائة طن من البضائع مقسمة إلى مائتى طن بضائع عامة وثلثمائة طن حديد فما يربط للسفن المصرية هو الحديد أما السفن الأجنبية فتحظى بالبضائع العامة . وشتان بين سعر نقل الحديد وسعر نقل البضائع العامة . . !

من خلال هذا المثل يتضح أن « مارتيراس » قامت بواجبها فى إعطاء الأولوية للشركة المصرية للملاحة البحرية ، ولكن الواقع أنها لم تخدمها بقدر ما خدمت السفن الأجنبية على حسابها . بالإضافة إلى هذا فهناك خطوط بأكملها مغلقة أمام القطاع العام البحرى ، ومفتوحة على وسعها أمام شركات القطاع الخاص !

٦

محطة اللاسلكى فى أى سفينة نعمة من نعم الله ، ولا يدرى الفلاح كيف كان هناك سفن فى الماضى بلا محطة لاسلكى . إن البحر بهذه المحطة لم يصبح فراغا موحشا بالخطورة والأسرار الغامضة ، بل صار نزهة بحرية رائعة ينطلق الخيال فيها بلا حدود : فى أى لحظة يستطيع البحار أن يتحدث مع من يشاء فى أى بقعة من بقاع الأرض يابسها وسائلها وفراغها الجوى ، وبهذه المحطة تقوم صداقات عميقة

تستمر سنوات طويلة بين طرفين قد لا يرى أحدهما الآخر فى حياته ، إذ يحلو للضابط اللاسلكى أن يستدر له رفيقا فى عتمة المساء . . فيتودد إلى أى سفينة على بعد عشرات بل مئات الأميال ، فيطلبها ويتسامر قليلا وضابطها . وكثيرا ما يكون الضابط اللاسلكى جالسا بين ذكرياته فى لحظة انفراد تام فإذا بذبذبات تناديه .

ويا لحلاوة هذا الكون الكبير المهول المليء بالجبابرة والأباطرة والصواريخ وعابرات القارات والعاجزين عن مد القدم خطوة واحدة إذ يتحول فى مثل هذه اللحظات الرائعة إلى مجموعة من الذبذبات ، بل الإنسان نفسه يحس فجأة أنه عبارة عن مجموعة من الذبذبات وأن هذه الذبذبات التى يحيا بها لم تكن فى الأصل موظفة إلا للاتصال بالآخرين : بالكون وأشيائه ، الكون الذى يقوم هو الآخر على نفس الذبذبات التى هى فى الواقع أوتار مشاعره وسر اتصاله بالكائنات الحية فوقه !

يقول « الفلاح » لـ « الذى يرى » وهو يستمع منه إلى هذه الحذلقات :

– دعك من هذا الكلام : لأنه أولا ليس نابعا من قريحتك ، إنما هناك شبه بينه وبين كلام كتبه « يوسف إدريس » ذات مرة فى إحدى مقالاته على ما أذكر . دعك منه وانظر إلى ما يحدث للضابط اللاسلكى حين تناديه مثل هذه الذبذبات ما الذى يعتريه بالضبط ؟ أى سعادة طاغية تلك التى تتدفق من وجهه ومن إصبعه الذى يضغط به فوق رأس ذر مثل زرار البالطو فيصدر أصواتا لا بل يصدر صوتا واحدا لا غير ، ومع ذلك يتحول هذا الصوت إلى لغة كاملة شديدة الوضوح حاسمة قاطعة هذا الصوت الواحد الذى يقول – فقط – « توت » والذى هو بالقياس إلى عالم الأصوات أبكم أخرس لا قدرة لديه على التعبير مطلقا ، وبقدرة قادر عظيم يصبح الصوت الواحد ليس فقط كلمة محددة بل عشرات المئات من الكلمات . بل تتكون منه جمل واستطرادات ، وتكتب به البيانات . ما هذا الذى يحدث للضابط اللاسلكى ، وهو بإصبع واحدة يخاطب العالم كله على حين أنه مضطجع

فى حضن غائص بين طبقتين من الأمواج من تحته ومن فوقه ومن أمامه ومن خلفه : موجات البحر وموجات الأثير . فياله من عالم أثير !

ابتسم « الذى يرى » وقال :

– أتعرف ما الذى يحدث له ؟ إنه هو الآخر يتحول إلى ذبذبات ! ولن يتعرف عليه الطرف الآخر إلا من خلال ذبذباته . . فالذبذبة أيضا روح مثلها مثل الإنسان . فهى على التحديد روحه : فجأة زام « حامل القلم » ورفع حاجبيه مشيرا إلى جوار أذنيه فيما يشبه القرنفة :

– ها ، تريد أن أكتب هذا الكلام فى موضوع صحفى ؟ إن الصحافة لا ترحب بمثل هذه الترهات . وقد يتطاول أحد المتحمسين قائلا : إنها نوع من الإنشاء ، إنما نحن نريد معلومات . معلومات باهرة وأشياء تخلب لب القارئ ، وتضيف إلى ذهنه .

فازور عنه « الذى يرى » وشوح له « الفلاح » ، ثم ما لبث أن انصرف الفلاح عنهما ، وراح يعاشر لحظات الضابط اللاسلكى حين يأتيه النداء فجأة فى لحظة موغلة فى الليل من شخص لا يعرفه ولا يعرف بلده ، ومع ذلك طلبه ليقول له : إن هناك من يتصل بك ولا يستطيع ، وقد التقطت ما يريد تبليغه لك وهأنذا أبلغك نيابة عنه ، وإليك رقمه وعنوانه ورمز اتصاله فحاول الاتصال به إن استطعت .

مثل هذا الاتصال كان قد بدأ يكثر قرب المخطاف بين السفينة (رمسيس) والسفينة (أورانيا) ، وهى سفينة مصرية قطاع خاص تعمل تحت علم لبنانى اضطر صاحبها – وهو من أنجح ملاك السفن المصريين – إلى رفع العلم اللبنانى ، لأنه حين أراد العمل تحت لواء العلم المصرى وضعت فى طريقه عشرات العراقيل ، فبساطة نقل مقر شركته إلى اليونان ، واكتفى من مصر بمكتب صغير للتشهيلات والاتصالات . اسمه (وائل خيطة) من « أجاويد » « بور سعيد » وكان لا يملك من

« حطام » السفن إلا « أورانيا » التى اشتراها نصف عمر . فلم يمض وقت طويل حتى اشترى من عرقها وحدها إحدى عشرة سفينة جديدة بالإضافة إلى أربع تم التعاقد عليها ! ويدير له هذه الشركة الثانى فقط من القباطنة المصريين الذين « طفشوا » ، هربوا من « التيار الرابع » أو تيار السحب إلى القاع فى الشركة المصرية للملاحة البحرية فبفضلها صارت سفنه مرتع أحلام كل العاملين فى القطاع العام ، ومرتع خير وكسب لعشرات البحارة العاملين من الذين يعملون عليها بمرتبات لامعة تفوق مرتبات أكبر الرءوس فى أكبر دول العالم لدرجة أن الطالب « الكاديت » الذى يقضى فترة التمرين على سفنها يتقاضى مرتبا قدره مائة وخمسة وسبعون دولارا فى الشهر فى حين أن نظيره فى الشركة المصرية يتقاضى مصروف يد لا يكفى سجائره !

حين تناثرت كل هذه المعلومات فى اتجاه السفينة – عرف الفلاح : لماذا اهتم كل طاقمها بهذه الاتصالات دون الضابط اللاسلكى وحده ، وأول سؤال اهتم بتوجيهه طاقم السفينة « رمسيس » لضابط السفينة « أورانيا » غير اللاسلكى هو :

– اتغدينا إيه النهارده ؟

وجاءهم الجواب زمانا صاعقا :

– اتغدينا حمام مشوى !

فى ذلك اليوم كانت السفينة « رمسيس » قد ملأت بطنها بشوربة العدس والمكرونة ، وفى أقل من برهة صغيرة كان معظم اللامعين من أفراد الطاقم قد تلقوا دعوة للغداء على السفينة (أورانيا) حاما مشويا بمجرد أن ترسو السفينة على الميناء !

وكانت (أورانيا) هى الأخرى قد زحفت واقتربت وألقت المخطاف بجوار (رمسيس) ، فصارت بالنسبة لها مثل قارة جديدة أكثر لمعانا وتقدما يحلم أفراد (رمسيس) باختراع سبل للتوصل إليها ولو بإقامة الأقمار الصناعية ، ذلك أن الحصار مضروب حولها كلتيهما ليس فقط بموج البحر بل بكل الأسلحة !

فى الحال صار «محمد الشاذلى» ضابط لاسلكى أورايا - أشهر وألمع الأسماء فى السفينة «رمسيس» كأنه وزير خارجية القارة التى أكثر رفاهية ، وصار الفلاح يسمع عنه الأساطير والحكايات . ويكتشف أن معظمهم كان زميلا له فى الأكاديمية أو فى فترة التمرين أو فى البر . وصارت أنباء وجبات (أورايا) تصل لـ (رمسيس) أولا فأولا وتثير دخانا كثيرا وزوابع عاصفة فى صالون الطعام !

ولابد أن «الشاذلى» كان بالفعل يعيش دوره كوزير خارجية القارة التى أكثر تقدما ، إذ ما كاد يعلم أن رمسيس عجزت محطتها عن الاتصال بمندوبها فى هولندا . أو فى أى مكان حتى استخدم محطته فى توصيل (رمسيس) بمندوبها وأتاح للربان فرصة للتحدث مع المندوب براحة تامة بحيث يعطيه فكرة شاملة عن «دقة الموقف» ذاكرا له أن السفينة تعانى من مشكلة المياه فضلا على أن بها ركاباً من الصحفيين يخشى على الشركة من سلاطة أقلامهم !

فلما علم الفلاح أن محطة اللاسلكى فى (أورايا) عوضة للنقص الذى فى محطة (رمسيس) على الرغم من أن الأولى عجوز والأخرى عروس ، وعلى الرغم من أن الأولى أقل عدة وعتادا وتجهيزا من الأخرى ابتسم فى مرارة ، واستمع إلى (حامل القلم) مرتلا وهو يسخر من الموقف قائلا : إن القطاع الخاص يؤدى دوره فى الاقتصاد القومى بسد عجز القطاع العام .

٧

أخيرا تلقت السفينة أمرا بالتحرك لدخول الرصيف .

وكالعادة انطلق «الفلاح» يهرول إلى سطح «البريدج» ليرى دخلة المياه .

٨

ما أحلى المواني حين تكون صغيرة محدقة إنها تكشف فى الحال عن شخصية المدينة . وكأن هذه «الدخلة» إلى المياه تلخيص دقيق لطبيعة المدينة وجوهر شخصيتها من الداخل . هذه المدينة الصغيرة التى بدأت تظهر من بعيد تترك فى نفس الفلاح إحساسا مختلفا عن إحساسه ببقية المدن الأخرى . إنها مثل سيدة تلبس «تاييرا» من الصوف الملون وتقف ممسكة بمظلة على حين يتساقط الجليد فوقها دون أن ترتعش أو يهتز منها البدن .

للفلاح إحساس بالمدن ، فهو يعرف المدينة من رائحتها ، والمدينة التى بلا رائحة كالشجرة المنزوعة من الأرض تتحول إلى فروع جافة يظن «الفلاح» أن كل المواني التى على شواطئ البحر تتضوع برائحة واحدة هى على التحديد رائحة البحر نفسه .

ولقد راح «الفلاح» يستنشق هذه الرائحة محاولا تمييز الفروق البسيطة جدا التى تميز مدينة من الأخرى من مدن البحر . . وأبرز فرق ميزته أنف «الفلاح» فى «ويزمار» هو رائحة المطر حتى لو الشمس طالعة . ربما لأن شمسها تتربع فوق كرسيها على خط الأفق محمرة الخدين ، فى رخاوة من خرجت لتوها من حمام بارد ، وكأن يعجب من روعة منظرها وهى تنكمش على نفسها فجأة ، ثم تستسلم من جديد لدش المطر ، ذلك المطر الخفيف اللذيذ الذى يحلو لك أن تستسلم له أنت الآخر !

صارت السفينة تودع قرص الشمس منحرفة إلى اليمين ، داخلة فى قالب مستطيل مكون من صفين متقابلين ، وكانت تدخل بمؤخرتها وكل أفراد طاقمها يرصون خلف «اللابانده» وخلف النوافذ ناظرين إلى الرصيف الذى صار على يسارهم بعد أن كان أقرب إلى يمينهم . ولاحظ «الفلاح» أن ثمة سعادة تتقافز على

الوجوه فى صمت صاحب بالنظرات غير البريئة . مثل نظرات رجل هادئ وقور تضبطه فجأة متلبسا بالنظر فى بهم إلى امرأة !

وكان لابد لحامل القلم أن يستقصى سر هذه الفرحة ، وكان « الفلاح » يحس بحركاته الخفية ، ويود أن يعلن استنكاره لها غير أنه يراوغ ويندمج هو الآخر فى الفرحة الأزلية التى تنقل إلى الفلاح سرها وسحرها : الفرحة بدخول ميناء جديد !

الفلاح يكتشف أنه « فى – آى – بى »

١

جىء بكشك صغير وضع أمام الرصيف ، وجلس فيه شرطى صغير السن مزود بمسدس وجهاز لاسلكى . وعرف الفلاح أن كل سفينة لابد أن يوضع أمامها مثل هذا الكشك الحافل ، ثم إن بوليس ألمانيا الشرقية صعد إلى السفينة – كالعادة طبعاً – وأجرى بها بعض التفتيش التقليدى بحثاً عن ممنوعات أو أناس مهربين . وراح يراجع قائمة الطاقم والركاب .

وكان « الخوجة » قبل ذلك بليلة واحدة قد تصالح هو و« الراديو أوفسر » وأهدى له علبة سردين وبيضتين حتى لا يحرن عليه ويمتنع عن كتابة القائمة وهو عمل من المفروض أن يقوم به (الخوجة) ، ولكن (الخوجة) لا يحب وجع الدماغ وليس مستعداً لكتابة قائمة طويلة تضم ما يزيد على الأربعين اسماً باللغة الإنجليزية أمام كل اسم وظيفته ورقم جواز سفره !

ولكى يراجع بوليس ألمانيا الشرقية هذه القائمة حدث مشهد طريف لا ينساه «الفلاح» ، إذ طلب البوليس من الربان إحضار كل أفراد الطاقم أمامه للتيقن من أشكالهم ماعدا الصحفيين . .

وفى صالون السفينة وقف الضابط وجنوده خلف ترابيزة وضعوا عليها جوازات السفر البحرية ! وهى مميزة من غيرها من الجوازات بأن غلافها أسود على طول الخط . وبجوارهم وقف (الخوجة) و«الراديو أوفسر» و(الشيف أوفسر) و(السكند أوفسر) فى ثيابهم الرسمية التى تشبه زى فرقة حسب الله ! ويبدئ بنداء الأسماء – باللغة العربية طبعاً :

– فلان الفلانى . .

فيقول : أيوه ثم يقف ، فيظل الضابط الألمانى يتطلع فى وجهه محققاً فيما يمسك من جواز سفره ، ولا يلق بالجواز إلا حين يتقدم صاحب الاسم المنادى ويقف إلى بعيد . .

كان «الفلاح» يرقب هذا المشهد بفضول على حين يكتم ضحكاته ويكتم رغبة فى التقافز فى الهواء بنزق لا يدرى دوافعه . لكنه كان يتذكر «أنفار الدودة» فى الوسية حيث كان هو يتروى بينهم «وتكركب» بطنه لدى النداء خوف السخرية المعتادة من رفاقه بين الأنفار ! كان يقف ويقول : أفندى . ثم يجلس فى الحال قبل أن يلاحظ الكاتب شكله فيرفضه أو يقلل من يوميته ، ثم تذكر الفلاح أيضاً كيف صار ملاحظاً ينادى أسماء الأنفار من كشف بيديه بعد أن كان نفراً . . !

وحين كان طاقم السفينة ينسلت واحداً وراء الآخر إثر كل نداء رفض «الفلاح» أن يصدق شيئاً من كل ما حدث ، رفض تصديق أنه سافر إلى أوربا وأنه الآن فى إحدى أهم بقاعها وبين بوليسها شخصاً ذا شأن . بل رفض تصديق أنه تجاوز عتبات الوسية بخطوة واحدة !

٢

تسلم كل واحد من أفراد الطاقم قصاصة ورق فى طول علبة السجائر عليه أن يضعها داخل جوازه فإذا خرج من باب السفينة عليه أن يسلمها إلى الشرطى الجالس فى الكشك الذى يتسلمها ويراجعها على الجواز . ويراجع الجواز على الوجه ثم يحتجزها ويعطيه بدلاً منها ورقة أخرى أعرض قليلاً دونت عليها بعض البيانات التى لم يعرف «الفلاح» منها حرفاً واحداً . بهذه الورقة يجول الواحد فى المدينة ما يشاء حتى إذا ما عاد إلى السفينة أعطاها الشرطىّ وأخذ الورقة الأولى . وهكذا إلى أن تتهيأ السفينة للإبحار فيسترد البوليس أوراقه وتسترد السفينة حريتها لتعود فتقذفها فى قلب البحر أكبر هازئ بما نسميه الحرية . .

٣

لم يكن «الفلاح» يعرف أن «ورقته» مميزة على أوراق الطاقم ، إنما هو يتذكر أن البوليس عاد وطلب من الصحفيين أن يدونوا بياناتهم فى ورق منفصل عن قائمة الطاقم ، وبشكل أكثر إستيفاء ، وكان المفروض أن يقوم كل واحد بتدوين بياناته بنفسه ، ثم يوقع عليها لكن «حسين قدرى» تطوع بتدوين كل البيانات ، وحين تسلم ورقة «الفلاح» قال معتذراً ، ليدارى حرج موقف الفلاح : «مؤخذة عشان يبقى الخط واحد» ، فابتسم الجميع فى صمت وتبادلوا والفلاح نظرة ذات معنى يلمع فيها بريق أخوى حلو وذو وقع فى النفس جميل ، لأن الفلاح كان قد صرح لهم من أول «زنقة» أنه «إنجلش نو» أى أنه لا يتحدث الإنجليزية . .

فلما تسلموا الأوراق التي يسمونها «باسبات» لم يلحظ الفلاح أن بها شيئاً من التخصيص إلا أنه كان جالساً في قمرته إذ دخل عليه واحد من الطاقم ليجلس معه قليلاً، ثم صار يتكلم عن أشياء يريد أن يشتريها مما شجع خيال «الفلاح» وجعله هو الآخر يستحضر قائمة بالأشياء التي يريد شراءها والتي ادخرها كلها لحين الوصول إلى ميناء (ورمان) هذا. كانت كلها أشياء تبدو في نظر «الفلاح» شديدة الأهمية والخطورة، بل هي ربما تحتاج إلى وساطة للتستر عليها والمساعدة في شرائها، وعلى رأس هذه الأشياء مكواة بالكهرباء وطاسة لا يلتصق بها الطعام، ومقرمة صغيرة وبدلتان لطفليه، وحذاء له.. إلخ..

ألقى الضابط الجالس معه نظرة على هذه القائمة وقال:

— هي دي طلباتك اللي ناوي ترجع بيها من أوربا؟

توجس الفلاح، كأنه يبرر مبالغته في المطلوبات:

— على الأقل ما يمكن منها.

صفق الضابط كفاً على كف وصار لا يستطيع إحكام توازنه..

— يا سعادة البيه، هذه زبالة مرمية على أرصفة القاهرة، فأحش!

«الفلاح» يحرج الدفع ليثأر لنفسه:

— يا أخي وأنت ماذا يغضبك؟. هي على الأرصفة ولكنها ليست في منزل!

صعق الضابط وظل برهة طويلة لا يجد للكلام سبيلاً. ولاحظ «الفلاح» أن حاجبيه الرفيعين المقوسين لم ينخفضا بعدئذ منذ ارتفعا لحظة الدهشة (ويؤكد الفلاح أنهما لم ينخفضا مطلقاً بعد ذلك طوال بقية الرحلة) ورأى «الفلاح» من الكياسة أن يعزم على الضابط بالشاي، فرحب الضابط في الحال، ونهض ليتول بيديه صنع الشاي، وقال وهو يقلب بالملعقة في هدوء:

— ربما أحتاج إليك.

هتف الفلاح:

— أنا في الخدمة!

قال الضابط:

— أنا بس طلباتي تخالف طلباتك شوية. أنا أصلي حاشترى حاجات ليتى، وحاجات موصيني عليها ناس. كمان عايز أشترى عربية لابنى الصغير..

رد الفلاح مسرعاً:

— إذن فالشراء مسألة سهلة هنا، تشترى ما تريد؟

قال الضابط مندهشاً من غباء الفلاح:

— وإيه المانع؟ أى سوق في أى بلد في الدنيا تقدر تشترى منها زى ما أنت عايز. مادام معاك فلوس..

قال «الفلاح»:

— لا أقصد هذا، قصدى: هل بوليس الميناء يسمح لك بأن تدخل إلى السفينة بكل ما تشترى؟. لقد سمعت أنه يدقق في هذه المسألة..

ضحك الضابط ثم قال:

— إيوه ماهي دى مهمتك إنت بق، واحنا داخلين بالمشتريات من الميناء حتبق أنت معايه، مش حيرخص يفتش..

انفجر الفلاح ضاحكاً، خيل إليه أنه ابتداء من هذه اللحظة فقط بدأ يدخل عالماً جديداً، ربما كان هو عالم الرحلات الذى ارتسم في ذهنه فيما هو يحلم قديماً بالارتحال، وخيل إليه أيضاً أنه يخضع الآن لمساومة ماكما يحدث في الأفلام المصرية..

استغرب الضابط قال بحرج:

— بتضحك ليه؟

قال الفلاح :

— إذا كنت أنا خايف أشترى الزبالة .. إزاى حاساعدك على أنك تشترى الأنماط !

ابتسامة الضابط تشى بألفاظ نابية يريد أن يقذف بها وجه الفلاح ، لكنه يبرش فى صلعته وجبهته المستطيلة ويتكرمش الجلد حول عينيه حتى يخفيها تماماً فلا تعرف إن كان مندمجاً فى الضحك أم فى التألم من خازوق نارى إلا أنه قال :

يا سعادة البيه ، أنت مسموح لك تشترى ويزمار بحالها لو أردت ، فأنت لن تخضع لأى تفتيش أو مضايقات فى المدينة وفى الميناء ، أما نحن فلا ..

قال الفلاح :

— لماذا لا ؟

قال الضابط :

أولاً لأننا بحرية ونخضع لمعاملة أكثر تدقيقاً من المسافرين العاديين . وغير مصرح لنا بأشياء ندخل بها إلا بجمارك .. وكل ما نشتريه إما نضطر صاغرين إلى جمركته وإما تمكنا من تهريبه على دفعات .

قال «الفلاح» ماكان قد ادخر السؤال عنه لحين :

— ولكن لماذا تتصور أننى أستطيع التصرف بحريتى الكاملة ؟ إننا على العكس من ذلك ربما خضعنا لمراقبة دقيقة باعتبارنا صحفيين .

شوح الضابط فى حزم :

— يا سعادة البيه ، دعك من هذا الكلام وقل : إنك لا تقبل مساعدتى .

قال الفلاح :

— لماذا تحكم بهذا ؟

قال الضابط :

— لأن «الباص» الخاص بك أنت والأستاذ حسين والسيدة إيناس مكتوب عليه «ق — آى — بى» .

نهض «الفلاح» جالساً ثم تربع كأنه لا يزال فى كتّاب القرية حين يستعد للإصغاء فى انتباه شديد . لم يكن يعرف معنى ما سمع . ولكنه كان يدرك أن المعنى بالتأكيد فى مصلحته وأنه لابد تكريس لشخصه المهيب . ثم إنه مال برأسه ناحية الضابط وبيده علبة السجائر مع علمه بأنها حركة بلدية ذات تراث بذئ فى تعاملات الشعب المصرى أثر فى سلوكه إذ ربط فى وجدانه بين الحاجة للشىء والمبادرة بتقديم المقابل .

لكنه نفث الدخان فى هدوء وقال :

— هل «ق — آى — بى» هذه تكتب عادة للمسافرين ؟

جذب الضابط نفساً من السيجارة كتمه فى أنفه ، ثم رمى الفلاح بالاستهبال وقال : إنه مع ذلك سيشرح له الأمر : فالحروف «ق . آى . بى» اختصار لجملة إنجليزية ، وقال الجملة كاملة ، ولكن الفلاح نسيها : معناها : «شخص شديد الأهمية» ..

ضحكة «الفلاح» جاءت إلى الداخل حيث حز على أنيابه فاتحاً حنكه فى غبطة .. وقال للضابط :

— بتتكلم جد ؟

خبط الضابط جبهته بكفه كالحشاشين :

— أى والله العظيم .. وحاوريها لك وإحنا نازلين ..

— ق — آى — بى .. شخص شديد الأهمية ..

رددها الفلاح عدة مرات .. وبلا مناسبة نهض واقفاً وراح ينظر من نافذة السفينة ، فأحس فى الحال بتلك الخاطرة التى تطرأ على النجوم اللوامع حين

يضطرون إلى النظر من النوافذ ، إذ يحسون بلذة فى تجاهل الشارع حتى لو كانت نظرتهم تعنى الشارع نفسه . على أن نظرة الفلاح صارت تتملق جمال المدينة ، وبدا له أن هذا الرصيف المعد للشحن والتفريغ والمزود تبعاً لذلك – بأوناش ثابتة فى الأرض كما لو أنه منى لثرة من فرط نظافته ، وكانت هناك عربات يتم تفريغها تحت السفينة مباشرة ، ومن بين العاملين فى تفريغها حوريات كثيرات حمر الوجوه كتماثيل الشعر مخروطات القدود بنهود كالفهود ، ومع ذلك يحملن الغلال فى أوعية ويفرغنها فى أماكن على الرصيف . هؤلاء إذن هن عمال التراحيل أو عمال الميناء !

لم ير الفلاح فى حياته امرأة تعمل فاعلة إلا كانت عجفاء وترفل فى الأسود تحمل القصعة أو القفة ، وتتلفت متزعجة لدى كل خيال كأنها تتوقع الصفع فى كل خطوة ، أما أن تكون خوجاية وحورية ونظيفة فهذا مالا يصدقه الفلاح أبداً . .

ثم إن الحروف الرائعة رنت فى أذنه من جديد ، « ق – آى – بى » شخص شديد الأهمية ! وراح يتمشى فى القمرة رائحاً غادياً يبتسم للضابط فى كل روحة وكل عودة شاعراً بالجميل نحوه كأنه هو الذى أهدى له هذه التأشيرة . ثم اتجه فجأة إلى المرآة وسرح ما حول رأسه من شعر خفيف ، وقرر فى الحال أن ينزل إلى المدينة .

٤

مشى بجوار « حسين قدرى » مجتهداً ألا تتسع المسافة بينهما مقدار شعرة وكان يشعر أنه يشبه فى كثير من تصرفاته أخاه الأصغر حين يجىء من البلد ، ويمشى بجواره فى المدينة متزعجاً من الزحام ، فإن مر بينهما أحد ازداد انزعاجه .

٥

إخترقا حديقة مملوءة بالأشجار العتيقة جداً العجوزة ، وفى الحديقة ترعة وقنوات صغيرة ، غير أن الترعة والقنوات والأشجار الطلية والكوبرى البدائى المار فوق الترعة – كل هذا كان يلخص خشونة الطبيعة بكل جمالها ورهبتها . وكأى ترعة فى أى قرية كانت أسراب البط والإوز تملؤها صخباً وابتهاجاً وتطويح أجنحة ، والإوز جعجاع بطبعه لا يصوت إلا جماعة تندفع مرة واحدة فى غوغائية مزعجة حقاً ، لكنها غاية فى خفة الدم . أسراب أخرى من البط والإوز تملأ الحديقة بالألوان الزاهية . عربات يد أنيقة تزحف بالقياصرة الصغار ليس فى أفواههم بزازات ولا فوق صدورهم حلوق من الريالة والوسخ ، بل قوالب من الشهد متسلطنة فى الفراش الوثير منصتة إلى شقشقة الحياة فى الحديقة . العين تنظر إلى الطفل فتيقن أنه أجمل طفل فى العالم . وفى الحال يكذبه الطفل القادم يجرى خلف كلبه الصغير . ويسحره طفل ثالث يضع يديه فى جيبى « الشورت » ويمشى فى ثقة كهتلر صغير تتيه الأرض ، تهمد العين وتتأدب عن أى مقارنة تكتفى بمتابعة الرجال والنساء والأطفال منتشرين على إمتداد الحديقة فى الضبط الأخضر الكثيف . آه من عبقرية اللون الأخضر فى عين « الفلاح » ! أليس يختص كل هذه الألوان فتبدو من بعيد كأنها مجرد ثمار ملونة . . طرحتها كثافة الخضرة ؟

للحديقة مداخل ومخارج أسلمهم آخرها إلى الشارع المقابل ، فكان الشارع يتسرب من الحديقة كسهم لامع . انفكت قبضة الفلاح عن ذراع حسين . ثم تركته وصار هو نفسه يتحرر من التبعية شيئاً فشيئاً ، بل إنه بعد بضع خطوات جرؤ على أن يتلكأ وحده أمام فترينة تعرض آلات تصوير دون أن يشعر بالخيط الخفى

الذى يشده إلى من معه . .

ذلك أن الشارع كان بالغ الحنو ، هذا الشارع الذى يطؤه « الفلاح » لأول مرة فى حياته كان شارعاً حميماً جداً . فكان « الفلاح » فى نفس الحى الذى فيه بيتهم فى مدينة إقليمية صغيرة . وهذا الشارع بالتأكيد هو الذى عاش الفلاح طوال عشرين عاماً يفتقده ، والآن يدرك لماذا هو مكتئب على الدوام فى القاهرة ، ثم لقد إتضح له الآن أن سر إكتئابه الدائم هو أن هذا الشارع غير موجود . الفلاح الآن نازل من بيتهم فى الضحا ليشترى الفول المدمس من مطعم على ناصية هذا الشارع . . لا بأس من أن يرتدى الشبشب والبنطلون ولا يكون فى كامل زينته ، فهو لن يقابل غرباء ، بل إنه بهذا المنظر البسيط سيبدو أكثر جمالاً فيما هو يلاقى أهل « الحتة » فيرحبون به ويحبونه . وعلى الرغم من أن « أهل الحتة » لا يعرفون لغته ولا يعرف لغتهم إلا أن « الفلاح » لم يحس فى يوم من الأيام بأنه آمن إلى هذا الحد . واضطر إلى توجيه سؤال لنفسه : ترى هل الوجدان البشرى لديه من التراث الإنسانى ما يهدم كل الحواجز المصطنعة بين الإنسان والإنسان وبينه وبين المكان ؟ . .

أطل وجه « الذى يرى » ولكن « الفلاح » هدده بالبصق فى وجهه إن حاول التفلسف الآن ، وكان « حامل القلم » قد تخلف فى الحديقة ورفض أن يغادرها ، إذ هو طول عمره مشرد فى شوارع القاهرة يبحث عن مكان يجلس فيه ليتعاطى الكتابة وقال « الفلاح » للذى يرى :

– دع الفلاح فى حاله ، وأنظر ماذا ترى فيما ترى ؟ وسواء رضيت عنى أو لم ترض فإنى هاهنا مولود .

فازور عنه « الذى يرى » بعد أن رماه بنظرة كلها أسف وتأنيب وإشفاق لذّ للفلاح أن يتغافل عنها . .

٦

كان الشارع يتوغل فى أحشاء المدينة ويكشف عن مفاتنها بشكل يدير الرأس حقاً ، فلابد أن هذه المدينة تسكنها أسرة واحدة . ولابد أن كل هؤلاء الجائلين فى شوارعها مجرد ضيوف تنتظرهم هذه الأسرة على الغداء اليوم ، وأنهم يقضيون الوقت فى زيارة المحال وشراء بعض الحاجات إلى أن يحين وقت الغداء !

رأى الفلاح عدداً كبيراً من طاقم السفينة يروحون ويعودون بأشياء ، فدهش الفلاح كيف تأتّى لهم النزول وشراء كل هذه الأشياء فى هذا الوقت القليل ؟ وكان يوشك أن يحقد عليهم ، ولكن معظمهم كان يراه فيتوقف ثم يروح يحكى له أنه أشترى كذا وكيت . وربما يشفع كلامه بفك الأربطة وإستخراج الأشياء منها ، فإن كانت ملابس فربما حاول أن يقيسها أمامه ليختبر رأيه . فكان « الفلاح » يقهقه فى سعادة لحلاوة المصريين وانسيابهم الفطرى . وكان يشعر أن ظلهم يشارك ظل المحال المتجاورة المتقابلة فى إضفاء نكهة العصارى على المدينة الصغيرة الجميلة ، نسمات العصارى تهب فى عز الضحى . فشمس « ويزمار » فى تلك اللحظة منهوكة منهدلة الشعر مستسلمة لرخات قليلة من المطر ، لأنها مشغولة – بجماع قواها – بصب القيظ فى بلاد الفلاح . .

الشارع يقوده إلى ميدان ، وللميدان ضفاف يحلو لك أن تدع نفسك للموج يرسو بك على أى ضفة فكل الضفاف ساحرة ومتصلة ، تقودك إلى حارات لامعة ، أو شوارع ، إن تنظر فيها حتى يخيل إليك أنها تقف على قامتها لإستقبالك ، ويبدو لك القادمون من آخره كلعب صغيرة فوق ربوة من الفضة . لاحظ أن محال الحلاقة منتشرة بشكل غريب ومحتى بها وكراسيها تحتل أجزاء من الأرصفة حول ترابيزات

يقف حولها العشرات أو يصطف أمامها طابور منظم من الزبائن . .

إستنكف الفلاح ، أكل الجيلاتي في هذا الصقيع وخاصة أنه لم يكن يرتدي ملابس ثقيلة . غير أنه لا بأس من التذوق . فقوجئ بأن الشعب الألماني يأكل الجيلاتي في سلطانيات الشوربة . وقسماً بالله رماه الفلاح أن هذه السلطانية مملوءة بجرف الحمام لا يستطيع رجل أن يأتي عليها كما يأتي أي طفل ألماني على مثلها مملوءة بالجيلاتي !

منظر طريف ومُغرٍ بالتقليد لاشك . وحلا للفلاح أن يغطس أنفه في سلطانية كهذه ، لكنه عند الحساب وجدها دخلت في المارك العاشر فسبَّ ديك الجيلاتي والطفاسة وعواقبها الوخيمة ! ولما قالوا له – إن الشعب الألماني يستعين بهذه الجيلاتي على مقاومة الجليد المنتشر في أرضه – قال ، ولو . فإن الجليد الذي قرصني طوال عمري حق هو التجوال في المدينة بلا نقود حتى لو كانت مدينة أبي واللذين خلفوني ! ، ثم إنه إستدار مقرراً العودة إلى السفينة محتجاً بأن وراءه في الليل حفلاً عليه أن يحضره من باب الذوق ، ذلك هو حفل التدشين الذي ستقيمه السفينة في مدخل الميناء .

حفل التدشين على "رصيف المفتوح

١

كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق منذ الصباح الباكر . غيَّر الصالون مواعيد تقديم الوجبات حتى يأخذ الفسحة الكافية لطبخ الحفل وإعداده . وكان الفلاح جالساً في قمرة « الشيف أوفسر » يستمع إلى بعض ذكريات له في (ويزمار) والربان يجعجع في قمرته بلا مبرر واضح .

دخل شاب طويل القامة ملآن يرتدي بدلة ونظارة طبية لا يمكن العين أن تخطئ مصريته لأول وهلة لدرجة أن الفلاح جاءه إحساس مفاجئ لدى رؤيته داخلاً بأن ثمة أفراداً من طاقم السفينة لم يكن قد رآهم بعد وإنهم ، كانوا لابد مختفين في مكان ما في قاع السفينة . .

– فلان الفلاني . مندوب شركة ميرتيرانس في ويزمار .

وكانت لهجة « الشيف أوفسر » مشوبة بإيحاء واضح كأنه يريد أن يضيف للفلاح

معنى : «الذى كلمتك عنه من قبل» فى الحال تذكر الفلاح ما سمعه عن هذه الشركة وعلاقتها بالتعطيل والشحن والتفريغ ومصلحة القطاع العام . وكان قد بدأ يشعر بالفرح ، لأن «حامل القلم» باقٍ فى الحديقة مايزال ، وأنه — الفلاح — سيحظى فى غربته بصديق جديد يتعرف من خلاله على أشياء كثيرة ، غير أنه فوجئ بحامل القلم منتصباً فى قامته ، فتجاهله وسلم على الضيف بحرارة ، ثم وعد بلقاء طيب على العشاء . .

ثم وصل مندوب الشركة المصرية المقيم فى بولندا ، والذى كان الاتصال به هدفاً كبيراً قبل دخول الميناء . وكان الفلاح قد لاقاه فى الصباح مع زميله حسين فى غرفة «الشيف إنجينير» واستمع إلى قصة حياته مع الثورة ورجالها وإلى آرائه فى الزعيم الراحل والزعيم الذى أبعدوه عن ساحة التاريخ فلم يفلحوا وكان زميله «حسين» يجرى معه حواراً صحفيا جادا صاخباً . فلم يجذب الفلاح من كلامه سوى ترديده لعبارة «والباشمهندس يعرف» كأنه يحس بضرورة أن يقدم لهم — من بينهم — دليلاً على صدق كلامه . .

وعلى قدر ما كان الفلاح مشتاقاً فى الصباح لرؤيته أحس الآن بأنه مشتاق للجلوس معه طويلاً . فهو فى الواقع شخصية مسلية جداً وجديرة بشىء كثير من النظر والاعتبار .

٢

قيل للفلاح : إنه لابد أن يرتدى بذلة كاملة ، فى الحفل عمدة المدينة ومدير الميناء و«الإيجنت» و«مندوب» مارتيرانس» ومندوب الشركة ومن يستجد من علية القوم فى المدينة . .

وكانت هى البذلة اليتيمة التى أحضرها الفلاح معه ولم يلبسها طوال الرحلة ، لأنها لم تكن تعنى أى شىء بالنسبة له فى هذه الرحلة ، ثم إن زميله «حسين» دبر له فصلاً طريفاً أن السفر دفع الفلاح ثمنه غاليا : فحين سأله عن نوعية الهدوم التى عليه أن يأخذها معه قال له «حسين» : إن عليه أن يأخذ الهدوم التى يريد أن يستغنى عنها ، لأنها تحتمل غبار الرحلة ووسخ السفينة من ناحية ، ولأن الفلاح سيشترى من ناحية أخرى — ملابس جديدة . فتقبل «الفلاح» هذه النصيحة بترحيب سعيد وأصر على تنفيذها حرفياً ، فانتقى مجموعة من الملابس تليق بأن يقذف بها المرء فوق تلال زبالتهم ، ومن بينها هذه البذلة !

فما إن بدأت الرحلة حتى فوجئ الفلاح بأن عنصر «الشياكة» من أبرز العناصر المميزة لطاقم السفينة كلها ، وأن الهدوم التى يعرضونها — عامدين — للوسخ تعتبر بالنسبة له نقلة طبقية زاعقة ، وفوجئ أيضاً بزميله «حسين» يغير فى اليوم ثلاثة أطقم على الأقل من القمصان والبنطلونات الأمر الذى جعل الفلاح يبدو أمام نفسه كجربوع قمىء فأخذ يطيل الوقوف أمام المرآة ليعيد النظر فى كل شىء وصار يغير القميص بنفس القميص ، ويتمنى حين يغسله لو أن الماء قام بتلوينه !

على أن هذا كله «كوم» وما حدث لصحة الفلاح «كوم» آخر . فما إن تجاوزت السفينة مياه المتوسط حتى بدأ الصقيع يتسلق جدران الفلاح ، ويدخل إلى أحشائه ! ومن حسن حظه أن جاء معه بفانلة من الصوف عمرها عشرون عاماً بالتمام يستخدمها فقط فى النوم فى ليالى الشتاء وهى فانلة رمادية اللون برقبة فجرب «الفلاح» أن يرتديها وأمره لله ، لكنه رأى فى المرآة ولداً بلطجيا يشبه النشالين أو بائعى الأمشاط فى المترو ، فخلعها فى الحال ، فاكتفى بعد ذلك بلفها حول رقبته وترك بقيتها تتدلى فوق ظهره !

وعلى الرغم من أن «السيرد أوفسر» نزل له — مؤقتاً — عن أحد بلوفراته ، وعلى

الرغم من أنه تحت إلحاح «السيدة أوفسر» وكرمه اضطر إلى قبوله — كان يكتفى — أيضاً — بلفه حول رقبته .. كأن مجرد لفه حول الرقبة سيطرد عن الفلاح إحساسه بأنه يرتدى ملابس غيره ..

ولكم سأل «الذى يرى» فى سخرية :

— لماذا لا ترتدى هذه البدلة ؟

فكان «حامل القلم» ينط مثل ولد «فلعوص» ويصيح :

— لا ، هذه بدلتى أنا ، ستظل نظيفة مكوية إلى أن تنزل إلى الميناء .. وبالتحديد الميناء الذى سنمكث فيه طويلاً . فأنا لاشك سأقابل ناساً مهمين ورسميين ولا يمكن أن أبهدلها فى السفينة !

والحق أنه لا «الفلاح» ولا «الذى يرى» استطاع إقناع «حامل القلم» بالنزول عن رأيه ، فظلت البدلة قابعة فى مكانها بالدولاب تتأرجح كلما انفتح الباب ، فكانت تبدو للفلاح أنها استنفدت على مر الزمن دفأها إلى أن طُلِبَ من الفلاح ارتداؤها من أجل الحفل ..

وحين شرع يرتديها فوجئ بأنها لا يمكن أن تكون هى البدلة التى جاء بها معه ، فهو قد جاء معه ببدلة قديمة ومن طراز عتيق فى التفصيل ، فإذا به الآن يرى بدلة ذات قيمة عالية . صوفها لايزال يفح برائحة الجدة ورائحة العراقة — صوف يوم اشتراه الفلاح من إنتاج المحلة الكبرى كان فى عرف المجتمع متوسط القيمة ، إذ المتر من بدلته لا يتجاوز الجنيهات الثلاثة . الأمر الذى جعلها دائماً فى نظر الفلاح شيئاً لستر العورة فقط ..

تلك أول بدلة فصلها فى حياته ، وهى فى الواقع ذات تاريخ ربما كان أهم من تاريخ الفلاح نفسه : ذلك أنها من أول يوم ارتداها طبقت شهرتها الآفاق وصار صديقه «بكر الشرقاوى» يرد على من يطلبونه فى التليفون معتذراً عن انشغاله ، إذ

العالم كله مشغول اليوم ببدلة الفلاح ! وصار أقارب الفلاح يأتون من القرى خصيصاً ليباركوها ! وصار رهط من أهله يقترح عليه أن يعمل لها «بياضة» لتحتفظ بجدتها طويلاً لأن الإنسان لا يفصل كل يوم بدلة بعشرين جنيهاً بمقاييس ذلك الزمن ! صحيح أن «الفلاح» دفعها بالتقسيط المريح ، ولكنه فى النهاية صار — بها فقط — من زمرة الأفندية فى المدينة . وقد عاشت هذه البدلة مع «الفلاح» سنين طويلة ، وخدمت فى مناسبات كثيرة أهمها ليلة زفافه ، وكان إثر انتهاء المناسبة يخلعها ويضعها بحرص فى شماعة يعلقها فى الدولاب ، ثم يلبس الشماعة جلباباً قديماً يكون عرضة للعثة ، والصراصير والتراب ! وبرغم أن «الفلاح» صار من زمرة الأفندية حق وحقيق وصار له أكثر من بدلة فإنه لم يتخل عن هذه العادة بالنسبة لهذه البدلة على وجه الخصوص . مما جعلها تفح برائحة الجدة كلما فتح عنها الدولاب وأزاح الجلباب .

ثم إنه سحب القميص الذى ادخره للعودة فارتداه ، وشرع يرتدى البدلة ، لكنه اكتشف أنه نسى «الكرافت» فى القاهرة ، فاستعار من «الشيف أوفسر» رباط عنق لا يتفق مع موديل البدلة ، ولكنه اتفق مع لونها ، ثم نظر فى المرآة ففوجئ بشخص غريب جدا عليه وإن كان يحمل بعض ملامحه . ثم إنه سرّح بقايا الشعر فى رأسه وهبط إلى الصالون ليحضر حفل التدشين مع علية القوم بالمدينة .

٣

كان بعض السفرجية والبحرية يقابلونه فى الممر أو على السلم فيهتفون رداً على تحيته . «أهلا سعادة البيه !» وكان يميز فى أصواتهم نبرة جديدة لعلها منسوب من الاحترام يخص البدلة وحدها زيد على منسوب التحية المعتاد . وكانت نظرتهم التى

يشيعونه بها تقول : لم نكن نعرف أنك أفندى ! فكان يزداد ارتباكاً ، كأنه يساق مرغماً لأخذ حقنة الكوليرا ولا مفر من أن يأخذها راضياً أو كارهاً ، ذلك أنه لم يكن يعرف كيف يتخاطب هو وضيوف الحفل ؟ وما الذى يقوله لهم ؟

وبات الصالون يطرح على الأرض ضوءه الكلاسيكى الشاحب لا لينير الطريق إليه . بل ليحيط نفسه بوشاح من الظل الرمادى .

اقترب «الفلاح» من هذا الظل فصافح أذنه لغط أرستقراطى . .

فلما دخل عليهم الحراب وجد عندهم موائد متصلة تعج بالأطباق والقوارير والأكواب ، فظل يقترب ببطء ويقول فى سره : يا أرض انشقى وابلعينى ! وبدون أن يدرى صاح :

– السلام عليكم . .

فالتوت الرقاب وهمهمت .

وكان الربان واقفاً على مقربة مرتدياً زيه الرسمى وكذلك «الشيف أوفسر» . الربكة لم تمنع الفلاح من ملاحظة كل منهما فى وقفته وزيه . فجعل يكتم ضحكات تهدر فى صدره حيث وقر فى ذهنه لحظتها أنهما هاربان لابد من فرقة حمامة العطار المسرحية

ولقد استقبله الربان صائحاً :

الأستاذ فلان الفلانى ، الصحفى والكاتب المعروف .

فإذا بالجميع وقوف ، وكانوا قبالة بعضهم لبعض . «فاحاس» الفلاح وصار يسلم على اليد الواحدة مرتين وربما ثلاثاً . وقد فرح فرحاً شديداً حين اكتشف أن المقاعد المتقابلة ملآنة كلها ، فانتهز الفرصة وجلس إلى ترابيزة خلفية عليها هى الأخرى نصيبها من الأطعمة !

جلس واضعاً ساقاً على ساق ، وصار يتعامل عبر الترابيزة الطويلة الممتدة أمامه

وصفان . صف من الوجوه ، وصف من الأقفية . ولما كانت صحة «الفلاح» أمرايهم الضيوف كلهم فإنهم رفعوا الأنخاب فى تحيتها ، وظلوا يرفعونها من حين إلى حين ويدلقونها فى جوفه حتى صار يكتشف أنه قد آن الأوان للتعامل مع صف الأقفية ، لكنه لم يكد يستريح لرحابتها حتى طلبوا للعشاء . .

فى الحال وقف «حامل القلم» فى قامة «الفلاح» وأبرز قائمة الطعام التى اشترتها السفينة فى «الكيل كنال» من أجل هذه الحفلة . وصار يستدعى الديوك الرومى والدجاج والتفاح وما يسمى بالكرفوازيه والدنبل والكنتت ، و . . و . . إلخ . كان يريد بالطبع أن يستوثق مما أتى مما لم يأت . . إلا أن «الفلاح» راوغه وشوشر عليه . .

وكانت الترابيزات بها الكثير من الكراسى الخالية ، لكنه فضل الجلوس على تلك التى يجلس إليها مندوب «مارتيرانس» وكان «حامل القلم» يأمل أن يحظى فى البداية بألفة المندوب وثقته تمهيداً لاستدراجه فى حوار حول «مارتيرانس» وحقيقة الأمر فيما يثار حولها من أقاويل ! على أن «الفلاح» ما إن استوى على المائدة إلا انقلب كالرطل مصرحاً للمندوب بكل ما يعرف عنه وعن شركته فكأنه يشيع الكلمات فى وجه المندوب ثم يطالبه بالرد على ذلك . .

اختفى «الذى يرى» من شدة الكسوف – وطوى «حامل القلم» أوراقه وقلمه ، ثم انزوى إلى بعيد كتلميذ رث الثياب فى مجتمع مختلط . أما «الفلاح» فقد شفعت له بساطته ووضوحه وإن كان وضوحاً ممجوجاً قليل الذوق . ويشهد «الفلاح» أن المندوب كان لبقاً هادئ الأعصاب كريماً لدرجة أنه بالغ فى الرقة وأجاب الفلاح إجابات سريعة ، لكنها قاطعة كأنه كان قد أعدها سلفاً وحفظها ، الأمر الذى شكك «الذى يرى» فى صدقها ، وجعله يتسلل إلى القعدة من جديد . .

•

٤

انتهى العشاء ، وانتقل المدعوون ثانية إلى ترابيزة الأنخاب . وقبل العشاء كان الربان قد وزع بعض الهدايا على كل من العمدة ومدير الميناء ، ثم انصرف ولم يظهر له أثر فى الحفل بعد ذلك .

ولقد لاحظ « الفلاح » أن كلاً من العمدة ومدير الميناء يبحثان عن الربان وأنهما يشعران بقلق ربما كان نابعاً من إحساسهما بأنهما فى حفل غير شرعى لعدم وجود رب البيت فيه .

وسأل : كيف يمكن أن تكون العلاقة بين الربان وبين سفينته بهذا الاستهتار ؟ ويزعم « الفلاح » أن ثمة علاقة من أى نوع لم تكن بين هذا الربان وهذه السفينة .

٥

انصرف كل من العمدة ومدير الميناء وخرج « الفلاح » ليوصلهما ، فوقف مذهولاً حين رأى العمدة يسترد جواز سفره من الشرطى المرابط أمام السفينة . وحين عاد إلى الصالون يفكر فى هذا الأمر وكيف يعامل البوليس عمدة المدينة كأى زائر غريب ؟ كانت مائدة الأنخاب تعلن رغبتها فى الابتداء الحقيق ، لكنها لم تكن تجد أنخاباً . وصار مندوب الشركة يمسح عرقه ويطلب الأنخاب مراراً وتكراراً وثمة من يشير له ويتزوى به على انفراد ، ليبلغه أنه لم يعد هناك أنخاب ، لأن الربان احتجز لنفسه كذا ، والمندوب نفسه أخذ حقه الناشف كذا ، والخوجة احتجز لنفسه كذا ،

و « التشيف أوفسر » يكتم غضبه ، لأن كل شىء يتم من وراء ظهره دون وضعه فى الحسبان !

كانت هذه المعلومات تتردد بصوت مسموع ، وقد كثر القيام والجلوس واستدعاء بعضهم لبعض وإجراء مناورات مكشوفة . ومع ذلك فوكيل « الإيجنت » ومن معه يصرون على مواصلة السهرة ، وكأنما يصعب عليهم أن يخرجوا من الحفل كما دخلوا إليه يضرب أفواه رءوسهم ترن من الفراغ ! على أنهم خرجوا فى النهاية ولدى خروجهم سرت همسات بأن ما حدث سيؤثر على تشهيلات العمل بالنسبة للسفينة . .

سأل الفلاح : كيف ذلك ؟

قال « التشيف أوفسر » :

– الهدايا أمر هام جداً فى الموانى والشركة تخصص باسم الربان مبلغاً لا بأس به لشراء بعض الهدايا القيمة لتقديمها لمثل هؤلاء لكى يسهلوا له الأمور أمام سفينته . . هذا خلاف المبلغ المخصص لإقامة الحفل . هاأنت ذا ترى أن الهدايا لم تكن قيمة . . وهذا وكيل الإيجنت لم يتلق حقه من الكرم ، وعلى هذا فسوف تكون (رمسيس) فى ذيل القائمة بالنسبة للتشهيل أو التسهيل . .

فقرر الفلاح بينه وبين نفسه أن يراقب سير الأمور ، ليتحقق من صدق هذا الكلام وإن كان واثقاً أن خروج وكيل « الإيجنت » غاضباً لن يكون فى مصلحة السفينة بحال . .

٦

ما إن انفض الحفل حتى انطلقوا جميعاً إلى شوارع (ويزمار) . « التشيف أوفسر »

ومندوب «مارتيرانس» و«الشيف إجنيو» ومهندس السفينة إيريس ومهندس الضمان . .

هبطوا من السفينة إلى الرصيف إلى المدينة مباشرة بعد تنفيذ الإجراءات المعتادة مع شرطى الكشك . ولاحظ «الفلاح» أنهم جميعاً فرحون بوجود السفينة على هذا الرصيف . وقدر «الفلاح» أن فرحهم مصدره وجود السفينة على رصيف منفتح على المدينة مباشرة ، ويعتبر خارجاً عن سيطرة بوابة الميناء ، فالواحد منهم يستطيع الخروج والدخول من وإلى السفينة فى أى وقت يشاء دون مرور على بوابة يرابط بها ثلاثة من رجال الأمن برتب مختلفة ، يبحثون فى الأوراق ويدققون ويسترِيبون ، لكن «الفلاح» فوجئ بأحد السفرجية يقترب منه ويهمس فى أذنه بنصيحة غالية ، لولا حب السفرجى للفلاح ما استوقفه وهمس له بها :

— إذا كنت ناوياً أن تشترى حاجة يا سعادة البيه فالحق اشترها فى الفرصة دى قبل المركب ماتنقل على الرصيف الرسمى جوه الميناء !

— ليه ؟

— على الرصيف التانى مش حتقدر تشترى حاجة على راحتك . حيبقى فيه بوابة وكل ما تحش بحاجة البوابة «حيفرزوها ويقدروا» ثمنها . ويخصموه من الفلوس اللى إنت كاتبها فى الباسبور ولو زاد ثمنها «حيصادروها ويقولوا» لك جبتها منين يا حلو ؟ وإذا تكررت «يصادروا الباسبور» . من أصله . . هذه هى العبارة كلها وبرغم أن هذه النصيحة لم تكن تلزم «الفلاح» فى قليل أو كثير ، لأن رصيده لا يكاد يكفى تحركه . فإنه أحب السفرجى حبًّا شديداً ، إذ أضاف إليه معلومة جديدة فسّرت له بعض ما كان يغمض عليه من الأمور . .

الفصل السابع

مغامرة الفلاح فى الميناء

١

لا أحد يعرف شيئاً عن ظروف اختفاء الفلاح فى شوارع مدينة «ويزمار» لكن اختفاءه لوحظ بسرعة شديدة . وكان «الشيف أو فسر» يدخل قمرته فلا يجد «إلا حامل القلم» تارة أو «الذى يرى» تارة أخرى ، فإن استبد به الأول حاصره بأوراق وأقلام وأسئلة تقلق الدماغ حقًّا . وكان يبدو عليه أنه سعيد أن يبث من الأسئلة ما يثير كل هذه الحيرة فى الإجابة فلم يكن ينقذ «الشيف أوفسر» من الإنحجار ضيقاً إلا حلول «الذى يرى» فى اللحظة المناسبة ، إذ يهون عليه سخف الأسئلة ويعتذر عن حماقتها وعما تثيره من تورط ، ثم يحتسى معه كوباً من الشاى ويشبعان حديثاً فى السياسة . .

وكان «الذى يرى» يلمح فى عينى «الشيف أوفسر» وبقية أفراد الطاقم سؤالاً ملحًّا عن اختفاء «الفلاح» المفاجئ ، لكنه كان مثلهم لا يدرى إلى أين اختفى ؟ إنما

هناك بعض الأقاويل الشائعة : فحسين يزعم أن الفلاح سقط من جيوبهم فى ذلك الملهى الذين زاروه بالأمس . « والشيف أوفسر » يصحح الواقعة بأن « الفلاح » تزوج امرأة ألمانية سنها خمسون عاماً متخيلاً أنها فى سن البكارة ، ولقد احتجزته فى خدرها إلى أن تبحر السفينة ، فتفرج عنه ! وأدلى الريان بدلوه فى الأمر ، فقال : إنه شاهد « الفلاح » ماشياً وراء رجل يسرح بالبيانولا ولابد أن صاحب البيانولا استذكاه فجعله صبياً له !

وواقع الأمر أن « الفلاح » كان قد دخل التجربة وانتهى الأمر ، ولأنها تجربة مثيرة بالنسبة له فإنه ظل فترة طويلة يختبئ حتى لا تظهر عليه آثارها . كان مساء أمس قد انسلخ من جلده ، وانزوى فى الفراش يقدح الفكر فى كيفية الحصول على فلوس يصرف منها مثل خلق الله بعد أن أحبطت كل آماله وانسدت السكك التى كان منتظراً أن تجىء منها الفلوس ، فلقد كان يأمل منذ البداية أن يعيش تجربة السفر لا سائحاً بل عاملاً يلتحق بأى عمل على ظهر السفينة حاجباً شخصيته ككاتب صحفى ويحقق بذلك فائدتين : فائدة أن يكون جزءاً من التفاصيل العملية تعطيه الأشياء نفسها عارية وواضحة وناضجة ، وفائدة الحصول على دخل يشترى به بعض الحاجات ، إلا أن هذا الأمل انتكس منذ البداية ، وأصبح على الفلاح أن يدبر شئونه بالمبلغ الذى لديه ، وهو مبلغ ضئيل للغاية صرفته الحلة كبقشيش لا أزيد ولا أقل ، ولو أن « الفلاح » كان مسافراً إلى قريته وطلب من مجلته سلفة يسافر بها ما أعطته أقل من هذا المبلغ الذى تحول بعد مجهودات شاقة إلى ثمانين دولاراً . صحيح أن « الفلاح » سيأكل ويبيت على نفقة السفينة طوال الرحلة ، ولكنه من أول وهلة بدأت تواجهه مشكلة السجائر كأول منفذ للمصاريف . .

أمر الريان بصرف ثمانية خراطيش من سجائر الكليوباترا السوبر للفلاح على أن تكفيه طوال الرحلة ، وقيل له : إن العلبة ثمنها ثمانية قروش مصرية بعد إضافة

النسبة المئوية التى تضيفها الشركة كأرباح لها ، وإنه سوف يدفع ثمنها للخوجة بالدولار ، فلما سأل (الخوجة) عن المبلغ الحقيق بالدولار قال له : إن الخرطوشة ثمنها دولاران ونصف الدولار : أى أن الفلاح يدفع ثمناً للسجائر وحدها عشرين دولاراً وعلى الرغم من أن هذا السعر يعتبر رمزيا وتافهاً فإنه يشكل ربع ميزانية « الفلاح » فكيف سيشترى ويشترى ويشترى . . . ؟

وفكر الفلاح أن يرد السجائر لأصحابها ويقضى الرحلة بلا تدخين إلا أنه حين عرض الأمر على الريان نصحه بأن يحتفظ بها ليبيعها فى الميناء بسعر السوق ويحقق بذلك ربحاً ينفعه ، فانتبه « الفلاح » إلى هذه النصيحة ، ولكنه لم يجد مفرّاً من الإفراط فى التدخين . .

وكان مهموماً بأمر الميزانية غاية الهم ويقشعر بدنه كلما تخيل نفسه عائداً من أوربا بدون هدية لزوجته وأولاده ، فكيف إذن سمح لنفسه بالغياب عنهم شهرين طويلين ؟ وكيف تحمل كل هذه المشقة ؟ أمن أجل المعرفة وحدها ؟ أمن أجل أن يجلس فى المقهى رافعاً يده قائلاً فى عرض الكلام « أنا لما كنت فى أوربا . . » ؟ حقاً إن مجرد السفر مكسب كبير بالنسبة للفلاح ، ولكن أى مكسب لن يكون له أى مذاق إلا إذا كانت الأحوال ميسرة ولو قليلاً بالقدر الذى يحفظ للإنسان آدميته !

لم يكن الفلاح يستطيع إخفاء هذه الهموم فى داخله ، وكان « الشيف أوفسر » بحكم الصداقة الوليدة النامية يطمئنه دائماً بقوله : حتتحل بإذن الله إنت معاك كم ؟ فلما سأم الفلاح من الإجابة على هذا السؤال أصر على معرفة كيف ستحل المشكلة بالتفصيل ؟ هل سيلحقه « الشيف » بعمل فى أحد الموانى ؟ هل يقوده إلى محال تبيع الهدايا برخص التراب ؟ هل يقرضه مبلغاً من المال ثم لا يفكر فى استرداده ؟

فاضطر « الشيف » إلى توضيح الموقف ، وأخبره كيف أن « الأولاد » ويعنى بهم البحرية والسفرجية يقومون « بعملية السجائر » فى الميناء ولا بأس من أن تكلفهم

عمل صفقة أو اثنين أو ثلاث بالنسبة لك . ويعجب الفلاح كيف أنه لم ينشغل بما سوف يعود عليه من وراء هذه العملية قدر ما انشغل بكيفية حدوث العملية نفسها ؟

وقرر أن يرى العملية رؤية العين وأن يمارسها بنفسه .

٢

وكان بها ، فما إن أمضت السفينة يومها الأول في (ويزمار) إلاوكان «الفلاح» يتوق شوقاً إلى الدخول في مغامرة يبدد بها ركود الرحلة في الأيام الماضية ، فالحق أنه عاش في السفينة أياماً قاحلة شديدة الكآبة شاركت عشرات الأسباب في تنغيص جوها وتعكير صفوها لدرجة أن الرغبة في العودة راودت الفلاح وهم في منتصف البحر وتمنى لو أن ريحاً عائدة قذفت بهم في الإسكندرية لفقر النماذج الإنسانية من ناحية ولهدوء البحر الشديد من ناحية ثانية ولانطفاء شخصية الربان وانعدام الروح الطيبة من نفسه انعداما كليا من ناحية ثالثة . .

كانت المغامرة صغيرة أي نعم . ولكنها بدت للفلاح آن ذاك شيئاً لا يستهان به : أن يختلى بالسفرجى ويسأله عن تفاصيل العملية ، أن يصحو في الصباح الباكر ويمشى بصحبة «الراديوأوفسر» بين شوارع الميناء ذاهباً إلى ما يسمى بالـ«فرى شوب» وهو محل يبيع بالعملة الصعبة لكل نزلاء الميناء بسعر يخلو من أية ضرائب أو إضافات من أى نوع ، لكى يشترى كمية من السجائر بسعر «الترانزيت» ويبيعها في الميناء بسعر السوق أو أقل قليلا . .

طاقم السفينة مدرب على لعبة «البزنسة» بكل أنواعها يعرفون كم تساوى علبة السجائر في البلد الفلانى ؟ وكم يكسب مشترى الميناء حينما يبيع بدوره لمشترى المدينة ؟ وقبل أن يتحرك الفلاح من عتبة الرصيف ، أخبره «الراديو أوفسر» أن

السعر معروف ومحدد ولن يحتاج إلى شيء من المساومة ، اللهم إلا إذا نزلنا عن طبيعتنا المصرية : فخرطوشة السجائر يبيعها لهم الـ«فرى شوب» بدولارين ونصف الدولار . ويشتريها منهم الرجال في الميناء بخمسة وعشرين ماركاً شرقيا ، لكى يبيعوها بدورهم خارج الميناء بخمسة وأربعين ماركاً .

وإذ وقف الفلاح على حقيقة الأسعار عرف أيضاً أن بعض السفرجية وبعض البحرية لا يستنكفون من محاولة تهريب السجائر خارج الميناء ليبيعها بالسعر الأحسن . على أن الواحد منهم لا يستطيع تهريب أكثر من علبتين أو ثلاث . . يشهر الواحدة منها للسائرين في الشارع صائحاً : «سجريتة» فيأخذها الواحد متلصصاً ، ثم يدسها بسرعة في جيبه وينفحه أربعين ماركاً . فإذا انتهى من توزيع العلبتين أو الثلاث عاد إلى السفينة وخرج خرجة ثانية يعود بعدها وقد كسب مائة وخمسين ماركاً . رضاً لمن يرضى !

لكن «الفلاح» ومن قبله الضباط لا يصح أن يظهروا بهذه الصورة ، فليكفهم العائد القليل في سبيل أن يظلوا محتفظين بشيء من الاحترام . فإذا فرض ووقعوا في قبضة البوليس . وهذا وارد في كل لحظة – يكون الأمر قد تم داخل الميناء وبلا فضيحة علنية !

٣

مشى الفلاح «بجوار» الراديو أوفسر» على رصيف الميناء ، ثم توقفا أمام الكشك وسلم كل منهما ورقته الصغيرة وأخذ بدلها . انتبه «الفلاح» إلى الخاتم الأحمر المميز والحروف التى ترمز إلى أنه شخص شديد الأهمية ، فاقشعر بدنه وضبط نفسه متلبساً بمراقبة ظله على الأرض ، ولاحظ أنه ظل قصير قمئ ، ولاحظ أيضاً أنه هو نفسه

أقل من هذه الحروف وأضعف . فكيف يسلك سلوك الشخص الشديد الأهمية ، وهو الآن يسلك سلوك الشخص الشديد التفاهة الذى بلا أهمية على الإطلاق ؟ وقال لنفسه وكان قد ترك « حامل القلم » و« الذى يرى » فى القمرة متجرداً منها تماماً : إنك بقميصك المتواضع وبنطلونك الكتان المصرى وشبشبك لا تساوى فى نظر البوليس الألمانى أكثر من عامل « ظهورات » فى الميناء ، ولو ضبطوك متلبساً ببيع السجائر فلن تلقى أدنى احترام ، وربما راجعوا أنفسهم ، وسحبوا منك هذه التأشيرة وأعطوك حجمك الحقيقى . .

وصاح « الراديو أوفسر » :

– ما تقرب يا أستاذ ، إنت ماشى على قشر بيض . ولا إيه ؟ .

كانت الشمس تحاول أن تشرق . والسحب الرمادية تغطيها ببطانية قديمة من بطاطين الجيش ، وكانت طرقات الميناء صامتة ومملوءة بالمخازن والأبواب المكتبية وثمة أبواب أخرى لورش لا تسمع فيها أى صوت . وأبواب مفتوحة على البحرى ملأى بأنواع لا حصر لها من البضائع فى صناديق وأجولة وكراتين . .

ويحلف « الفلاح » بالطلاق ثلاثا أن هذا الميناء هو بعينه تفتيش الوسية وأنه الآن ذاهب إلى مكتب الناظر ليأخذ الدفتر المستطيل والبريطة الخوص كيما يعرج بعد ذلك إلى الإسطبل ليركب الحمار ، ثم ينطلق فى الحقول يدوّن أسماء الأنفار فى كل الفرق : الأرض هى الأرض نفسها . والمبانى هى المبانى نفسها والندى هو الندى نفسه حتى هذا الصمت ليس صمت الهدوء والراحة بل هو صمت الانخراط فى الشقاء بما لا يتيح الفرصة لأى صوت .

٤

تلكأ « الراديوأوفسر » لدى رجلين يجلسان أمام ورشة . صارا إيرطنان معه بحوار ميز فيه « الفلاح » كلمات مثل « مارلبورو » . « وكنت » و« دنهل » و« إستورِه » و« ويسكى » وكان قد وقف إلى بعيد كأنه يتفرج فقط ولا دخل له فى الموضوع . أخذ يتلفت حواليه باحثاً عن رجال البوليس فلا يرى إلا رجلاً يخرج فجأة من إحدى البوابات ليدخل بوابة أخرى ، وسيدة تمشى بسرعة لتختفى فى أحد المنحنيات ، ثم عرف أن الرجلين يطلبان عدة خراطيش من سجائر « المارلبورو » و« الإستوره » . وسمع « الراديوأوفسر » يهز إصبعه فى نفى قاطع صائحاً :

– نو . . ويسكى ، . . نو ويسكى . . نوويسكى . .

ورأى الرجل صاحب الورشة يتهلل مبتسماً ويصير وجهه كالرغيف الخارج لتوه من الفرن ، ويقول مبتسماً كأنه فهم دوافع الرفض :

– أوه . مسلماً نو . . مسلما نو . . أوكى . . . أوكى ،

وهز رأسه موافقاً على رفض الويسكى . . .

وقال « الراديوأوفسر » للفلاح :

– سنشترى عشر كراتين . . لك خمس ولى خمس . .

قال « الفلاح » :

– وهو كذلك . .

قال « الراديوأوفسر » :

– إذن فهات اثنى عشر دولاراً ونصف الدولار . . .

فتح « الفلاح » محفظته وصار يعد . . هذه ورقة ، اثنتان ثلاث . كل ورقة بعشر

دولارات . هذا كل ما تبقى معه . . انزعج وسأل نفسه : أنا لم أصرف شيئاً على الإطلاق فأين ذهبت النقود ؟ أين اختفى خمسون دولاراً ؟ . .

ابتسم «الراديو أوفسر» وقال له :

— أنسيت ؟

أنسيت ؟ فتذكر «الفلاح» ما حدث صبيحة دخولهم الميناء . .

فقد حدث أن سألهم (الخوجة) وهو يدون ما معهم من النقود على جوازات سفرهم إن كانوا يريدون ماركات شرقية يصرفون منها ؟ فقالوا : نعم ، فقال لهم : إن كل واحد منهم يجب أن يدفع له خمسين دولاراً ويأخذ في مقابلها مائة وخمسين ماركاً شرقياً على أن يكون مبلغ الخمسين دولاراً بمثابة تأمين لديه يمكن استرداده في نهاية الأمر إذا ماردت إليه الماركات ؟ أما إذا تصرفوا فيها كلها فإن التأمين يضيع عليهم ، وإذا تصرفوا في جزء منها يحاسبون على الباقي بواقع ثلاثة ماركات للدولار الواحد . الأمر الذى أفقدهم صوابهم .

وكانوا قد قبلوا هذا الاتفاق ولو بشكل ظاهر ، لكنهم تلقوا توصية من أولاد الحلال في السفينة بأن يحتفظوا بالماركات كاملة لردها عند استئناف الرحيل واسترداد التأمين ، وألا يردوها إلا في آخر لحظة ، لأنها عندما ترد يقوم الخوجة بشطبها في «الباص» وإن هي شطبت قبل الرحيل فإن الواحد لا يستطيع شراء شيء بعد ذلك حتى لو كانت معه ماركات شرقية أخرى ، ذلك أن البوليس يتلقفك من البوابة عند خروجك ، ليراجع أوراقك ، ويعرف أنك نزلت إلى المدينة ورصيدك كذا . فإذا ما عدت تلقفك أيضاً وراجع ما اشتريته ليخصم قيمته على حسب تقديره — من رصيدك في «الباص» وويل لك حينئذ إذا كان رصيدك مشطوباً أو منتهيا ! إن البوليس في هذه الحالة يصادر ما تشتريه ولا يكتفي بذلك ، بل يصطحبك إلى السفينة ويفتش محتوياتك ويقف على حقيقة أمرك بالضبط .

على هذا رضى الفلاح ومن معه بالواقع . وبيتوا في أنفسهم مهمة البحث عن مصدر للماركات الشرقية للصرف منها وادخار السابقة لردها كاملة . ولم يكن هناك من وسيلة سوى شراء السجائر بالعملة الصعبة . وبيعها بالعملة المحلية ، وكسب فرق السعر . . . ولما كانوا صحفيين «معروفين» فإنهم لا ينبغي أن يقوموا بهذه العملية بأنفسهم ؟ إنما لابد من الاعتماد على من يقوم عنهم بهذا الأمر . غير أن «الفلاح» فكر في أن العلاقة بين الصحفيين وبين طاقم السفينة أصبحت «زفت وقطران» ولولا فلوحية «الفلاح» التى أسقطت عن صاحبها كل الصفات الاجتماعية الأخرى ما بقى في العلاقة شيء يعتمد عليه . وقد أصبح من المؤكد أن أحداً لن يقوم عنهم بشيء وخصوصاً هذه العملية الشائكة . بل إن «الفلاح» كان يراقبهم من بعيد لبعيد ، فيلاحظ أن كلا منهم يتسلل في الصباح الباكر دون علم أحد ، ويختفى في الميناء ثم يظهر في الصالون ساعة الغداء مرتدياً حذاء جديدا أو ممسكاً بلفة كبيرة ، الأمر الذى جعل «الفلاح» يتذكر نصيحة السفرجى الخاصة بالرصيف المفتوح ، فقرر خوض التجربة بنفسه وليكن ما يكون . .

٥

دفع «الفلاح» ثلاثة عشر دولاراً ، وحمل كيسين من النايلون بهما خمس كراتين من السجائر «الإستور» وأعطته البائعة بنصف الدولار الباقى حفنة من اللبان وباكو من البن الخام . وهمس «الراديوأوفسر» في أذنه بأن يترك اللبان لبنت البائعة . سأله «الفلاح» ولماذا لا أحتفظ به لبنتى أنا ؟ قال «الراديوأوفسر» : إن البنات هنا غلبانات ومجرد تزولك بمثل هذه الأشياء الصغيرة لهن يترك فيهن أثراً طيباً جداً على الرغم من تفاهة قيمته . فراح «الفلاح» يتفحص الفتاة البائعة ويقارن بين جمالها

الساطع وبلوزتها المتواضعة . وراح يبحث لرقبتها عن مثيل فى ذهنه فلم يجد ، وإذ رآه يطيل النظر فيها هزت له رأسها وابتسمت . ففعل مثلها . ثم قدم لها حقنة اللبان فلم تمد يدها لتأخذها ، وإنما نظرت إليه مستفهمة ، فنظر لزميله ليستنجد به فابتسم « الراديوأوفسر » وردد بعض كلمات ، فمدت الفتاة يدها وأخذت اللبان ، ووضعته فى أحد الأدراج وهى تتحدث فى ابتهاج وتحمر خدودها احمراراً شديداً وتصفو فى عينيها زرقة ماء البحر . وأحس « الفلاح » بأنه يتمنى لو يستطيع النزول لها عن كثير من الأشياء !

ثم إنه مضى بجوار « الراديوأوفسر » يحملان السجائر . . ويغمزه « الراديوأوفسر » فى يده محذراً إياه من التلفت حواليه كثيراً كاللص لا سمح الله ، فى الحال تخشب « الفلاح » فى مشيته وأحس بأن ثمة شيئاً لعله كرباج الناظر أو المفتش يلاحقه من خلف ظهره .

٦

ما إن رآهما صاحب الورشة مقبلين نحوه حتى قام وأشار إليهما أن يتبعاه ثم اختفى داخل الورشة فدخلا وراءه . وصار « الفلاح » يتفرج على الورشة باهتمام مع أنه لم يكن يجد أمامه ماكينات أو أى شىء يمكن التفرج عليه ، ولعله كان يريد إيهام مراقب مجهول بأنه دخل هذا المكان لسبب غير بيع السجائر لصاحبه . .

وعلى الرغم من ذلك استرعاه منظر صاحب الورشة وهو يتناول السجائر فى ارتباك ويعدل نظارته حتى ويده مشغولة . ثم يقوم وينظر من فتحة الشباك يخرج النقود من جيبه ويعدها ويسلمها « للراديوأوفسر » على حين يدفن السجائر فى أماكن غير مطروقة . .

المبلغ مائتان وخمسون ماركاً قال « الراديوأوفسر » : إنه مبلغ يعتبر ثروة كبيرة جداً بالنسبة لأى إنسان فى هذه المدينة بخاصة وألمانيا الشرقية بعامة . .

اندهش الفلاح وقال : كيف ؟

ابتسم صاحبه وقال : سترى . .

ثم أردف بعد برهة قصيرة :

لى صديقات هنا من سنوات طويلة ، والفتيات هنا كثيرات أكثر من الرجال فمعظم رجال ألمانيا ماتوا فى الحرب ، وجيل الحرب لم يخلف رجالاً أشداء . إنما خلف شباناً كالزعازيع . . ولذا فأجمل بنت تعطيك عينيها مقابل هدية صغيرة . لنا زملاء يجيئون بهدايا من القاهرة لصديقاتهم هنا ، وهى هدايا لا تزيد على فستان أو بلوزة أو جونلة . ومع ذلك تطير بها الفتاة فرحاً . .

لم يسترح « الفلاح » لهذا الكلام ، ولم يرد مناقشته لسببين : أولهما أنه ليس مستعداً لمناقشة « الراديوأوفسر » فى أى كلام يقوله ، لأنه – كما خبره – لا يقول إلا ما يوافق مزاجه وهواه الخاص ، والآخر أن هذا الكلام نفسه ليس مبنياً على حقائق دامغة . ثم إن « الفلاح » لم يكن بعد قد رأى ترخصاً من أى نوع من أى أحد فى المدينة اللهم إلا بعض المثالب الصغيرة فى بعض رجال الميناء مثل « الإيجنت » ووكيله وحبهم للشراب على حساب السفينة أو تقبلهم للهدايا بصدر رحب . وهذه كما سمع « الفلاح » وقرأ – ظاهرة عالمية . غير أن الفلاح قرر بينه وبين نفسه أن يكون دقيق الملاحظة ، ليتيقن صدق ما قاله « الراديوأوفسر » صحيح أنه رجل يقول أى كلام ، ولكن بما أنه يزور هذا الميناء كثيراً فلابد أن تكون ثمة حقائق غامضة وراء انطباعاته هذه . .

٧

كانا فى طريق العودة يسيران كل منهما حاملاً عدة لفائف . وإذا بهما يلاقيان «حسين» وجهاً لوجه . فما إن رأى «الفلاح» بعد اختفاء حتى رماه بنظرة مسنونة السهام كاد «الفلاح» يستجيب لرد فعلها لولا أنه تذكر الاتفاق بينهما وكيف خانه وقام بالعملية وحده ! فالتمس لزميل رحلته عذراً وهم بالمضى ، على أن زميله استوقفه وأسر إليه وإلى «الراديوأوفسر» أنهما يجب أن يسرعا فى السير ، لأنه قد جاء الأمر بأن تنتقل السفينة إلى الرصيف الداخلى وقد بدأت بالفعل مناورة الخروج من الرصيف الحالى . .

أطلق «الفلاح» ساقيه للريح لأن معنى ذلك أنه سيدخل بهذه الأشياء من بوابة الميناء ، وستخضع ويخضع معها للتفتيش وربما المحاسبة . وكان يحمل هم المحاسبة ، إذ لو حاسبوه لاتضح أنه يحمل ضعف رصيده من الماركات المدون فى «الباص» فكيف يرد إذا ما سئل عن مصدر هذه النقود ؟

٨

كانت المناورة قد بدأت بالفعل ، ورفعت السفينة سقالتها عن الرصيف وصارت على وشك التحرك . لكن من حسن حظه أن بعضهم رآه مقبلاً يلهث ، فصاح يرجوهم إنزال السقالة . فما وصل إلى الكشك إلا رأى السقالة تهبط إلى الأرض وتحاول الاستقرار على الرصيف . كان الشرطى فى انتظاره فترك «الفلاح» لفافاته على الأرض ، ليتمكن من إخراج الجواز واستبدال «الباص» وثمة ضابطان مقبلان من

خلف الكشك . إلا أن «الفلاح» حمل لفائفه ثم صعد محاولاً ألا ينظر وراءه ، مع أنه واثق تمام الثقة أن الضابطين رأياه بلفائفه ، وكان بإمكانهما إيقافه فى الحال لو أرادا .

بضع قفزات وصار فى قمرته . .

رمى اللفائف ثم عاد ودارها حول نفسه . . لعله اعتزم حشرها تحت السرير ، لكنه وجد السرير ملتصقا بالأرض وليس له «تحت» ، ففتح الدولاب ليحشرها ، فاستسخف هذا ، فرمى بها ثانية فوق الكنبة إلى أن ينظم لها مكاناً ثم إنه «نظر من «المربطة» المطلة على الرصيف ، ليفاجأ «بالراديوأوفسر» بين قبضة الضابطين والشرطى ، وكانوا يفتشونه ويحصون ما معه ، ويخصمون من رصيده قيمة ما اشتراه . .

التقت عينه وعينا «الراديوأوفسر» فرآه يكتم ابتسامته الخبيثة ، وأحس الفلاح أن «الراديوأوفسر» يريد أن يقول لهم :

الشمعى سيتو الفلاح ؟

لكنه لم يقلها ، لأنه كان يعلم تمام العلم : لماذا تركوا الفلاح . وكان وجهه قد «لعبكه» الغضب ، ربما لإحساسه بأنه ضيع جهوده سدى مع الفلاح !

الشمبانيا .. والقطاع الخاص .. والوهم الكبير

١

لم يكن الفلاح من بين المدعوين للغداء فى السفينة (أورايا) ، لكنه كان قد استمرأ الخروج مع «الراديو أوفسر» وفى هذا اليوم انضم إليهما «السكند أوفسر» الذى كان – باعتباره القائم بأعمال الطبيب فى السفينة ، والمشرف على صيدليتها وهذه عادة متبعة فى معظم السفن التجارية – ذاهباً إلى «الإيجنت» يطلب منه استدعاء طبيب ليوقع كشفاً على واحد فى السفينة . فذهبوا معاً ، وتعجب الفلاح من هذه الدقة فى العمل فى مثل هذه المكاتب . فما إن تلقى المكتب الخبر حتى أسرع الموظف باستدعاء الطبيب فى الحال . وفى ظرف ثلاث دقائق تقريباً عرفوا أن الطبيب قادم بعد كذا دقيقة ، كما عرف الفلاح أن هذا الطبيب لن يتقاضى أجراً . لا من السفينة ولا من «الإيجنت» ولا من المريض .

ثم إنهم راحوا يتجولون فى الميناء . وأمام مبنى كبير ذى بوابة توقفوا وأبدوا الرغبة فى

احتساء الشاى ، وفهم «الفلاح» أن هذه الرغبة نشأت بوقوفهم أمام هذا المبنى فلابد أن يكون منتدى للجلوس وفيما كانوا يصعدون السلم العريض ويقبلون على صالة كبيرة جداً مملوءة بالترابيزات الفورمايكا والكراسى الجلدية – عرف أن هذا هو نادى بحرية الميناء . ولا مانع لديه من استقبال أى بحرية من أى مكان فى العالم فى هذا الميناء .

٢

كانت الصالة خالية تماماً إلا من الكراسى والترابيزات ومع ذلك دخلوا واختاروا لأنفسهم ترابيزة فى المنتصف بجوار الشباك المطل على رحبة الميناء . وفى مواجهتها المنصة التى تعد عليها الطلبات وهى أشبه بحجرة فى ديكور مسرحى سقط حائطها الرابع ، وثمة أكواب وأباريق معدنية مرصوصة فى نظام ولا أحد يحرسها . وبجوار الترابيزة التى يجلسون عليها ترابيزة أخرى لاحظوا أن فوقها لفتين صغيرتين من الورق الشفاف الأبيض . قلبها «الراديو أوفسر» فإذا بها مجموعتان من «السندوتشات» التى هى عبارة عن شريحتين من الخبز الذى يسمونه بالـ(توست) ونسميه فى بلادنا – بعد تشقيفه – بالبقسماط – وبين الشريحتين طبقة من الزبد . وكان منظر اللفتين على الترابيزة فى إهمال يوحى للعين المصرية بأنها بقايا طعام المترددين من زوار النوادى العامة ، ولكن محتوياتها من الخبز الطرى والزبد ونظافة ورق اللف وانعدام الذباب كل ذلك يوحى – للعين المصرية أيضاً – بأن ثمة من سيعود ليأخذها .

٣

ولقد حدث بالفعل : ففى اللحظة التى اقتنع فيها «الراديو أوفسر» بلم هذه النعمة

وحفظها من الامتهان هكذا – حمعوا وقع خطوات لها طنين رتيب وصاخب ، لكن إيقاعه الأجوف يوحى بنطية القلب . فقد ظهر ثلاثة رجال يلبسون أحذية ذات رقبة وأوفرولات وخوذات بيضاء حمر الوجوه رقيقو الملامح . دخل الثانى منهم دورة المياة وتقدم الثالث نحو الترابيزة . ثم تناول إحدى اللفتين ونزع منها سندوتشاً قضم منه قضمة راح يلوكها على مهل وفى استمتاع واضح وبعد برهة قصيرة خرج الثانى من دورة المياه متجهاً نحو الأكواب ، ثم تناول كوباً معدنيا ذا يد على شكل الأذن .

انتبه « الفلاح » ومن معه إلى يد الرجل فإذا فى الأرض برميل صغير من الألمونيوم النظيف وبجواره إبريق . دخلت يد الرجل بالكوب فى البرميل ثم خرجت لتمتد الأخرى إلى الإبريق وتدلق فى الكوب فإذا به لبن . ثم إنه كرر هذه العملية مرتين وعاد بثلاثة أكواب إلى الترابيزة . وضع واحداً أمام زميله والثانى بجواره ، وأخذ يشرب من الثالث . والآخر أخذ له سندوتشاً وصار يأكل ، فلما جاء الثالث وانضم إليهما شرب الأول آخر جرعة فى كوبه ، وذهب إلى المنصة حيث غسله ووضعه فى مكانه ثم انصرف .

أما الاثنان فإنهما صارا ينظران إلى « الفلاح » ومن معه ويتحدثان ، فرد عليهما « الراديو أوفسر » وكأنه يرى أنه المكلف بالاتصال بحراً وبراً . وبعد جملة أو جملتين من دخوله بالكلام فهم « الفلاح » بجلاء ووضوح أن « الراديو أوفسر » يساوم الرجلين على صفقة سجائر . ولقد شغف « الفلاح » بالرجلين وانبسط منهما أيما انبساط ، وأدرك أن الطابع البدائى هو السمة الوحيدة التى تقود إلى فهم الإنسان على حقيقته ، فهو أصدق الوشائج التى قامت بتوحيد الإنسان فى كل بقاع الأرض . نعم فهؤلاء ناس ترتدى الخوذ وتتحدث مع « الأجانب » وتسلك سلوكاً حضارياً عظيماً ومع ذلك لا يخطئ البصر جوهرها الحقيقى ، فهذا الرجل الذى يتوجس من الحديث مع الأجانب وفى نفس الوقت يضطر إليه من أجل مصلحة قد تجىء ، والذى تتهدل

ملامحه خجلاً إذا ما توقع قدوم البوليس ، والذى يتذكر فجأة أنه تورط فى حوار قد يجر عليه المتاعب فيعدل من موقفه محاولاً الإيحاء بأنه لم يكن جاد فى حديثه ، ثم يدرك فجأة أنه حتى فى هذه المحاولة لم يكن جادا فيبتسم ابتسامة تعبر عن خيبته وعدم كياسته ثم ينسحب من الحوار فى بساطة كأن شيئاً لم يكن – يجزم « الفلاح » أن هذا الرجل هو بعينه خفير الدريسة فى بلدهم أو رئيس الوردية فى مصانعهم وهو بعينه الأسطى محمود الكوجى والأسطى على النجار وعم أمين الجابى وعمران الفواعلى وعم حسين ماسح الأحذية فى مقاهى القاهرة ، كل ما هنالك أن اللسان يتعوج فى الأفواه بحركات إيقاعية مختلفة تصدر أصداء مختلفة لنفس الأصوات ونفس الوجوه ونفس القلوب بنفس الدوافع !

٤

مرة أخرى انبسط « الفلاح » أيما انبساط ، فقد رأى الأكواب الثلاثة تعود إلى مكانها نظيفة لامعة . وبقايا السندوتشات ملفوفة كما كانت على الترابيزة والهدوء الشامل العظيم يخيم على المكان من جديد .

ويبدو أن الهدوء العميق يثير دائماً فى المصريين غريزة الحديث ذى الشجون ، ويبدو أنهم حين يخلدون إلى الهدوء فجأة يصعد من جوفهم شىء غامض يبطن حديثهم بالحزن العميق ، مما يؤكد أنهم لابد يؤجلون التفكير فى أشياء كثيرة هم أنفسهم نسوها ، فتحولت إلى مشاعر مكثفة وأصوات غامضة نابعة بالألم حتى لو كانوا يتحدثون فى شىء بهيج ! ولقد راحوا يحكون ويحكون عن زوجاتهم وأطفالهم وأعمامهم وأخوالهم ورفاق تعليمهم . فإذا ما نظرتهم من بعيد خيل إليك أنهم يثرثرون بحكايات لا معنى لها ولا مناسبة : والواقع أن كل ما يرد على الألسنة فى هذا الهدوء

العميق هو من النفس عميق أيضاً وحميم . ولابد لمثل هذه الأحاديث أن تنتهى على الطريقة المصرية فحيث تتشابه وتتلاقى أصداء المواقف تحلو النهاية التى تكون بمثابة استمرار للحظة التوحد : بأن يقترح أحدهم أو يفعل شيئاً يبهجهم .

وهكذا اقترح « الراديو أوفسر » اصطحابهما إلى الغداء المدعو عليه فى السفينة (أورابيا) .

٥

وبينما كانوا يسيرون على الرصيف متجهين إلى السفينة (أورابيا) ألتقى (الفلاح) فجأة وتوءماه . « الذى يرى » و « حامل القلم » ؛ فدهش من وجودهما فى هذه اللحظة ، وكان يريد أن يكون وحده مجرد فلاح لا أزيد ولا أقل . حاول أن يصرفها باللين تارة وبالعنف أخرى ، ولكن دون جدوى : فحامل القلم يريد أن يدرس أحوال القطاع الخاص وطريقة العمل فيه بالقياس إلى القطاع العام ، إذ لابد له من عقد مقارنة بين القطاعين فى موضوع يكتبه فجلته ، ويرى أن هذا الغداء فرصة لا تعوض . أما « الذى يرى » فإنه لا يصح أن يترك « حامل القلم » وحده فى ظرف كهذا ، ولابد من حضوره بالضرورة وليس بالتبعية !

وهكذا دخل « الفلاح » السفينة (أورابيا) وهو محاط بالهالة التقليدية التى يكرهها ، لأنها تكلفه من المظاهر والمجاملات ما لا يحب ولا يطيق ، ثم إنها تجعله يتحرك بحساب فى حين أنه ليس فى طبيعته سوى مزية الانطلاق على السجية وإعلان رأيه فى كل شىء دون تحفظات . .

صعدوا سلماً طويلاً فى مواجهة الباب ، حتى وصلوا إلى الطابق الثالث حيث كابينة الضابط اللاسلكى ، وهى — فى هذا النظام الألمانى الغربى مصممة بحيث

تكون جزءاً من الغطة ، ويكون الضابط مستعداً للتلقى فى أى ساعة من الليل أو النهار عكس التصميم الروسى فى السفينة « رمسيس » الذى يفصل بين محطة اللاسلكى وكابينة الضابط .

كان « السكند أوفسر » قد تخلف فى الطابق الأرضى ليسلم على « التشيف أوفسر » الذى كان — فيما يقول — زميلاً له يوماً بيوم ، ولكن القطاع الخاص أعطاه فرصة الغنى والثراء فى حين ظل هو فى القطاع العام يعانى من الفقر والجمود . ولو كان « الفلاح » وحده فى هذه اللحظة لوافقه وأشفق عليه مؤيداً هذا الكلام ، لكن « الذى يرى » عقد لسان « الفلاح » عن أى تعليق ، ونظر إلى « السكند أوفسر » بغيظ دفين فالذى يرى لا يحب مَنْ يهاجم القطاع العام حتى لو كان محقاً فى الهجوم !

٦

نهض « الشاذلى » واقفاً لاستقبالهما فى ترحيب شديد ، وكانت هذه أول مرة يراه فيها « الفلاح » منذ بدأ صيته يتردد فى (رمسيس) : شاب صغير السن لا تزال آثار التلمذة عالقة بملامحه الشبابية الخشنة خشونة الفلاحين الأقحاح . فسر « الفلاح » سروراً بالغاً . وأيقن أن كلا من « حامل القلم » و « الذى يرى » لن يكون لهما مجال لعلاقة طيبة بين اثنين من الفلاحين الداخل بينهما خارج كما يقولون . أومع لهما « الشاذلى » مكاناً فوق الكنبة ، وجلس هو قبالتهما على كرسى أمامه ترابيزة ترتفع فوقها كومة من المارشات الشرقية فى إهمال ، وكانت الكابينة مثل حجرة طالب ريفى فى المدينة : فعلى السرير وفى الحائط تتناثر مجموعة من القمصان الفاخرة والبنطلونات والشرابات كلها مرمية فى إهمال جعل « الفلاح » يشمئز من مظهره الشديد التواضع .

قال « الشاذلى » :

– ويسكى ولا شمبانيا ؟ . .

اهتز الفلاح «فى جلسته ، وأعتدل ناظراً إليه باحثاً عن نبرة المزاح فى وجهه ، فلم يجد إلا ثقة تامة . ونط «حامل القلم» فى فترجة ثم تربع على الترابيزة قائلاً : إن من شير على شاى القطاع العام وقهوته آن له أن ينتشى بخمر القطاع الخاص ! والساقى وراءه «الذى يرى» فغمز بعينيه قائلاً : إن «الفلاح» يقف الآن على حافة منزلق خطير ، فهو إن شرب خمر القطاع الخاص فسوف تمنعه النشوة من الصبر على شاى القطاع العام !

وكان «الفلاح» قد أجل الرد على مضيفه برهة قصيرة ريثما يستوعب الموقف ، وكانت غمزة «الذى يرى» قد سحبته إلى القاع قليلاً ، فقال فى تشنج عصبى :

– ويسكى إيه ! وبتاع إيه يا راجل ! . إذا أمكن حاجة ساقعة معلش أو قهوة . .

ومن طبائع الفلاح السيئة أنه إذا ما طلعت فى دماغه يلأ السلامة ، فكثيراً ما يقرر أمراً وبعد برهة قصيرة يكتشف خطله ومع ذلك يكابر ويكابر فى غباء يتزايد فوق غباء وتصبح قطعة الحديد ألين من عنه فى سبيل الايتهم بالتراجع ! ، وكم يحاول مراراً نسيان هذا المرض ، المزرى ، ولكنه ما من مرة ركب فيها رأسه ويا للعجب إلا اكتشف على المدى البعيد أنه كان محقا تماماً فى ركوبه . !

ولذلك فحينما شرع يعتذر عن ترك الويسكى والشمبانيا بدأ خيط التصميم يشدّ إلى الوراء مما جعله ينوى الاعتذار عن عدم الغداء أيضاً ، ولكن مع من ؟ إنه إن أراد أن يسوق مكره فليس مع فلاح مثله أبيض السريرة ناشف الدماغ . وها هو ذا – وهو الذى لم يره قبل الآن – يكاد يسأله عن الأهل والبلد الذى اتضح أنه من جواره . هكذا الفلاحون دائماً وخاصة فى بلاد الغربة – تتسع بلدهم اتساعاً شاملاً . فإذا كان فى المدينة فإن بلده هى الحى الشرق ، وإن كان مغترباً فى المحافظة فإن

بلده هى المركز التابعة له قريته . وإن كان فى القاهرة فإن بلده هى المحافظة . فإن التقى الفلاح وفلاح مثله ظل الاثنان ينحران كالسوس فى ذكريات ولهجات كل منهما للآخر حتى يتعرف كل منهما عن الآخر ، ليس فقط من أى عزبة أو قرية هو على التحديد ؟ بل من أى أسرة ؟ وابن من ؟ وأخواله من ؟ وأعمامه من . . . ؟ إلخ . .

وهنا همس «الذى يرى» فى خبث :

– على أى حال فالشاذلى لا يطلب منك خدمة . وما دمت غير مطالب برد المجاملة . بشكل ما فلا بأس من قبول الدعوة . .

لكن «حامل القلم» صاح :

– نعم ولكن مظهرى ككاتب محترم فى صحيفة محترمة لا ينبغى أن يشوه . أتريدان إظهارى بمظهر الطفيل ؟ لا . سأظل محترماً ومتعففاً . . وكانت زجاجة الشمبانيا قد جاءت ، وانفتحت ، وامتلأت الكئوس الصغيرة ، وامتدت حولها المزات ، وخلع الفلاح حذاءه وتربع على الكنبة ، وصار يتحدث مع «الشاذلى» عن القطن الذى أكلته الدودة هذا العام ، ويحدثه الشاذلى عن الذئب الذى اصطاده أبوه ذات يوم ، وكانت هذه هى النشوة الحقيقية ، ولكن الشمبانيا أفسدتها .

أمسك بالكأس الصغيرة بين يديه وافحص وحاول أن يستعذب الموقف بأن يعيش برهة قصيرة يستدعى فيها صوراً مما قرأها عن ناس تشرب الشمبانيا ، ويضيف إليها أنها فى سفينته على رصيف الميناء حيث لا عمل ينتظرك ولا شيء يُطلب منك على الإطلاق .

لكن «الفلاح» لما رفع الكأس إلى شفتيه وجد مذاقاً لا يختلف كثيراً ومذاق الكازوزة ، فجرعها كلها دفعة واحدة ، ثم أشعل سيجارة نفث فى دخانها كل إحساسه بخيبة الأمل . أهذه إذن هى الشمبانيا التى يقولون عنها ؟ أهذه هى مصدر

للنشوة ؟ .. إنه لوهم كبير !

ولقد جرع الكأس الثالثة والرابعة والعاشرة دون أن يحدث له أدنى تأثير ، الأمر الذي جعله يتغافل عن «حامل القلم» ويتركه يرتع كما شاء . وعن طريقه عرف «الفلاح» أن هذه السفينة هي إحدى سفن شركة «أورايا» للتوكيلات الملاحية اشتراها صاحبها سنة ١٩٧١ بعد أن أمضت في البحر ثلاثة عشر عاماً وسماها «أورايا» وهو اسم خليط من كلمتي أوربا ، والعرب ، حمولتها ٣٩٥٤ طناً . في «بحر» خمس سنوات ولدت لصاحبها (أورايا ستار) و(أورايا سكاي) و(أورايا بروجرس) و(أورايا سبرنج) (أورايا باس) و(أورايا بامو) و(سبترا) و(ستراستار) (أورايا ويف) و(أورايا وند) بالإضافة إلى أربع مراكب جديدة لم تأخذ أسماءها بعد ، وعرف أن الربان بولندي اسمه (فرانس كوفياك) ومرتبه ألف دولار في الشهر ، وأن (الشيف أوفيسر) مصري اسمه (فريد الهواري) ومرتبه سبعمائة دولار في الشهر ، وأن (السكند أوفيسر) بولندي اسمه (كودلوباتسكي) ومرتبه خمسمائة وخمسون دولاراً في الشهر ، وأن (الثيرد أوفيسر) مصري اسمه (حسام الدين وهبة) ومرتبه ثلثمائة وخمسة وسبعون دولاراً ، وأما كبير المهندسين فبولندي يدعى (بيرس ريسيزار) ومرتبه ألف دولار ، وأما «الشاذلي» نفسه فمرتبه خمسمائة دولار ..

وليست المرتبات العالية هي الميزة الوحيدة ، فهناك خمسون دولاراً بمثابة «أوفرتايم» لكل منهم ، ولكل منهم شهران للإجازة كل عام . وشهر مكافأة سنوية ، وللواحد منهم الحق في الحصول على مرتب شهري الإجازة إذا لم يقم بها وحين يقوم «الأونر» — المالك — بزيارة السفينة فإنه يعطي بقشيشاً قدره نصف شهر .

وكان «راديو أوفيسر» السفينة «رمسيس» يستمع إلى هذه الأرقام ويتحسر ، وكان «الفلاح» هو الآخر يتحسر ويتمنى لو أنه كان من رجال البحر ليحصل على

كل هذه المنح الثمينة . وقال «حامل القلم» : لـ «راديو أوفيسر» السفينة (رمسيس) .

— ما دمت تتحسر هكذا فلماذا لا تعمل في القطاع الخاص ؟ . قال «راديو أوفيسر» السفينة «رمسيس» :

— اشتغلت بالفعل ، لم أتركه إلا منذ وقت قريب .

— ولماذا تركته إذن ؟ .

فتنهد «راديو أوفيسر» السفينة (رمسيس) وقال : إن العمل في القطاع الخاص قاس غاية القسوة ، ولا يعيبه شيء إلا هذه القسوة ، ليس فقط ، لأنه يأخذ منك أقصى ما لديك من عمل وطاقة وليس لأنه يعاملك باعتبارك آلة حين تنتهي من أداء دورها في إنتاجه يرميها ليشتري غيرها دون أي التزامات حيالها ، إنما القسوة الحقيقية في أنك حين تخرج من ميناء الإسكندرية عليك أن تنتزع من نفسك كل العواطف وكل الارتباطات العائلية ، لأنك لا تعرف متى سترجع بالضبط ؟ فالسفينة لا تخرج بخط سير محدد في مهمة تنهيها لتعود إلى الميناء الأم ، بل هي تنطلق لتفرغ شحنتها في أحد المواني ، ثم يجيئها الأمر بالذهاب إلى الميناء الفلاني لتشحن منه ، وفي طريقها إلى الميناء الفلاني قد يصادفها شحن آخر ، وإذا كانت المواني التي تذهب إليها سفينة القطاع الخاص كثيرة فإن شقاءها كثير أيضاً ؟ . إذ إن كل ميناء له ظروفه الخاصة التي لابد أن تحكم عليك برمي الخطاف أياماً وأسابيع طويلة ، وعلى ذلك فالواحد منهم قد يمكث بعيداً عن بيته نصف عام أو عاماً اللهم إلا إذا طلب العودة بالطائرة من ميناء قريب ، وفي هذه الحالة يتكفل بنفقات السفر إن وافق «الأونر» ..

القطاع الخاص البحري إذن لا يؤمن بالتأمين والمعاشات وما إلى ذلك من الحقوق العالية بل يكتفي بشراء صحة الإنسان فقط : بمزاجه يستبقيه ، وبمزاجه ينحيه فكيف إذن تقبلون بالتعامل معه ؟

قال «راديو أوفيسر» السفينة (رمسيس) :

– الفروق فى الأجور خيالية . .

وقال « الشاذلى » . .

– أحيى اليوم وأمشى غدا . . !

وصار « حامل القلم » يدون هذه المعلومات فى السر ، وكان الذى يرى يكاد يطق من الدهشة . وربما طق فعلاً حين فاجأه الشاذلى بأن كل الذين يعملون الآن فى (أورابيا) ليسوا من حملة الشهادات باستثناء كبير المهندسين ، ومع ذلك فربح هذه السفينة وحدها يوازى ربح القطاع العام البحرى كله بجميع أساطيله وبكل أجهزته وجيوشه الجرارة !

حينئذ شعر « الفلاح » بالعثيان ، واتهم الشمبانيا بأنها السبب ، ولم يستطع بعد ذلك مقاومة شعور بالاكتئاب راح يزحف ويتكاثف . وكان البحر يمتد بزرقته القاتمة امتداداً لا نهائيا ، ويبدو أن الوصول إلى بقعة محددة أمر مستحيل مستحيل . . . !

الفلاح يجلس على يسار المائدة

١

الموائد فى السفينة (أورابيا) تخالف الموائد فى السفينة (رمسيس) ، هذا أول شىء لاحظه الفلاح . المائدة مستطيلة وفوقها مشمع ثمين تتناثر فوقه – بشكل ثابت – سلطانيات الزبد وأنواع السلاطة والطحينة والمخ بأنواعه والشطة المذابة ، ثم يدأت الأطباق تفد من خارج الصالون فى تنظيم دبلوماسى دقيق ، وهذه المائدة المستطيلة تسع أربعة آكلين . علم « الفلاح » أنهم الربان وكبير المهندسين وكبير الضباط والمهندس الثانى .

وكان ربان السفينة (أورابيا) قد سافر إلى بلدته هولندا ، ليرى زوجته وأولاده على أن يعود بعد أيام قليلة ، وكذلك كبير المهندسين ، ولذا فقد جلس مع « الفلاح » على المائدة كل من كبير الضباط والضابط الثانى والشاذلى وكل من راديوأوفسر والسكندأوفسر السفينة (رمسيس) . وفى البداية كان « الفلاح » مشغولاً

بأمر الحمام المشوى ، ولكنه مع ذلك انتبه فجأة فى لحظة ، فاكتشف أنه قد تناول الغداء ورفعت الأطباق ، وخلت المائدة لأكواب الشاى ، ولم يتذكر أن ثمة حماماً فى الأمر ، لا مشوى ولا مقلى ، ذلك أنه منذ جلوسه بدأت مناقشة اعتبرها (الفلاح) حادة وخشى مغبتها ، فانزوى داخل نفسه وانطلق (الذى يرى) يصول ويجول فى المناقشة كأنه يحاضر فى الجامعة وكان « حامل القلم » يتمنى أن يتريث المتحدث برهة قصيرة لكى يسجل هو بعض ما يسمع من أعاجيب ، ولكن الموقف كان أسرع فى الإيقاع مليئاً بالمفاجآت . .

والواقع أن « الفلاح » اغتبط بهذه الفرصة ، لأنه أحس من الوهلة الأولى أن الجالسين يضمرون له اتهاماً باليسارية ! . والفلاح لا يحب أن ينفى هذه التهمة عن نفسه ، ولكن يذعر من مفهومها السائد الذى نجحت الصحف المتخبطة فى زرع مفهومه فى نفوس الملايين من قراء الصحف ، وهو أنك يسارى أى كافر ملحد مارق ضد الدولة والنظام والدين والشرف والأخلاق . وفوق ذلك عميل تقبض من يد أجنبية !

صال « الذى يرى » وجال محاولاً شرح مصطلح اليمين واليسار بقدر ما لديه من معلومات فى هذا الصدد ، وألقى خطبة عصماء ، وأدلى بفقرات من كتب شهيرة ، وردد عشرات الأيات والأحاديث النبوية ، وشرح الشرح ، وأردف بشرح شرح الشرح ، ويستشهد بالبلدى إلخ . فلم ينجح فى تعتعة المفهوم الخاطئ لليسار واليمين شعرة واحدة ! و « التشيف أوفسر » وهو على عكس زميله فى السفينة (رمسيس) فى كونه أكثر شباباً وأكثر جولاناً فى الموانى – يتحدث عن زيارته للصين وروسيا وألمانيا الشرقية ، ويندد بكل ما هو شرقى . ويضرب الأمثلة على تخلف هذه الشعوب عما اشتراه من الدول الغربية وما كسبه منها ، حتى أيقن « الفلاح » أن هؤلاء الشبان « الكسبة » على وشك أن يعبدوا شيئاً واحداً هو ما افتقدوه خلال السنوات العجاف

الماضية فى مصر وهو التملك والاقتناء ، وامتصاص الحياة بكل ذرة فى الكيان !

لقد بدا للفلاح أن هؤلاء الذين كانوا تلامذة صغاراً فى عز سنوات الثورة فى مصر قد ادخروا كل تطلعاتهم السابقة ليعوضوها دفعة واحدة فى هذه الأيام ، ولكن مما يؤسف له أن تطلعاتهم لم تشبعها إلا هذه المتملكات التى يدفعون فيها أثماناً باهظة : فالواحد منهم يشترى من الجهاز الواحد أكثر من موديل وأكثر من نوع ، لا ليبيعه ويكسب فيه فقد شبع من الكسب ، وإنما ليقتنيه ، ليقال فقط : إن عنده كذا وكذا : فمثلاً ما الذى يستفيده شخص أو أسرة من ثلاثة أجهزة تسجيل براديو ؟ الذريعة الوحيدة التى يرددها من ملك الأجهزة هى أن الجهاز يمتاز بكذا وكيت . إنها شخصيات تحس أنت لأول وهلة أنها تجرى وراء الإعلانات خطوة خطوة وبإخلاص شديد . والأدهى من ذلك وأمر أنها – وإن كانت فى الظاهر تتحدث عن الذين لا يعملون لمصلحة مصر – ترفض فى واقع الأمر كل ما هو مصرى قلباً وقالباً : الصحف والإذاعات والمنتجات والنواب ومن على شاكلتهم من رجالات المجتمع . ويلوى الواحد منهم لسانه قائلاً عن الشىء : إنه مصرى محلى : أى إنه شىء حقير جدا ، ولا يشترى محلى ! وأسطوانات « أحمد عدوية » التى سئم الفلاح الاستماع إليها فى السفينة (رمسيس) فوجئ بالكثير منها على السفينة (أوراتيا) . .

ولم يكن مطلوباً من (الفلاح) أن يشهد فقط بأن الغرب أحلى من الشرق وأفضل ، وأن الدول الغربية هى الجنة الفيحاء على حين أن الدول الشرقية هى جهنم الحمراء ، بل كان مطلوباً منه الاعتراف بأن الدول الشرقية ومن يلوذون بها جميعاً أولاد فاعلة لا يجىء من ورائهم سوى الفقر والجهل والمرض والهزيمة ، لكنهم لا يعرفون « الفلاح » وإن خيل إليهم أنه مفتوح . إنه فى الواقع ناشف الدماغ متعب فى هذه المسائل إلى أبعد حد . وكانت المناقشة جديرة بأن تنتهى بخناقة يسيح فيها الدم لولا وجود (الذى يرى) حيث ظل يقظاً يسربل « الفلاح » بهيئة من التواضع

الجم ، ويرسم على شفتيه ابتسامة لبقة تعنى الموافقة على آرائهم ، وفى نفس الوقت لا تعنى الإقتناع بشيء مما يقولون . وبهذه الابتسامة التى ظلت معلقة على شفتى الفلاح طويلاً انتهت المناقشة على خير . .

ومع ذلك صار « الفلاح » صديقاً لكل من « راديو أوفسير » و (تشيف أوفسر) السفينة « أوراپيا » .

٢

تلقى الفلاح دعوة من مندوب شركة (ميرتيراس) للغداء هو وزميله . وكان ثمة حوار قد دار بين « الفلاح » وزميله حول هذا المندوب : فالفلاح قد حكم ببراءته بعد العشاء فى احتفال التدشين فى حين سخر (الذى يرى) من هذا الحكم سخرية شديدة ، وسلط (حامل القلم) على تدوين كل ما جمعه عن هذا المندوب وعن شركته . أما الزميل (حسين) فهو غير ميال إلى إدانته ، وفى نفس الوقت غير ميال إلى تبرئته مما نسب إليه . وكان الفلاح قد وصل هو الآخر إلى هذه النتيجة بعد أن كثر الكلام حول كل الناس بعضهم حول بعض حتى صار كل الناس متهمين ! .

فلما وردت الدعوة على الغداء من المندوب رحب بها « حسين » واعتبرها فرصة لدراسة الموقف على حقيقته ، ورحب بها « الفلاح » واعتبرها فرصة لإزالة ما قد يكون عالقاً فى ذهن المندوب من مفاهيم خاطئة عن شخصية « الفلاح » بسبب مفاجأته له فى حفل التدشين بالأسئلة المباشرة القليلة الذوق . وحدد للموعد ساعة معينة . أما المكان فلم يرد فى الدعوة الشفوية . فقرر « الفلاح » ومن معه أنه البيت لابد وخصوصاً أن زوجة المندوب قد ظهرت فى الأفق وتعرفت عليهم ، واغتبطوا بها لما فى شخصيتها من دم مصرى أصيل يشبه لون الطمى وروح بسيطة طيبة .

والواقع أنهم كانوا يخفون فى أعماقهم اغتباطاً لذيذ الطعم مصدره أنهم بعد كل هذه الأيام الطويلة فى البحر ويعيشون حياة جافة قدر لهم أخيراً أن يجلسوا فى بيت . فلقعدة البيت إحساس بالنشوة يفوق ما تعطيه أى جلسة أخرى فى أى مكان آخر حتى لو كانت حافلة بأطايب النعم . فالمرتحل فى البحر على وجه خاص لا يسره شيء فى الدنيا أكثر من رؤية البيت والأطفال والأشياء المنزلية ، نفس الأشياء التى إن طالت رؤيته لها فكر فى الرحيل مرة أخرى .

هذا ما أملاه « الذى يرى » على « الفلاح » واستكتب « حامل القلم » أن يكتبه .

ومن الحق أن « الذى يرى » طلب من « حامل القلم » تفسير تكالب شباب البحارة على شراء الأجهزة والأدوات بهذا الشكل المحموم . فردد ذلك الجواب التقليدى بأنه الحرمان والكبت من ناحية ، ونتيجة للاحتكاك بعوالم مرفهة من ناحية أخرى . و« الذى يرى » — وإن كان يؤيد هذا الجواب من إحدى الزوايا — يميل إلى الاعتقاد بتفسير آخر هو أن شباب البحارة بل شيوخهم يحلمون على الدوام بالبيت . البيت الذى كُتب عليهم أن يغادروه فى اللحظة التى يحسون فيها بدفئه ، ليظل الواحد منهم على طول الرحلة يدخر من المشاعر والعواطف والنيات الطيبة ما يملأ للحظة القادمة ينابيع السعادة . وهذه « اللحظة القادمة » تمعن فى الإقتراب تمعن فى الابتعاد . فإذ تنتهى الرحلة لتتيح للمرتحل فرصة اللقاء — إنما تكون كالذى يقرب العطر من الأنف ثم يشده فى الحال ، إذ لابد للبحار أن يكون على ظهر السفينة بعد عدد محدود من الساعات حتى لو كانت واقفة على الرصيف أو فى الخطاف . والشوق الذى برح به إلى لقاء من يحب تعرقله موانع شرعية طارئة ترفع الراية الحمراء أمام المشحون بالشوق ، فيرتد عائداً مؤجلاً اللقاء إلى ما بعد الرحلة الأخرى . والرحلات تتوالى وتتوالى فتتراكم الأشواق تخنقها الأخطار خنقاً ، لتعود فتوقدها وترفع لهيبها ؛ ولذا فالجيل الجديد من البحارة يحسم الأمر بينه وبين نفسه بعشر سنوات على الأكثر

يقضيها فى البحر ؟ ليتفرغ بعدها للعمل بجوار زوجته وأولاده . وأحل وظيفة يتمناها الواحد بعد التفرغ للبيت هى وظيفة المرشد . لا ليرشد السفن ويحميها مواطن الزلل ، بل ليرشد أيضاً سفينة حياته ، ويضع يده على « اللحظة القادمة » أى اللحظة التى يدخل فيها فى عداء البيت ويستريح . ولك أن تتخيل بيتاً ينفق الإنسان عمره ليكونه من أجل لحظة قد لا تجىء .

٣

حسم « الفلاح » الأمر بالنسبة للمانيفستو » الذى يحمله زميله « حسين » فى جيب صدره وهو عبارة عن ورقة فى حجم الكف يطويها كالحجاب ويدسها فى جيبه ويتحرك بها ، فإن راقته كلمة أو استفزه مشهد أخرج الورقة ودون فيها شيئاً ، ثم أعادها من جديد . الأمر الذى خلق توتراً هائلاً فى السفينة . ولما كان « الفلاح » لا يفعل ذلك لكونه ميالاً لنفى صفة الصحفى عنه ، وبالتحديد الصحفى الذى يحول ذاكرته إلى مجموعة من القصاصات الراصدة بلا روح لستوعب فإنه تلقى عشرات الأسئلة حول هذه الورقة أو « المانيفستو » كما يسمونها . كانوا يتخيلون فرصة وجود « الفلاح » وحده ويصبون على رأسه كل السخط الذى لم يعطهم « حسين » فرصة لصبه عليه . كانوا يقولون : هل يهددنا ؟ نحن لا يهمنا ! فليكتب ما يكتب فنحن لا يهمنا . . إلخ هذه التهديدات الفارغة . .

فقال فهم « الفلاح » : إن زميله من حقه أن يفعل ما يفعل ، فهذه هى طريقته فى تسجيل معلوماته قبل أن تطير من ذهنه . وإنه – الفلاح – لا شأن له بأسلوب زميله فى العمل أو بأسلوب أى أحد ، فكل شيخ له طريقة ، ثم قال فهم أيضاً : إن هذا التسجيل بهذه الطريقة لا يعنى أنه يهددهم ، أو ينوى بهم شرا ، أما كونهم

يحسون بذلك الإحساس فهذا شأنهم ويتعلق بهم وجدهم وعليهم أن يعلموا أن « الفلاح » نفسه برغم أنه لا يحمل قصاصة يدون فيها قد يكون أشد هجوماً عليهم . . .

وبذلك حسم الموضوع ، ولم يعد يتلقى أسئلة من هذا النوع . .

ويشهد الذى يرى أن « الفلاح » كان مشوقاً غاية الشوق إلى رؤية أو معرفة ما يسجله « حسين » فى وريقاته المتوالية فهو لا ينى يسجل حتى أصاب « الفلاح » بإحساس غريب هيأ له أنه – الفلاح – فاقد الوعى بالرحلة وأن هناك أشياء كثيرة تستحق التسجيل بهذه الأهمية وهذا الحرص ، ولكن « الفلاح » لا يراها لأنه فلاح ، ولأنه لم يرتحل من قبل . ولم يكد يصرح لحسين بهذا حتى أراه إحدى الوريقات . فلم يفهم « الفلاح » منها شيئاً ، لأنها كانت مجرد رموز وأرقام وأقوال غير مرتبطة بعضها ببعض إلا فى ذهن الكاتب نفسه . على أنها أشعرت « الفلاح » بنوع من الغيرة كاد يشعر معها بخيبة الأمل فى نفسه ، إذ وجد أن ما يسترعى نظر زميله لا يكاد يسترعى نظره على الإطلاق ، ولما كان زميله مرتحلاً قديماً فهو إذن أقدر على التقاط ما يصلح للكتابة . .

وبرغم أن الرحلة كانت خالية تماماً من المثيرات التى يهواها خيال « الفلاح » الروائى – فإنه كان مفعماً بإحساس المسافر الذى يقابل ناساً جدداً وبلداناً جديدة . وكان يحب أن يستغرق فيها استغراقاً تماماً ، ولا يشغل نفسه بأى كتابة إلا أن نشاط « حسين » فى التسجيل والكتابة وتسويد النوت والكشاكيل نقل إليه العدوى وأشعره بضرورة التسجيل !

فلما شرع يسجل لم يجد فى ذهنه أى شىء يستحق التسجيل كأنه لم ير شيئاً ولم يسمع شيئاً ، فكل ما يحدث أمامه طبيعى وعادى . فطوى أوراقه وقرر ألا يكتب شيئاً إلا حين يعود ، ويرى ماذا بقى فيه من الرحلة ؟

لكن جرس التليفون تدخل فى الأمر . وإذا بحسين يطلبه من المكتب المجاور للباب فى الدور الأرضى ، وكان قد أخذ مفتاحه من « التشيف أوفسر » ليزاول فيه الكتابة . وكان يسهر قدر ما يسهر مع الربان أو مع أى أحد ، ثم يعمل حقيبته السمسونيت وينزل إلى المكتب . فيظل يكتب حتى الصباح .

وقال « حسين » فى التليفون :

– تعال اسهر معى لتكتب أنت أيضاً .

فحمل « الفلاح » أوراقه ونزل إلى المكتب ، ليحل أمامه أعقد الألغاز التى أثارها « حسين » فى السفينة .

لغز العلب الفارغة

١

نعم كان « حسين » قد أثار فى السفينة لغزا غامضاً عسير الفهم . . فى البداية بينما كانوا يجلسون فى إحدى القمرات لاحظ « الفلاح » أن « حسين » يلتقط علب السجائر الفارغة ، فيطيفها بعناية ، ويضعها فى جيبه بكل احترام وتأنق . .

ثم بدأ « الفلاح » يلاحظ أن « حسين » يراقب علب السجائر أينما وجدت ، فإن وجد علبة وشيكة النفاد نبه على صاحبها بضرورة الاحتفاظ بها له ، وإذا لم يكن فيها رزالة فإن « حسين » يكون سعيداً لو تفضل صاحبنا واحتفظ بكل ما يدخنه من علب فارغة !

يطلب ذلك بشكل جاد ، وبنفس اللهجة الرسمية التى إن تسمعها لا يسعك إلا التلبية فى الحال ، إذ لابد أن الغرض المطلوبة له عاجل وخطير ، بل هو من الخطورة بدرجة لا تقتضى ذكر الأسباب ، ومن ثم لا تقبل المناقشة ! !

٢

وسار من المناظر المألوفة أن يرى «الفلاح» فى الصالون شخصاً ينقض فجأة على علبة سجائر قبل أن يكورها صاحبها ليرمى بها من النافذة . وأما إن رماها صاحبها فى الأرض فإن الشخص المنوط بالتقاطها يقوم بتسويتها من جديد ووضعها فى جيبه . فيعرف «الفلاح» أن حسينا لابد كلف هذا الشخص جمع العلب . ثم لما تكررت هذه المشاهد خيل للفلاح أن «حسين» نشر فى السفينة تقليعة جديدة . .

وخشى أن يكون هذه التقليعة فوائد والفلاح لا يدريها لأنه فلاح . ومن شدة «فلوجيته» استنكر فى البداية أن يسأل «حسين» عن سر هذا اللغز . لكنه ظل يراقب الأمر خفية كأنه يدبر لفتح عكا ! ويشهد «الفلاح» أن «حسيناً» نجح فى التكتيم وإحاطة الأمر بكثير من الجدية والكهنوتية !

وكم ناقش «الفلاح» الأمر بينه وبين نفسه محاولاً أن يدرس هذه الظاهرة . وكان فى النهاية يقول : ليس من المعقول أن يكون «حسين» مكلفاً من شركات السجائر بجمعها لإعادة تعبئتها من جديد مثلاً .

قصر الكلام أن «الفلاح» استغلق عليه فهم الأمر تماماً .

فلما دُعىَ بالتليفون من «حسين» لمشاركته فى المكتب هذه الليلة سر سروراً عظيماً . وحمل كراسته وقلمه . وكالعادة . كتاباً يقرأ فيه قليلاً للتسخين .

وكان قد نسى أمر العلب الفارغة وفى تلك اللحظة لم يكن مشغولاً بغير أمرين : أن يفتح الله عليه بكلمتين يكتبهما فى هذه الخلوة المهيأة له بعد طول جفاف وخواء ، وأن يرى الذى كتبه «حسين» أوعلى الأقل يستشف منه شكل كتابته عن هذه الرحلة التى ستكتبان عنها معاً ، ليبنى بعد ذلك تصوره الخاص . .

٣

المكتب له بابان : أحدهما فى ممر المدخل بجوار الصالون مباشرة ، والآخر يفتح على «اللاباندا» . وهو حجرة مربعة صغيرة بها مكتب بكرسيه ، بجواره كنبة طويلة للتمدد وقد أعد المكتب ليجلس فيه «الخوجة» عند الشحن أو التفريغ لإدارة الأعمال والحسابات .

جلس «حسين» على الكرسى واحتل المكتب ثم فرد أوراقه والحقيبة السمسونيت مفتوحة تطل منها غابة من الأقلام على مختلف الأشكال والألوان ، ودواة حبر وأستيكة وبراية وعدد من الكشاكيل الكبيرة والنوت الصغيرة مزحرفة الأغلفة وتلٌ من وريقات صغيرة عرف «الفلاح» أنها حصيلة الوريقات التى يحملها فى جيبه .

وإذ دخل «الفلاح» لم يجد مفرًّا من الجلوس على الكنبة ، وحينئذ عليه أن يستخدم ركبته كمكتب . وهو وضع يكرهه جدا ، أو ينحشر فيما بين الكنبة وجانب المكتب ليسند الكراس على حافته : أى أن عملية الكتابة باختصار ستكون عملية معاناة شديدة التعذيب بالنسبة للفلاح ، ولذلك فما كان منه إلا أن طوى كراسته ورماها وتمدد على الكنبة يتفرج على «حسين» الذى استغرق فى الكتابة بدقة بالغة ، وكانت «فرجة» حقيقية بالنسبة للفلاح ، فحسين يبدأ الكتابة فى أجندة كبيرة هى أجندة العام الحالى ، ثم يضعها فجأة ، ويكتب فى كشكول آخر ، وقبل أن يكتب يشد خطاً بالمسطرة ويكتب عنواناً بالأحمر . ثم يعود إلى الأجندة من جديد ، ليبدأ التسجيل فيها من وريقة من الوريقات المرصوصة أمامه .

•

٤

هنا فقط الحل اللغز . وعرف «الفلاح» : لماذا حسين يجمع العلب الفارغة ؟ ذلك أنه «حسين» إذا ما انتهى من تسجيل ما فى الوريقة الصغيرة فى الأجندة الكبيرة أو فى الكشكول أو فى النوتة قام بتمزيق الوريقة إرباً إرباً حتى تصير كل مزقة فى حجم قشرة اللب ، ثم يكورها ويحشوها فى إحدى العلب الفارغة ثم يبرم طرف العلبة برماجيدا حتى ليدفعك إلى أن تبحث له عن فتلة يربط بها طرف العلبة ما دام الأمر هاما إلى هذه الدرجة ، ثم يلقى بالعلبة فى البحر من النافذة ! . .

هبّ «الفلاح» جالساً وقد تذكر — لا يدرى : لماذا — عادة الهنود فى حرق جثثهم بعد موتهم ؟ وخشى أن يسأل «حسين» عن السر فى تكفين وريقاته ثم دفنها فى جوف الماء هكذا ، لا خوفاً من قبضة «حسين» التى كانت قد بدأت تظهر إثر خلاف حدث بينه وبين بعض السفرجية وكان يؤكد للربان أنه لن يكون مسئولاً إذا أنزل له السفرجى مشطوراً ، ولكن حذرا من أن يكون هذا الطقس أثر جوهرى فى مزاجه الكتابى !

على أن (حسين) كفى «الفلاح» مئونة السؤال ، إذ إنه شد خيط الإبتسام فرحفت على شفتيه واحدة ، وصرح للفلاح بسر العلبة الفارغة : إنه لا يريد أن يوسخ الأرض بقصاصاته من ناحية ، ثم إنه بذلك يقطع الطريق إلى الأبد أمام أى محاولة للكشف عما دونه من ملاحظات فى قصاصاته من ناحية أخرى ! . .

٥

وكان «حامل القلم» فى أعماق الفلاح يحسد «حسين» على هذا النظام الدقيق

الصارم الذى هو عصب الإنتاج المتواصل ، فى حين كان «الفلاح» يستنكر أن يلزم الإنسان نفسه كلّ هذه القيود ! أما «الذى يرى» فإنه لم ير فى الأمر أى غرابة ، فهو يعرف عشرات النماذج من الفنانين الكبار يلزمون أنفسهم عادات أو سلوكات تعتبر فى أنظارنا غريبة وشاذة ، ولكننا لو درسناها لوجدنا لها دخلاً فى تحريك قريحة الفنان ، ولكن «الفلاح» لم يقبل هذا التبرير حتى لو كان القياس مع الفارق .

ولم يجد مفراً من أن يسأل :

— حسين . . الى تكتبه ده كله فى الرحلة ؟

فقال «حسين» إنه يكتب مع الرحلة مذكراته الخاصة فهذه الوريقات التى أمامه منها ما هو خاص بالرحلة ، ومنها ما هو خاص بحياته الشخصية كإنسان يعيش . وهو لا يكتب فى هذه الوريقات إلا رءوس موضوعات فقط مع التاريخ والتحديد المكانى ، ثم يكتب فى الأجندة بالتفصيل ، لكن صفحة الأجندة لا تتسع لكل أحداث اليوم الواحد ، فيضطر إلى تكملتها فى كشكول آخر يكتب وسط السطر : تابع يوم كذا سنة كذا ، ثم يكمل .

— وهل حدثت لك كل هذه التلال من الأحداث التى تملأ كل هذه الأجندات والكشاكيل . . ؟

هكذا سأل «الفلاح» فى براءة واضحة ، فقال «حسين» : إن هذه التلال من المذكرات حصيلة ثلاث سنوات مضت أهمل خلالها التدوين فى الأجندة ، واكتفى بالتسجيل فى وريقات منفصلة بسبب مشاغل كثيرة طرأت عليه ، وقد انتهز فرصة سفره لإنهاء هذه المهمة لاستئناف التدوين بعد ذلك يوماً فيوما . .

نط «حامل القلم» من أعماق «الفلاح» وحسد «حسين» على الاهتمام بمذكراته والتأريخ لنفسه . وقال إن الإنسان يجب ألا يموت دون أن يخلف وراءه شيئاً يستدل منه على فهم شخصيته ، فقال «الذى يرى» وبدبلوماسية رقيقة : إن الإنسان بهذا

الشكل بدون فراغ نفسه من أى مضمون ، لأن الإنسان لابد أن يعيش أولاً ثم بعد ذلك يرى ماذا فى حياته يستحق التدوين مما لا يستحق ؟ وقال « الفلاح » : إن الإنسان الذى يكتب مذكراته بهذا الشكل ويكتب سجلا يوميا عن قابلوه وحدثوه يسرف على نفسه وعلى الآخرين !

٦

ثم إن « الفلاح » ترك كل هذا ، وترك المكتب برمته ، وصعد إلى قرنه ، واندمج فى القراءة بشكل لم يسبق له مثيل . فلما دهمه اليوم رأى فيما يرى النائم أنه مات ثم دفن ! لا فى فسقية بل فى حجرة كالفراعين بها حجرة صغيرة ذات بابين يفتحان على ممرين منعكسين بهما مكتب وكرسى وكنبة للتمدد ، وبها عشرات الكشاكيل والأجندات والأقلام والمجلدات ، وكان لحظتها ينتظر زبانية الجحيم ، لتحاسبه على ما قد فعل ، ولم يكن خائفاً ، لأنه كان واثقاً – لا يدرى لم – أن كل هذه الصفحات خالية وبيضاء من كل سوء برغم ما تحمله من أحبار !

مشهد من الأتوبيس

١

انشغلت السفينة كلها بأمر جديد : ذلك أن الطاقم كله مطلوب منه مغادرة السفينة كلها لمدة أربع وعشرين ساعة . مشكلة ! أين يبيت أفراد الطاقم ؟ وأين يأكلون ؟ هكذا كانوا يتساءلون . وكان « الفلاح » أيضاً يسأل ولكن عن السبب فى أن الطاقم لابد أن يغادر السفينة ؟ لقد علم أن بوليس الموانى منذ دخول السفينة إلى الميناء يحتل مخزن السفينة فيغلقه ويأخذ مفتاحه بعد أن يجرد محتوياته . والسبب فى ذلك هو وجود السجائر بكميات هائلة فى كل سفينة . والبوليس يخشى أن تكون مجهزة للبيع وليس للاستهلاك الشخصى فوق ظهر السفينة كما يحدد القانون ، فما السبب فى أن الطاقم لابد له من مغادرة السفينة ؟

قالوا له : إن كل سفينة تصل إلى الميناء لابد من تبخيرها . و« إلا بخت » هو الذى يتولى هذه العملية . والعادة – فيما يقولون – أن يحجز لهم فى فندق من فنادق المدينة ويوزع عليهم مصروفاً ينفقون منه على طعامهم لمدة أربع وعشرين ساعة .

ومنذ يومين علم «الفلاح» أن طاقم السفينة (أورابا) قد سافر إلى مدينة مجاورة اسمها «روستوك» للمبيت هناك نظراً لأن فنادق المدينة كلها مشغولة ومكتظة لأيام طويلة قادمة. ولكن الطاقم كله سافر معززاً مكرماً. أما في السفينة (رمسيس) فإن الأمر مختلف بصورة أزعجت الطاقم كله، حيث اتضح أن الضابط والمهندسين وحدهم سيسافرون إلى مدينة (جيفرين) للمبيت فيها في حين تبقى البحرية للمبيت في سفينة (المندرة) المصرية التي كانت قد وصلت إلى نفس الميناء، على أن يتقاضوا بدلاً للطعام فقط. أما الربان فقد احتجز لنفسه غرفة في أحد الفنادق..

ولقد كثر الكلام حول هذا الأمر، وبلغت الثورة على الربان حدا جعل «الفلاح» يصغي إلى ما يشبه الأساطير: فبعضهم يقول: إن بدل الطعام المقرر للضابط أقل بكثير مما يقرره «الايجنت» عادة، فما السر في أنه ينقص في حين كان المفروض أن يزيد؟ ولا يريد «الفلاح» أن يسجل هنا ما استمع إليه من حكايات حول ذمة الربان، بل إنه لم يُعْنَ بتحقيقها أو التحقق منها، لأنه كان مشغولاً بأمرين: الغذاء الذي سيتناوله مع مندوب شركة «مارتيرانس» غداً. وما سيشحنه له من فرص للتعرف على أسرار المدينة وسفره إلى مدينة «جيفرين» التي رآها في أثناء مرور السفينة بها وسمع عنها كثيراً من الحكايات المبهجة.

٢

في موعده تماماً جاء المندوب وكان متعجلاً، ذلك أن زوجته كانت تقف في انتظاره في مكان ما خارج الميناء، وتوقف «الفلاح» قليلاً عند وجود زوجته. وسأل: لماذا تجيء زوجته معه إذا كنا سنذهب إليها في بيتها؟ أمن تقاليد العزائم أن تجيء السيدة لاصطحاب المدعوين إذا كان بينهم سيدة؟ إنه على أي حال نوع من

التكريم الحضاري، لكن «حسين» توقع من وجودها أن يكون الغذاء خارج البيت، ولم يسترح ثلاثتهم لهذا التوقع..

وفي الطريق بينما كانوا يسيرون في اتجاه الشارع الرئيس سأل «الفلاح»: – هل البيت بعيد عن هنا؟

ولاحظ أن «حسين» التفت جيداً إلى رد المندوب على هذا السؤال، وقال المندوب:

– بعيد بس مش قوي، لكن يعوز له (تاكسي).

ولم يكمل، فتجدد الأمل في رؤية البيت وشم نكهته التي أوحشتهم جميعاً طوال الأيام الماضية وسط حياة فاحلة. على أن المندوب اتجه بهم إلى محطة الأتوبيس وتوقف، فتوقفوا بجواره. وألحق أن الضيوف اندهشوا قليلاً ربما لإحساسهم بأنهم لا يستأهلون ركوب التاكسي برغم أن المشوار يحتاج إليه ولكن المندوب أخبرهم أنهم سيتناولون الغذاء في أفخر كازينو بالمدينة الصغيرة الجميلة.

٣

توقف الأتوبيس وهبط من بابه الخلفي بعض الركاب، فتقدم الذين كانوا ينتظرون بانتظام، وصعدوا من الباب الأمامي بلا أي تزاحم وكأنهم جميعاً يريدون التفرج بعضهم على بعض في أثناء الركوب، فكل واحد يتراجع قليلاً، ليفسح لمن يريد التقدم..

وحين جاء دورهم صعد المندوب في المقدمة، ليضع أجرة الركوب في الصندوق المعلق بجوار السائق. وبرغم أن «الفلاح» رآه يفعل ذلك فإنه ظل ينتظر قدوم «الكمساري» ولم يقتنع بعدم وجوده إلا حينما صار الأتوبيس مثل ملعب الكرة ينتظر من يملؤه.

كان عدد الركاب لا يزيد على خمسة عشر شخصاً فى أتوبيس بمقطورة . وكانت بجوار « الفلاح » ولكن فى الصف الثانى فتاة شقراء لم تفلح ملابسها فى اعتقال أنوثتها التى كانت تضج وتتفجر فى الصدر وما تحته وعند الفخذين والكعبين ! وقدر « الفلاح » أنها فى السادسة عشرة من عمرها . أما المندوب فأكد أنها أقل من ذلك بعام على الأقل . كانت جدائل شعرها تنسكب على ظهر الكرسى وفوق جبينها التفاحى ، وتحجب جانباً كبيراً من وجهها . وكان « الفلاح » يقاوم رغبة عارمة فى رؤية وجهها كاملاً ، ويحاول السيطرة على فضوله المصرى ، لكنه لما رأى جميع الركاب فى حالهم ولا أحد يراقبه من تحت إلى تحت ولا أحد منهم ينظر إلا إلى الأمام دائماً تسلل هو كسحابة عابرة ، وجلس فى الكرسى المواجه لها مباشرة . خفق قلبه خفقة سمع صوتها ، وأحس لها رعدة فى قاع بطنه . كانت هى بنفسها تلك الفتاة التى أحبها ذات يوم ، وكتب فيها الأشعار واشتهى البيوت والأعشاش والأمجاد فى مناخها . أكد « الفلاح » أنها هى وأكد « حامل القلم » أنها شديدة الشبه بها . وأكد « الذى يرى » أنها لم يكن لها فى الأصل وجود على الإطلاق إلا فى خيال « الفلاح » فليس ببعيد أن يكون « الفلاح » قد رسم لنفسه هذه الصورة على هذه الشاكلة من واقع الفتيات اللاتى تعرف عليهن فى روايات « ريمارك » و « هيرمان هيسه » و « كافكا » و « توماسمان » وغيرهم من كتاب ألمانيا العظام .

لم يستطع « الفلاح » نفى هذا الكلام ، ولكنه رفع حاجبيه فى إصرار أبله مؤكداً أنها كانت ذات يوم حبيبته ، ربما فى المنصورة أو فى طنطا أو فى الإسكندرية أو الإسماعيلية ، وهى بلاد عاش فيها « الفلاح » وعمل وأحب .

وعاد يختلس النظر إلى وجهها غير أن نظرته فى هذه المرة لم تتجاوز وجهها ، ووجد نفسه يهم باحتضانها ، ليُقبِّل النمش المتناثر فى خديها ومقدمة أنفها ويتحسس بروز الخدين واستدارة الوجه ، ويتحسس قدرة الله فى صنع هذا الجمال الدقيق .

كان يحس خفقان لذيذ ومتوهج لإحساسه أنه أخيراً وبعد عمر طويل رأى حسناء رآها خارج السياج ، بلا حراس وبلا عيون تراقبها وتتدخل فى شئونها !

غير أن « الفلاح » لم يستطع تفسير هذا الاكتئاب الذى برغم قوته الطافحة عليها لم يفلح فى تشويه وجهها . إن للجمال تعاليه الخاص . ومعظم الفتيات نصف الجميلات يكللن جباههن بالتعالى ، ولكن هذا الجمال اكتسب من تواضعه ومن بساطته تعالياً خاصا حتى فى حالة اكتئابه وقرفه . كانت رائعة البصر تكتم شعوراً بالقرف حتى « الفلاح » أن تكون نظراته أحد أسبابه ، فخفض بصره لبرهة قصيرة . وكانت دهشته عظيمة حين التفت إليها بعد برهة قصيرة فلم ير وجهها . إنما رأى بدلاً منه سحابة من الشفق تمتد من مسند كرسيها إلى مسند الكرسى الذى يجلس « الفلاح » على نصفه البعيد ، وتبين أنها تسند رأسها على مسند الكرسى فاقترب منها قليلاً . غير أنها أشارت بيدها تجاهه ، ليظل فى مكانه أو يبتعد ، فنظر فى الأرض ، وكان قد بدأ يشم رائحة غريبة ميز فيها رائحة البرالمدى !

كانت تتقيأ ، وتضم فخذيها وتتعمد أن يسقط القيء فوقهما ، وتجتهد ألا تسقط منه نقطة واحدة على الأرض ، وأحس أنه يريد أن يفعل شيئاً نحوها ، لكنه لم يجسر على الاقتراب منها ، بل راح ينظر إلى الركاب فلم ير أحداً منهم يتحرك ، وكأن شيئاً لا يحدث حتى الصبيّة الصغيرة الجالسة بجانبها على نفس الكرسى كانت تدير وجهها نحو الشبال فى تقزز مشوب بالإشفاق !

راح « الفلاح » ينقل البصر بين الفتاة وبين الركاب ، فلا يجد أية صلة تربط بينهم على الإطلاق اللهم إلا بعض همهمة خفيفة من بعض العجائز لم يفهم منها سوى نبرة السخرية ، وحين فقدت الفتاة السيطرة على السائل الذى تفرغه ورأته يسقط بالرغم عنها على الأرض ازداد وجهها اكفهراراً وألماً وبدت كأنها عجزت عن ستر فضيحة كبيرة !

ثم إنها استسلمت لإغفاءة . وإن يئس «الفلاح» لا يئس ذلك الوجه البريء المليء بالنمش . ولو أن فتاة انتهكت عفافها أمام الملأ ما أحسست بهذا الانكسار وهذه الذلة وقال لنفسه : من المستحيل أن يكون هذا مجرد إحساس بالذنب ، ولابد أن هذه الفتاة الغضة تعيش في مأساة ما ، مأساة جعلتها وهي في عمر الزهرة تشتاق إلى الندى ، وتلجأ إلى شرب الخمر تغتسل فيها من الألم ! . .

فجأة توقف الأتوبيس على غير محطة ، فلا أحد ينزل ولا أحد يهبط . ولم يفتح سوى الباب الخلفي ، وصعد أفندي محترم يرتدي قميصاً وبنطلوناً أبيضين ، ونظارة طبية أكثر أناقة . وسنه تقترب من الخمسين . اخترق الطريق مباشرة إلى الفتاة . وضع يده على كتفها قائلاً بلهجة ألمانية معوجة : هاللو . . فلم ترفع الفتاة رأسها ، فهزها ، فانكشت فبكل وقار وبلهجة تبدو غاية في الرقة قال كلاما كثيراً . فأيقن «الفلاح» أنه طبيب وحسد أهل هذا البلد على هذه السرعة المذهلة في الإسعاف .

لكنه سرعان ما صدم ، إذ رأى الرجل يكشر ويزداد صوته خشونة شيئاً فشيئاً ، ثم يهز رأسه بلهجة إنذار . ثم يهبط إلى الطريق ، فراقبه وهو يمشي ثم يستدير حول مقدمة العربة ، ويفتح باب السائق ويدخل . لم يكن الفلاح يعرف أنه سائق الأوتوبيس إلا حين جلس وقاد الأتوبيس من جديد .

سأل «الفلاح» المندوب فقال : إن السائق جاء إليها وأخبرها بكل رقة أنها تقيأت في الأتوبيس ، وأنها مطالبة بدفع غرامة قدرها عشرون ماركاً ألمانيا ، فإذا لم يكن لديها هذا المبلغ فعليها أن تنتظر في الأوتوبيس حتى نهاية الخط لتقوم بتنظيفه بنفسها ، فهذا هو القانون المعمول به في ألمانيا .

أحس «الفلاح» بشيء من الاحترام لهذا التقليد ، لكنه لم يمنع شعوراً بالضيق من قسوته ، وشغله الأمر كأنها زوجته أو شقيقته ، ولكي يمنع شعوره بالاختناق كان عليه أن يقوم بعمل من اثنين : إما أن يدفع لها الغرامة من جيبه الخاص ، وإما أن

ينتظر ليقوم نيابة عنها بتنظيف الأوتوبيس ، وكلا العملين قاس بالنسبة له . .

على أنه قرر الانتظار حتى نهاية الخط حتى لو أدى ذلك إلى الاعتذار لصديقه المصري عن عدم قبول دعوة الغداء لديه ، وجلس يفكر في مخرج ، ووجد نفسه يسأل المندوب :

– أليس من مفر أمام هذه الفتاة ؟

فقال :

– مستحيل .

قال الفلاح :

– نفرض أنها زوغت . .

قال المندوب :

– لا تستطيع .

وإذا بالأوتوبيس يتوقف في محطة في نفس اللحظة ، وإذا بالفتاة تنهض ثم تصل إلى الباب وتنزل ، فصاح «الفلاح» في انتصار عوطفي :

– ألم أقل لك ؟ ها هي ذي تهرب . إن القوانين جميلة ، ولكن حين يلتزمها الإنسان ، أما ما عدا ذلك فهي حبر على ورق !

وكان المندوب ينظر إلى الفتاة بدهشة شديدة . ولكن في أقل من لمح البصر كان السائق في مواجهتها أمام باب النزول !

في البداية دفعها لتصعد ثانية . وكان يبرطم ، فبكت . فصار يبرطم ويلوي ذراعها بقسوة ، لتصعد ، فانهارت جالسة على الأرض وأسندت رأسها على درجة السلم ، وصارت تنتحب بحرارة وتتساقط من فمها كلمات ملتاعة ميز فيها «الفلاح» كلمة «ماما» عدة مرات . غير أن السائق لم يرحمها ، بل ظل واقفاً كالقدر ممسكاً بذراعها المبروم . وكان وجهها مثل قرص الشمس عند الشفق ، وصوتها كعويل قطة

تبحث عن أولادها ، قطة تريد أن تتمرد ، أن تقفز وتتلظى نفسها فى الأرض والسقف حتى تموت ! فصار « الفلاح » يرتعش وينتفض وينظر فيمن حوله فلا يجد إلا تماثيل بشرية لا تسمع ولا تحس ولا ترى ، مما جعل الدم يغلى فى عروقه ، وكانت ضحكات « الذى يرى » ترتفع فى أعماقه وتثير ضيقه الشديد فيقول له « الذى يرى » : إن الغضب هنا غير ذى موضوع ، لأنك فى مجتمع يخالف مجتمع مصر والمجتمع العربى بوجه عام ، ويقول « حامل القلم » فى ادعاء واضح : نعم هذه قوانين ولابد من تنفيذها ، ومن الحضارة نبذ الشعور البدائى بمثل هذا الإشفاق على الحريم !

نهضت الفتاة حتى لا ينخلع ذراعها ، تبعثرت جدائل شعرها فى الهواء بعنف ، ثم أختفت من أمام السلم ، ولكن صوت نحيبها لم يختف . فنهض « الفلاح » واقفاً ليرى بقية المشهد ، فإذا بيد تجذبه وتلصقه بالكرسى كانت يد المندوب الذى قال له فى تحذير مصرى أصيل :

– مالكش دعوة .. أوعى تتكلم أى كلمة .. !

فارتعش الفلاح ، وقال : إنه سيرى فقط – كما لو كان بإمكانه أن يتكلم – فظل المندوب ممسكاً به . فجلس .

سمع صوتاً يتكلم فى نبرة احتجاج ، كان ذلك الرجل الذى يجلس أمامه فى الكرسى المواجه لكابينة السائق . وكانت بجواره سيدة لا شك أنها زوجته بدليل أنها لكزته بكوعها فى صدره ، فكف عن النطق تماماً . وراح « الفلاح » ينظر إلى شكله المحترم وذقنه الأنيقة وبدلته التى تشير إلى أنه من علية القوم ، ويحس أنه لا شىء !

ثم إن « الفلاح » قام ثانية ليرى ماذا ثم بجوار العربة ؟ كانت الفتاة لا تزال تنتحب وتتملص من يد السائق ، وتردد بين نحيبها كلمة « ماميا » واستطاعت أن تفلت من يده وتستدير ، لكنه تمكن من تطويق ذراعيها ، وكان واقفاً خلفها ملتصقاً

خلفه بظهرها محاولاً رفعها عن الأرض ، فارتفعت بلوزتها القصيرة عن بطنها وبدت كأن جسدها العريان يتمطى ، كأنه كان متكوماً داخل بنطلونها الأنيق الممزق ، هذا الجسد البلورى الذى تنظر إليه بقداسة ، وتعزف فيه شعراً ورسماً وتصويراً وموسيقى حمله السائق كما يحمل الجزار الذبيحة ثم قذف بها داخل الأتوبيس ، واستدار ليدخل كابينة القيادة . .

إرتمت الفتاة على أول كرسى ، وراحت تنتحب بحرقة . وكان « الفلاح » يلفظ آخر أنفاس الإشفاق وانتفى شعوره بالحنق تجاه هذا القانون ، وسرعان ما فقد حماسه للبقاء حتى نهاية الخط ، بل فقد حزنه للفتاة نفسها حين رأى هذا الأتوبيس الجديد الجميل جداً والمريح جداً ينطلق بخربة فى هذا الشارع اللامع النظيف . . .

الفصل الثاني عشر

مزرعة القبلات !

١

ربما كان هذا أجمل «كازينو» رآه «الفلاح» في حياته ، ولا نقول «جلس» ، فالواقع أن «الفلاح» ليس ممن يجلسون في «الكازينوهات» إنه فقط ممن يمرون عليها في القاهرة وضواحيها ، وعندما يمر عليها يتصور أن دخولها أمر بالغ الخطورة . والمرات التي دُعي فيها للجلوس في . «كازينو» معدودة على أصابع اليد الواحدة كان في كل منها معزوماً من الأصدقاء العائدين من بلاد النفط تشتعل أيديهم بالصرف المجنون !

وعلى الرغم من أنه في كل المرات لم يدفع شيئاً فإنه ضاق بالجلوس فيها وكرهها ولم يصبح من زبائنها قط فهي في نظره مؤامرة تمثيلية يشارك فيها الرواد لابتزاز نقودهم بصنعة لطافة وعواقتهم مبدئيا على أن تسلب نقودهم مقابل احترامات وتبجيلات زائفة يمنحها لهم الخدم والسفرجية ، ليأخذوا فوق البيعة بقشيشاً ! و«الفلاح» لا يمقت شيئاً في الدنيا قدر مقته للبقشيش هذا . وكان يتصور أن

الخواجات هم الذين أدخلوه في البلاد إلى أن ظهرت الحقيقة ، واتضح أن الخواجات يعيّرون المصرى بالبقشيش فكلمة : إيجبت «عندهم مقرونة دائماً بـ«جيت بقشيش !» .

ولقد أحس بشيء قليل من الضيق لما قالوا له : إن الغداء أو لعله العشاء سيكون في «كازينو» حتى لو كان أجمل «كازينو» في المدينة . .

لكنه وهو مقبل على هذا «الكازينو» في هذه المدينة الرشيقة من مدن ألمانيا الشرقية — أحس كأنه يدخل غابة سحرية ، ففجأة بعد مسيرة خطوات داخل هذه الحديقة التي تتكاثف أشجارها شيئاً فشيئاً — أن ظهر البحر وبدا كأنه يهم هو الآخر بدخول «الكازينو» من الناحية المقابلة ، لكنهم انحرفوا نحو باب جانبي ، ثم دخلوا فإذا بصالة مربعة وكبيرة تتشرفها ترابيزات عليها مفارش بيضاء من الكتان فوقها أكواب الجعة — البيرة — والبيبسي كولا وأطباق حافلة بالدجاج المشوى سال لعاب «الفلاح» لبرهة وجيزة ، لكن الخدود الفاحية والأثداء النافرة في كبرياء لحست عقله لحساً ، وكاد يتصور أن كل شيء ها هنا مباح ، ثم تذكر أن في الدعوة سيدتين هما زوجة الزميل وزوجة الصديق الداعي ، فاحتشم في الحال ، وارتدى وقاره في لمح البصر . .

أعجبته ترابيزة قريبة من اثنين يجلسان في خلوة . ولكن الداعي آثر الخروج من الصالة كلها والجلوس في الحديقة ، فرحب «الفلاح» وسعد أن يكون في الحديقة مجلس لهم برغم إحساسه بتزايد حدة البرد . .

كانت الشمس قد غابت ، وهي شمس قصيرة العمر في هذا البلد الرشيق . وأخذ الصقيع ينفذ إلى ضلوع . «الفلاح» ومع ذلك يطرح «البلوفر» على كتفيه كأن كل الجالسين هنا سيكتشفون أنه استعاره من «السيد أوفسر» إذا هو ارتداه كاملاً ! . .

٢

الحديقة عريضة وكبيرة أيضاً ، ولكن المتأمل منها مجرد مستطيل طويل يتسع عرضه لثلاثة كل واحدة تتسع لأربعة أشخاص ، وفى الوسط ممر للجرسونات والسفرجية . اختار « الفلاح » جلسته فى مواجهة البحر ، وبعث بصره إلى أشجار السرو النابتة فوق شفة البحر العليا كأنها شوارب صقر خرافى ، وعلى الشفة السفلى دائرة من الأشجار القصيرة فكأنها ذقن فيلسوف يونانى عريق . وفوق الشوارب ينحدر قرص الشمس كرةً من اللهب الوردى تتهاوى ساعية إلى البحر تريد بمزاجها أن تنطفىء ويكاد الفلاح يصرخ فيها أن انتظرى ، فأنا محتاج إليك ! ولكنه استطاب دفء الجو مضحياً بدفء الحرارة الكونية ! ثم إنه قال لنفسه : لخدعنا الطبيعة بأنها واحدة فى كل مكان ، إذ الأرض كلها واحدة وشمسها ومأوها وزرعها وشجرها وفرها واحد ولكن هذا التوحيد لا يعنى التشابه أبداً ، إن الإختلافات الكثيرة فى كل شىء ، حتى فيما تشكيه الأشياء نفسها من ظلال !

انتبه « الفلاح » إلى الفتاة الواقفة أمامه ممسكة دفتراً صغيراً وقلماً تنتظر ما يطلب « الفلاح » وهى الأخرى بنت تخالف بنات جنسها فى بلدته ، تقف كالفنار الصغير فى رشاقة وبساطة . وجهها المستطيل المتورد يبادر بالإبتسام على الدوام دونما تبذل أو متاجرة ! نظر « الفلاح » إلى مضيفه وطلب دجاجاً مثله ، ثم سرح من جديد يناشد الشمس بناظريه أن تتمهل قليلاً فى الغرق . لكن فرشاة مجهولة كانت قد لطخت وجهها المتورد بظلال سوداء كابية . لم ينقبض لها القلب ، وإنما أستمد منها إحساساً مبهجاً بالإنفراد برغم هذا الجمع الكبير . فالجميل أن هذا الجمع الكبير لا تحس به إلا من خلال ما يبعثه وجوده من دفء لكن بلا ضوضاء ولا ضجيج !

٣

رفعت الأطباق ممسوحة مسحاً جيداً إلا من بقايا عظام نخرة . وبقيت أكواب الجعة تزغرد فى صمت لمن يملؤها ومن يفرغها . وكان الرميل « حسين » ينظر إلى « الفلاح » متعجباً كيف يجرع الجعة هكذا دون أن يبدو على وجهه شعور بالتقزز ؟ وخاصة أن « حسين » لا يشرب أى مكيفات على الإطلاق !

غير أن « الفلاح » كان قد بدأ ينتظر ما هو أهم من ذلك : كان يريد أن يعرف الدافع الحقيقى وراء هذه الدعوة صحيح أنه لا يشك فى كرم المصريين وخاصة إذا كانوا فى بلاد الغربة ، وصحيح أن الداعى شخص لطيف كريم الخلق ، وزوجته سيدة رقيقة عميقة الإحساس بالضيافة ، ولكن الظروف التى تمت خلالها الدعوة تؤكد أن الدعوة ليست خالصة لوجه الكرم وحده ، فالفلاح متيقن أن الحديث الذى دار بينه وبين المندوب ليلة الحفل فى أول لقاء بينهما هو السبب المباشر فى توجيه هذه الدعوة لمعرفة أبعاد الموقف : ذلك أن المندوب شاب مصرى حريص كل الحرص على حماية موقعه فى العمل ، ويهمه أن يعرف بالضبط الذى قيل عنه هو بالتحديد ، ومن الذى قال ؟ ولقد سبق أن أمر « الفلاح » بهذه الخواطر إلى زميله « حسين » عند تلقيهما الدعوة فأبدها .

ولذا فإنهما تبادلاً النظر بسرعة ، ثم ابتسما حين أعتدل المندوب وقال مع ابتسامة رقيقة : إنه فى الواقع انشغل بأمر الأسئلة التى وجهها له « الفلاح » ساعة العشاء فى الحفل ، ويريد أن يعرف بالضبط كنه المسألة : ما الذى ينوى أن يفعله « الفلاح » بهذه المعلومات التى يسعى للحصول عليها أو للتيقن من صدقها ؟ . .

اعتدل « الفلاح » وتهيأ للرد ، ولكن « حسين » كان أسرع منه فقال : إنهما فى

مهمة صحفية ، وإن الصحفى من طبعه البحث عن المعلومات فإذ وصلته معلومات فعليه أن يحاول التيقن منها ، ثم إن « الفلاح » ركب على الحديث ، وشرح للمندوب إنه لا يجب الاعتماد فى معلوماته على مصدر واحد ، وأن المندوب إذا كان قد تضايق من لهجة السؤال وروح التهجم التى بدت فى الحفل فإنه يكون مخطئاً ، لأن « الفلاح » فى الواقع فلاح ، وهذه لغته وهذه طريقته ، إذهو بعد لم يستوعب فنون الدبلسة ، ومهما أمسك بالقلم وطالع فى الكتب فإن ظلا من الجلافة قد يطفو أحياناً فيدمغه بالغباء أو ثقل الدم وفيما عدا ذلك فالفلاح لا يقصد شيئاً على الإطلاق من وراء هذا الهجوم . بل لم يقصد الهجوم أصلاً ، أما ما سيفعله بهذه المعلومات فإنه بالطبع سيكتبها فى الجرنان فى موضوع عن رحلته فى سفن القطاع العام .

فقال المندوب : إن شركة « مارتيرانس » ليس لها أى مصلحة فى تعطيل سفن القطاع العام لأنها جزء منه ، ثم إن عملها الأساس ربط البضائع للقطاع العام وحده ، ومن ثم فلا مجال للمندوب لمحاباة سفن القطاع الخاص على حساب سفن القطاع العام . وإذا كانت الأفاويل تستشهد بالسرعة التى استقبلت بها السفينة (أورابيا) من حجز لها على الرصيف والبدء فى التفريغ تمهيداً للشحن فإن هذه السفينة مؤجرة أصلاً للحكومة الألمانية التى تدفع لصاحبها مبلغاً رهيباً كل مدة ، ومسألة تفريغها وشحنها بالسرعة الواضحة تتم بمعرفة الحكومة الألمانية نفسها ولا فضل لأحد فيها .

ثم إن (حسين) تدخل فتكلم كثيراً ، وحكى نوادر كثيرة عن رحلاته السابقة وعن النشر فى الجرنان . وعن الكتب التى نشرها ونفدت كلها ، وحينئذ انتهز الفلاح الفرصة واختفى وإن لم يغادر مقعده ، ذلك أنه استدار فجأة فإذا بالجحيم كله مشتعل خلف ظهره . ترابيزتان وراءه مباشرة وأخريان فى مواجهتهما كل ترابيزة على أربعة أشخاص هم فتاتان وشابان . وحين استدار « الفلاح » فجأة وجد أربعة سباع

تفترس أربع شياه ! جدائل الشعر منطرحة تشوى . والشفاه مستسلمة للشفاه بلا أدنى حرج . كأنما الدنيا لم تخلق إلا من أجل هذه اللحظة فقط !

كانت أجساد الفتيات مثل ألسنة اللهب تلتحم بالريح فتنبعث منها طقطقة وزمجرة تصيب « الفلاح » بالشرر . ولقد وقع « الفلاح » من طوله ولم يسمّ عليه أحد ! فالواقع أن لا أحد يدرى به ! فراح ينظر إليهم فى حسد وغيظة ، ثم تحمر أذناه فجأة ، إذ تنتصب فى أعماقه تقاليد شرقية عريقة تحيل إليه أن كل ما يجرى جرى وعار واستسلام للفسق والفجور . ولكن الغريب أن شعوره هذا لم يكن رادعاً ، إذ لم يملك « الفلاح » بدا من النظر والمتابعة ، ولم يكن يمنعه من الاستغراق التام سوى إحساسه ببعض أهل عشيرته الذين يجلس معهم على نفس الترابيزة . وخوفه أن يضبط متلبساً وإن كان غير واثق فى أنه لم يضبط .

٤

ثم إنه تعود الواقع شيئاً فشيئاً وبدا الأمر يفقد رد فعله المفاجئ . فحاول « الفلاح » دراسة العلاقة التى تربط بين كل اثنين من هؤلاء . وهل هى استمتاع حقيقى أو مجرد لهو فارغ وقضاء لمدة عابرة ؟ فى البداية رأى أن يركز جهوده على ترابيزة واحدة واختار أكثرها وضوحاً أمامه : اثنان يندمجان فى قبلة طويلة المدى تتخللها انتفاضات مرتعشة . ثم حركات نزقة لا تزيد فى كثير أو قليل على حركات الكلاب ساعة المداعبة : تناحر وعض ولثم وشم . أما الاثنان المقابلان لها فكانا شاردين شروداً غريباً كأنهما قادمان من مشوار طويل مرهق . بل كأنهما زوجان . كل منهما جدف فى كوب الجعة . ويمتص السيجارة فى ملل . وأيقن « الفلاح » أنهما بالفعل زوجان رسميان . لكن نظرته ما كادت تنصرف إلى الآخرين برهة قصيرة لتعود بعدها

فتجد الحرب قد اشتعل أوارها بين الإثنين ، كأنهما يتنازلان بالقبلات منذ بدء الخليقة ولم ينقطع نزالهما برهة واحدة .

اندهش « الفلاح » وحار في تفسير هذه الفعال ، هل هي سعادة حقيقية أو قتل الشعور بالفراغ ! ؟

لكن « الفلاح » ما لبث أن سأل : هل يمكن لهؤلاء الشبان في مثل هذا البلد أن يحسوا بالفراغ ؟ .

وأحس أنه عاجز عن الإجابة ، لكنه صار يصغي بانتباه إلى بعض الأصوات التي بداخله ، والتي كانت بدورها تصغي إلى حوار يدور حولها مع المندوب . .

٥

سجل « حامل القلم » أن تعداد ألمانيا الشرقية يبلغ حوالي سبعة عشر مليوناً من البشر ، في حين يبلغ تعداد ألمانيا الغربية ستين مليوناً . ويسجل « الذي يرى » أن الحياة في ألمانيا الغربية كما شهدها « الفلاح » خلال استعراض البحوث في الكتيل كانت حياة حافلة بالمتع لا يبدو أن القلق يعتورها من أى زاوية . فالأسرة التي تقتني بيتاً خاصاً يصل ثمنه إلى خمسين ألف جنيه ، ويحمل أفرادها آلات تصوير وآلات رؤية ذات كفايات عالية . ويتحررون من كل قيود – لا شك أسرة تنام فوق رصيد من المدخرات راسخ ومتين ، كما لا يحمل أفرادها أى هم على الإطلاق ! ثم إن الذين زاروا ألمانيا الغربية من أفراد الطاقم يقولون : إن كل ما يتمنى المرء يجده في محالها وعماراتها الشاهقة ، حتى النساء يراهن معروضات في الفتارين ، مثلها مثل أى بضاعة أخرى ! يدخل المرء وينتقى وكل مستوى بسعر وكل جيب له ما يوازى ثقله في الحال حتى من لا يملكون من الإمكانات المادية ما يتيح لهم امرأة حية ترتحل معهم في

الترحال تتيح لهم الشركات امرأة من البلاستيك المطاط يطبقها الواحد كالفوطة ويضعها في حقيبة سفره ، فلما يستبد به الشوق يخرجها وينفخها فتستوى على الفراش امرأة كاملة بالحجم الطبيعي عارية تطلب الحلال ! فيمارس معها الحرام ، فلما يقضى منها وطره يطبقها من جديد ويعيدها إلى الحقيبة !

يحدث هذا في حين أن الحياة في ألمانيا الشرقية ، كما رأى « الفلاح » في مدينة « فيمار » ولعدة أيام متوالية – حياة تبدو جافة جادة قاسية : فالبوليس صارم الوجه على الدوام لا يعرف الابتسام مطلقاً ، وعمال الميناء مرهقون يلبسون العفاريت الزرقاء والجزمات ، ويمشون في جماعات أو على إنفراد ، ولا يحدث بينهم أى لغو أو ثرثرة كأنهم ذاهبون إلى أمر جلل ، أو عائدون من زيارة مريض في مستشفى

تدخل « الفلاح » محاولاً أن يصادر هذا الكلام ، فقال : إنه يشهد بما وصل إليه الرقي الإنساني في هذا البلد من مستويات عالية : فالجنس فيها لا يباع مطلقاً ، ومثل الإخوة البحرية من كبيرهم لصغيرهم لهم هاهنا علاقات نسائية لا تكلفهم أكثر من أن يكون الواحد رجلاً حقاً في دفع نفقات السهر التي لا تزيد عن قروش ! صحيح أن البحرية يفسرون ذلك بأنه الحرمان إلى حد التفريط في الجسد مقابل أشياء تافهة كهذه ، ولكن التفسير الحقيقي هو أن البحرية لا يريدون فهم المشاعر الإنسانية على حقيقتها ، والإنسان هنا غير مشغول بأى مظاهر خلابة ، فكل المظاهر الخلابة كاذبة ، وكل مظهرها هنا يخضع لمقتضيات العمل : فعدد السيارات التي شاهدها « الفلاح » خلال جولاته في هذه المدينة لا يتجاوز عدد أصابع اليدين ، وهي سيارات عادية جداً وغير فارهة ، ولابد أن ركابها مسئولون كبار في وظائف حيوية تقتضي الإنتقال بالسيارة . .

وقال « الفلاح » أيضاً لـ « الذي يرى » : إن الشوارع ربما تكون قد خلت من السيارات لتخلي الطريق أمام عربات الأطفال ، فكل الأطفال هنا لهم عربات جد

أنيقة ومتينة تدفعها الأم أو الأب فوق الأرض المصقولة ، والطفل متجعص فى عظمة يرتدى أفخر الثياب وأثمنها ، وحين التفت نظر «الفلاح» إلى عربات الأطفال وثيابهم فى الفترينات وجدها برخص التراب والسوداني فى بلاده .

استأنف «الذى يرى» حديثه وقال : إنه يؤيد «الفلاح» فيا ذهب إليه وقال : إن الرقى الإنسانى الحقيقى يظهر فى مداخل المحال الكبرى أو الصغرى ، فأنت حين تدخل محلا تجد فى مدخل الباب ردهة طويلة تمتلئ بصف من عربات الأطفال ، وقبل أن تدخل الأم إلى المحل فإنها تدفع عربة طفلها إلى هذا «الموقف» حيث ترصها بجوار الأخريات وتتركها ، ثم تدخل المحل فتغيب بداخله كيف تشاء وكم تمتع «الذى يرى» برؤية «الفلاح» وهو يقف أمام هذا المنظر يبتسم فى بلاهة وغبطة ، ويمر أمام العربات متوقفاً لدى كل عربة ، ناظراً فى وجه كل طفل كأنه سيشترى واحداً منهم ! وأكثر ما كان يدهشه أن كل الأطفال تسرح أو تلعب مع الهواء ضاحكة مناغية ولا أحد يبكى أو يثير زوبعة من الصراخ والجعير . ويقول لنفسه بصوت عال : حقا لماذا لا يصرخون أو يبكون ؟ إن منظر اللفائف وحده فى بلادنا كفيل بإرهاب أى طفل ؛ مجموعة من الخرق القديمة تجمعها الأم وتكومها فوق الوليد وحوله . !

تذكر «الفلاح» هذا وابتسم ، ثم ما لبث أن قهقه حتى لاحظه الجالسون فى «الكازينو» ، فلم يعبأ بهم ، لأنه كان يستعيد فى ذهنه تفاصيل خطاب يود أن يكتبه من ألمانيا الشرقية إلى ابنه «زين العابدين» البالغ من العمر ثلاث سنوات يحدثه فيه عما يحسه نحوه من شعور بالذنب ، وعن الرفاهية التى يعيشها الأطفال فى هذه البلاد . ويعتذر له بأنه لا هو ولا أمه بقادرين فى هذه الآونة على توفير جزء يسير من هذه الرفاهية له وأنه — الطفل — سوف يقدر له أن يكرر نفس قصة الشقاء التى عاشها أبوه وحده !

٦

مرة أخرى سجل «حامل القلم» أن الأسعار مهما ارتفعت فهى لا تتجاوز حدود متوسط دخل الفرد فى ألمانيا الشرقية ، فأقل أجر للعامل أربعمائة مارك ، وأعلى أجر ثلاثة آلاف مارك فى الشهر طبعاً ، والعامل وزوجته يأكلان فى مقر العمل وجبة دسمة بأجر رمزى قيمته ستون فرنكاً ، أما الأولاد فيتناولون وجبة غذائية فى المدرسة فضلاً على أنهم يتعلمون بالمجان فى جميع المراحل . ليس هذا فقط بل إن الطالب حين يدخل الجامعة تعامله الحكومة على أنه خريج ، إذ يتقاضى بمجرد حصوله على الثانوية العامة — مائة وثمانين ماركاً فى الشهر .

وسجل أيضاً — وفى انبهار شديد — أن الأم حين تنجب تتقاضى من الدولة ألف مارك ، ثم تتقاضى بعد ذلك مبلغاً شهريا ، أيا كانت ظروف الإنجاب . وإذا كان الإنجاب فى بلاده «الفلاح» مقروناً بالزواج فإنه فى هذه البلاد غير مقرون بشىء . فالأم قد أنجبت والسلام ! . كيف ولماذا أو أين ومتى ؟ هذا ما لا تعنى به الحكومة . والطفل قد يكون من أب شرعى أو ثمرة علاقة عابرة . والأم قد تكون أما سابقة وقد تكون مجرد فتاة فى المدرسة لا تزال ، وأيا كان مركز الأب أو الأم فى المجتمع ، وسواء كان أبيها موجوداً أو غير موجود فإن الطفل يجد له مكاناً وحظا فى الحضانة ، ويجد — مثل أبويه — الدواء وجميع الخدمات بالمجان .

والحق لقد دهش «الفلاح» من المعلومات التى حصل عليها «حامل القلم» وراح يدونها . وأول ما أدهشه ليس اختلاط التعليم ، بل حكاية الطفلة المصرية ابنة المندوب : لقد كانت فى مصر فى السنة الأولى الابتدائية ، أو لعلها كانت فى الحضانة ، المهم أنها انتقلت مع أبويها إلى ألمانيا الشرقية ودخلت إحدى مدارسها

وتمتعت بكل مميزات أطفالها ، وبوضعها تحت الدراسة طلب منها أن ترسم ولداً وبنتاً ، فكانت فى البداية ترسم الطفل والطفلة ولا تميز بينهما سوى عضو ذكورة الولد . وأما الأنثى فليس لها . وبعد قليل صارت ترسم الطفل والطفلة بدون هذا العضو . وبعد مدة صارت ترسم الطفل مميزاً عن الطفلة بلباسها ، أى أنها فقدت الإحساس بالفروق الطبيعية بين الجنسين . .

كان « الذى يرى » يرى أن فى هذه القصة شيئاً كثيراً من النظر ، لكن « حامل القلم » اندفع وسجلها دون تحليل وهو مسنود بدهشة « الفلاح » وانبهاره الساذج بها ، غير أن « الذى يرى » عاد ونبه على « حامل القلم » بعدم السير وراء « الفلاح » إلا هزلت ! فقال « الفلاح » مدافعاً عن ذكائه أن انعدام الفروق الطبيعية بين الجنسين فى هذه السن المبكرة لم يؤد إلى العفة . فابتسم « الذى يرى » فى سخرية وقال : إن مفهوم « العفة » واسع تختلف مدلولاته من بلد إلى بلد ومن قوم إلى قوم ! فالعفة كما تفهمها أنت يأيها الفلاح هى أن تتعفف المرأة عن « الزنى » : أى أنها لا تعطى نفسها إلا من يأخذها بالطريق الشرعى . أما العفة كما يفهمها الناس هنا فهى شرف العلاقة الجنسية : بمعنى أن الأنثى لا تسلم نفسها للذكر إلا إذا كانت تريده بالفعل . وتريده هو دون سواه ، وحين تعطيه نفسها لا تنتظر من وراء ذلك منفعة مادية إنها تعطيه نفسها ليس لأنه مجرد رجل وهى مجرد أنثى ، لا ، بل لأنها اكتشفت بطريقة ما أنه يستحقها ، وأنه تبعاً لذلك سيعطيها من المتعة ما يحقق لها قدراً هائلاً من الإنسانية . ولا يعنيها فى سبيل ذلك إن كان زوجاً بعقد شرعى أو كان من ديانة أخرى وقوم آخرين !

احمر وجه « الفلاح » وسخنت مشاعره . وقال : إنه قرأ معلومة دونها « حامل القلم » الآن مؤداها أن نسبة البنات اللاتى أقل من ستة عشر عاماً وأنجبن قبل الزواج ودون الزواج نسبة مرتفعة جداً ، ولهذه المعلومة مدلول واحد هو أن الجنس هنا

يمارس بعشوائية وإرضاء للنزوات المجنونة ليس إلا ، مما يخلق فوضى الأنساب ! فقال « الذى يرى » : إن المسألة أكبر مما يظن « الفلاح » ، فنسبة الفتيات اللاتى ينجبن قبل الزواج تصل إلى تسعة وتسعين فى المائة ! وإن هذه المسألة ليست مسألة على الإطلاق ، فى نظر أحد ها هنا ، فالعلاقة الجنسية بين الجنسين لا تثير حرج الآباء والأمهات ، بل على العكس تثير فيهم قدراً هائلاً من البهجة ! وغالباً ما يتم الاتصال فى بيت الفتاة أو فى بيت الفتى تحت سمع وبصر الآباء والأمهات والبنت التى تصل إلى سن السادسة عشرة ولا يكون لها صديق تلاقيه تعتبر ظاهرة مقلقة فى محيط الأسرة وربما فكر أهلها فى عرضها على طبيب نفسانى ! ولقد شاهد المندوب نفسه فتاة تزف إلى عريسها وفى ليلة العرس كانت تحمل معها طفلها الذى أنجبته من شاب آخر . ولم يكن يعتريها أى إحساس بالحرج على الإطلاق ! فالمجتمع نفسه لا يلقى بالاً إلى هذا الأمر . بل إن الدولة نفسها تدفع لهذا الغلام ألف مارك ، مكافأة له على مجيئه ولسان حالها يقول له : جئ من حيث شئت فأنت ثمرة علاقة إنسانية ونحن كفيلون برعايتك وتقرير مصيرك كما تهوى ! ولعل الفلاح يتذكر الحكاية التى يرددها البحارة عن الربان المصرى الذى عاشر فتاة ألمانية فأنجبت منه طفلاً أسماه « طارق » ثم تركها وارتد إلى بلاده فلم يحدث أى شىء ! لم تجر وراءه فى المحاكم وتجبره على دفع النفقة ، وظلت حكومتها تنفق عليه حتى الآن ، وهو تلميذ فى المدرسة وأمه متزوجة من آخر . .

قال « الفلاح » منفعلاً : وما دلالة هذا ؟ أليس انحلالاً ؟ هناك أيضاً معلومة تقول : إن الفتاة التى تنجب دون زواج غالباً ما تعطى ابنها اسمها هى أو اسم أبيها أليست هذه فوضى الأنساب مما يؤثر على المجتمع ؟

قال « حامل القلم » : إليكما هذه المعلومة : الأب والأم ينفصلان لسبب ما مع أن لديهما أطفالاً ومع ذلك يتفقان على تأجير شقة من أربع حجرات مثلاً للأب

حجرة وللأم حجرة ثانية وللأولاد ثالثة . وكل واحد منهما يمارس حقه بحرية تامة فى حجرته : فالأم تستحضر عشيقها والأب يستحضر عشيقته ويجرى كل شىء أمام الأولاد بلا أدنى شعور بالحرج وما يكاد الأولاد يكبرون حتى يباح لهم أن يفعلوا الفعل نفسه فى الشقة نفسها ! . .

صار «الفلاح» يمسح العرق عن جبينه من شدة الانفعال . وأحس بالقلق الشديد وكأنه قد صار من سكان هذا المجتمع تسرى عليه تقاليده . هدأه «الذى يرى» قائلاً :

– لك أن تقتنع بأسلوبهم أولا تقتنع ، فهم يمارسون حياتهم طبقاً لمعتقداتهم وعقولهم . .

فقال «الفلاح» على الفور :

– لا . . لن أقتنع . .

قال «الذى يرى» :

– وأنا أيضاً لا أقتنع وإن كنت أعرف أن هناك . . وهنا رفع «حامل القلم» صفحته ، وقال :

إليكما معلومة أخرى . . ثبت بإحصائية حديثة قرأها المندوب أن الأولاد هاهنا كلهم معقدون ومصابون بالأمراض النفسية . .

حينئذ صاح «الفلاح» فرحاً :

– وجدته . . وجدته . .

– ما الذى وجدته ؟

– الجواب .

– جواب ماذا ؟

قال «الفلاح» لـ«حامل القلم» :

دوّن فى أوراقك أن هذا الذى أراه الآن أمامى – كل هذه القبلات المشتعلة بالأحضان – ليست فى الواقع إلا شعوراً هائلاً بالضياع . . ومحاولة لتذويب جبال من الألم الدفين تجثم فوق الصدور . . !

الفلاح في قصر الكاردينال

١

في الصباح الباكر كانوا قد استعدوا لمغادرة السفينة ليتم تبخيرها. ولما رأى «الفلاح» أن زميله يحمل حقيبة من تلك التي تعلق في الكتف قال لنفسه: وأنا أيضاً لابد أن آخذ معي حقيبة. ولم يكن هناك سوى حقيبته السمسونايت التي أهداها له صديقه الشاعر «عبد المنعم عواد يوسف» ذات عودة له من قبل، وكان كلما حملها أحس بأنها ربما كانت الشيء الوحيد الذي يجذب النظر فيه لدرجة أنه حين يريد استيقاف عربة أجرة كان يرفع يده بالحقيبة، فإذا وقفت العربة أيقن «الفلاح» أنها وقفت احتراماً للحقيبة ليس إلا. فبدأ «الفلاح» يكرهها ويتمرد عليها ويعود من جديد إلى الملف الجلدي يضع بين دفتيه أوراقه وجرائده. لكنه كرهها بعنف ورماها في البيت حين بدأت تنتشر بين أيدي النصابين والمحتالين وبائعي الهواء والكلام المعسول. وكان قميناً بألا يدعها تذهب معه إلى بلاد الفرنجة لولا أنه

لم يعد مكاناً لأقلامه وأحباره ومذكراته وأشيائه المتناثرة غيرها والحق أنها نفعت في ذلك تماماً.

وفي صبيحة هذا اليوم أخرجها من الدولاب، وحشر فيها جلباب نومه وفانلة وسروالاً ومنديلاً، ولم تكن الفانلة أو السروال أنظف مما يرتديهما بالفعل، لكنه مجرد ... والسلام! ثم إنه مضى فوق المشاة في الممر وقد أحس بنفسه خفيفاً. وكانت الشمس قد أشرقت وبدت من الباب المطل على الكوبرته مثل لوزة القطن تفتحت وسكتت. فذكرت «الفلاح» أنه كان يتمشى هذه الآونة الصباحية في شقة بالدور الثالث من بيت ما: بيت لعله سكنه في صباه في أثناء تعلمه في المدينة، ولعله زاره مرة في طفولته مع أمه أو أبيه ولعله بيت أحد أقربائهم في إحدى المدن الساحلية. إنه بيت مألوف للفلاح تماماً. ولابد أنه بيت من ذوي الحجرات الواسعة، والشبابيك المستطيلة والحيطان الصفراء، النظيفة ولابد أن رائحة الفول تتصاعد من الشوارع الهادئة من المطاعم أو العربات أو الأطباق لا يدري «الفلاح» فلما مضى يهبط سلم القلعة في السفينة خيل إليه أنه ذاهب الآن إلى المدرسة. وجاءه ذلك الإحساس المفعم بالخوف من أستاذ بعينه، من مادة بعينها من زملاء يقلقهم وجود الفلاحين بينهم، ثم إنه غاص في الظل من جديد، وأحس بالبرودة تسري في ضلوعه فاكتأب لبرهة قصيرة. فلما حوّد على اليمين ودخل الصالون تذكر أنه الآن مسافر إلى مدينة أخرى كانت الترابيزات والسجادة والبخار المتصاعد من المطبخ — كل ذلك يؤكد له أنه في بيته، وأنه من هذه اللحظة فحسب، لحظة ابتداء السفر إلى مدينة أخرى — يبدأ في الاشتياق إليه.

طعم السيجارة بعد الإفطار وهو جالس في الصالون له مذاق رائع، نفس المذاق الذي افتقده من زمن، ونكهة السيجارة تعيده إلى الدروب الخلفية، جاءه إحساس قديم بالخوف من نقاد العلبة. فبلا شعور نحسسها، ثم ابتسم ثم ضحك

بصوت عال فيا يتحسس جيوبه الممتلئة بالعلب الاحتياطي . ولما خرج واستدار إلى اليمين من جديد وشرع يهبط السقالة دهمته الشمس وجهاً لوجه ، فذكرته الأنفار بلحظة ابتداء الشقاء اليومى المهلك . وكان يخفض بصره إلى الدرج المتأرجح مثلما كان يفعل حين يعبر الترعة من فوق ماسورة رفيعة . وكان أيضاً يعتقد أن الشمس قد سقطت فى قاع بئر عميقة شقاقة . .

٢

كانت عربة الأتوبيس السياحى التى جهزها « الإيجنت » لهم تقف خارج الميناء فى انتظارهم . وكان « السكند أوفسر » هو المسئول عن النفقات وعن الرحلة بوجه عام . وحينما صعد إلى العربة وجلس تذكر « الفلاح » كلاماً قاله مندوب « ميرتيراس » يفيد أنهم — المسئولين عن التسفير — سوف يولون « الفلاح » وزملاءه عناية خاصة ، وسيحجزون لهم فى أهم فندق سياحى فى مدينة « جيفرين » حجزاً يتضمن وجبات الطعام . هذا ما نمى إلى علم المندوب وما صدقه « الفلاح » فتفكر أن يسأل « السكند أوفسر » عن صحة هذه المعلومات ، ولكنه خشى أن تعلو الأصوات حول هذا الأمر فتثير تذمراً بين بقية أفراد الطاقم بسبب التخصيص فى المعاملة . .

٣

انسابت العربة داخل أحشاء المدينة المحدقة التى بدت للفلاح كأنها تمثال مجسد للصباح الفضى الجميل . وفيما لا يزيد على دقائق معدودة كانت العربة قد انسلخت

من المدينة نهائياً ، وصار الفراغ يتكور فى حزم من الأشجار الكثيفة تنبت وسطها قمم أبراج أو قلاع أو أسقف بيوت حمراء داكنة : وكانت هذه التكورات تتدحرج فوق بسطة الأرض : فتارة تصير فى مواجهة العربة تماماً ، وثانية على الجانبين ، وثالثة تندفع إلى بعيد مثل كرة البلياردو . .

ونظر « الفلاح » إلى الوراء يبحث عن مدينته فوجد من الصعب تمييزها بين كل هذه التكورات الخضراء الداكنة . كما أنه من الصعب أن يُعرف : هل كانت هذه الأشجار المتراصة على الجانبين هى التى تصنع هذه التكورات خلف العربة وحولها أو أنها مجرد دليل إليها ؟

لم ينقطع سير الأشجار قط فكأنها حرس على الطريق ، والأرض الألمانية تمتد خلال الأشجار فى مساحات شاسعة ، وتبدو صفراء مفروشة ببساط مصنوع من جذوع أعواد القمح ، ولا يقل الريف الألمانى سحراً عن الريف الذى نشأ فيه « الفلاح » ، فمن حين إلى حين تظهر بعض البيوت المتناثرة وأمامها بعض الجرارات أو ماكينات المياه . هى فى عرفهم أكواخ وفى عرف « الفلاح » سرايات فاخرة . أما الأكواخ التى يعرفها « الفلاح » فمبنية بالطين الأسود وفوقها أحمال القش والحطب وشبابيكها مجرد فتحة كفتحة العين ، وأما هذه التى يراها الآن فهى فى غاية الاتساق مبنية بالطوب الأحمر وسقفها جملون ، وشبابيكها شيش وزجاج لامع خلفه ستائر بيضاء مضفرة . هو بعينه ذلك البيت الذى رآه وهو صغير فى كتاب اللغة الإنجليزية الذى تبدأ كلماته بـ « ديوس بن — فى أى إذ » وكانت تحته كلمة ترجمتها العربية : الكوخ . أيامها كان يعتقد أن وزارة المعارف العمومية كاذبة كل الكذب ، لأن « الفلاح » لم ير كوخاً بهذا المنظر أما الآن فهو لأول مرة يصدقها ويكذب الواقع الذى عاشه طول عمره السابق . . .

وكانت الحواجات اللائى هن فلاحات هذه المناطق يخرجن فجأة من هذه

الأكواخ بشعرهن الأحمر المنساب وفساتينهن القصيرة المخزقة . فيخيل للفلاح أنهن سياح غرباء ، وأنه هو نفسه صاحب هذا المكان . ففي طفولته في بلاده كان جراد الحيل يتقله مع الأنفار عبر كثير من العزب المتشابهة التي تتكون من سراية وسط حديقة وحولها أو أمامها مجموعة من الأكواخ الطينية ومن هذه السرايات كانت تخرج فتيات مثل هذه حمراء الشعر مشدقة الجسد ممزقة الثياب . وبرغم يقينه أنها صاحبة هذه السراية بل هذه العزبة بمن عليها وما عليها فإنه كان يظل مقتنعاً بينه وبين نفسه أنه هو صاحب هذا المكان ، إذ هو الذي يعرف كل بقعة فيه وتقوم صداقة وثيقة بينه وبين أشجار بعينها وسواق بعينها وأحواض بعينها .

ابتسم الفلاح لهذه الخواطر وسحب بصره إلى داخل العربة كانت مجموعة الضباط المهندسين — ومعظمهم تحت الحرين — تملأ المكان بضحكات وقفشات مصرية جعلت الأرض نفسها تبدو كأنها مصرية خالصة بل إن « الفلاح » للحظات طويلة كان يفقد إحساسه بأنه فوق أرض أجنبية .

٤

بدأت بعض البيوت المدنية تظهر على الجانبين . شيئاً فشيئاً تكون حول العربة شارعاً ممتدا عريضاً . وكان كل شيء في عالم الشارع يثبت للفلاح أن العربة الآن تخترق مدينة « بنها » في طريقها إلى القاهرة . وكالعادة جاءه إحساس بالرغبة في واحد شاى إذا ما فكر السائق في الاستراحة في بنها . لكن الشارع بدأ يضيق ويضيق وتختفى ظلال « بنها » من المدينة اختفاء تاما ، لتظهر على الحقيقة مدينة جديدة متفردة يجزم « الفلاح » أنه لم يرها من قبل ، مدينة ذات طابع شديد الخصوصية

[illegible] لم تبن مجموعة من عباد الله المتفاوتين في الدرجات والطبقات ، إنما هي تقنعك [illegible] نظرة أنها ملك لعائلة كبيرة واحدة تتنافس أبناؤها في تجميل بيوتها وتنظيفها ، [illegible] من أبنية شامخة ليس في ارتفاعها ، بل في دقتها ودقة فنها المعمارى وفن تخطيط [illegible]

فالمدينة — كما علم « الفلاح » اسمها « جيفرين » وكان قد اجتذبه اسمها بعد أن [illegible] اجتذبه منظرها في أثناء مرور السفينة عليها وهي تدخل ميناء « ويزمار » حيث كشف [illegible] المنظار المكبر عن شاطئ مصيف تتناثر عليه الأجساد العارية بالمايوهات والشماسى المزركشة ، تبدو من خلال عدسة المنظار كمهرجان أخرس . فلما دخلها « الفلاح » [illegible] أنها على شاطئ البحر من ناحية وعلى شاطئ « نهر » من ناحية أخرى . قيل له : إنها مجرد ترعة صناعية يرتع فيها البط والإوز . ولقد خدع « الفلاح » مرة أخرى وظن أنه [illegible] في مدينة المنصورة ، حيث يتشابه هذا الشارع — الذي يبدو في نهايته سور الكورنيش والشارع الذي فيه مسرح المنصورة ، لكن ميدان السكة الحديدية ومحطتها المزودة بأجهزة ميكانيكية تبيع ورق البريد والسجائر دون أن يجلس بجوارها أحد ، وتريك معالم المدينة وطرق مواصلاتها من خلال قطار كهربى صغير يمشى فوق قضبان داخل ماكيت مجسد لكل أحياء المدينة بكل معالمها . وكل ذلك أكد للفلاح أن « أوروبا » تصفعه على أم رأسه قائلة له : انتبه واعرف أين أنت . . !

على أن أم رأس « الفلاح » لم تحتمل الصفع وهو يدخل باب الفندق . . ليس لأنه صار مثل علية القوم من السياح الذين يراهم في بلاده يعتلون سلم الشيراتون والهيلتون يحفظون في الشوارع عن سعة ، وإنما لأنه ما كاد يستقر على الدرجة الأخيرة من السلم حتى انفتح باب الفندق من تلقاء نفسه قبل أن يلمسه « الفلاح » .

في البداية خيل إليه أن ريحاً خفية دفعته ، فانفتحت درفتيه على وسعها ، لكنه ما إن جاوز عتبة الباب داخلاً حتى لمح درفتيه تتقابلان بهدوء ثم تتلاقيان فطاب للفلاح أن

٨

بعيد الكرة ، فاستدار عائداً ليخرج من الباب . فما إن اقترب منه حتى رآه يبدأ فى الانفراج شيئاً فشيئاً ثم ينفرج تماماً فيخرج « الفلاح » عندئذ وقف مذهولاً وقد تدلى فكه الأسفل فيما ينظر حواليه وفى السقف بحثاً عن يد مجهولة تتولى فتح الباب وإغلاقه لعله رجل يجلس فى كابينة علوية مثل حارس المزلقان المتطور . لكن « الفلاح » لم ير أحداً . بل رأى أنه يجب أن يموه على العين المتخفية التى لاشك تسخر منه . فهبط الدرج كله إلى الشارع كأنه نسى شيئاً . ثم مضى فى ميدان السكة الحديدية برهة قصيرة ثم استدار عائداً وراح يصعد الدرج من جديد فى تحفز وشعور بالضآلة . . غير أن شعوره بالضآلة سرعان ما اختفى أمام شعور جارف ومزيف بالشموخ ، إذ يطأ الدرجة الأخيرة فينفرج أمامه الباب كأنه ينحنى له فى تبجيل وإكبار فلما نفذ « الفلاح » منه طرأ على ذهنه خاطر صبيانى واجب النفاذ كالعادة فنفذه بأن أرتد فى الحال الخطوة التى اجتازها انفراجة الباب . فإذا بالباب يرتد هو الآخر فى الحال ويتوقف عن الانغلاق وفى انضباط دون أن تهتز درفة أو تعمل عقلها بعقل « الفلاح » فتدهمه فى جبهته لتفضحها وتريح الكون من تخلفه ، الأمر الذى شجع « الفلاح » وجعله يستمرئ اللعبة فيكررها عدة مرات وقد حاول فهم نظرية هذا الباب واقترح لنفسه أن تكون نظريته العلمية قائمة على الظل والمغناطيس مثلاً . فلما سأل بعض مرافقيه شرحوا له أن الأمر قريب من هذا ، وكان يود لو يكتب ما سمعه ليكون دقيقاً ، ولكنه كان قد نبذ الورقة والقلم بعد أن رآهما مظهراً متبذلاً ، لكنه بعد ذلك ندم ندماً شديداً على عدم الاهتمام بتسجيل المعلومات حتى لو كان ممن يهتمون بالمشاعر فحسب ، ثم إن تسجيل المعلومات لا يجب بالضرورة أن يتم فى الحال .

٥

صالة الفندق مربعة وكبيرة ومملوءة بالمقاعد الجلدية الوثيرة . وضع « الفلاح » ساقاً على ساق وطلب شاياً فجاءه حشد من الأكواب والأوانى لم يعرف لزومها فتحاشاها وقنع بالسكر المذاب فى الماء الملون بوهم الشاى . ولقد تضايق « الفلاح » جداً حينما علم أن هذا الشاى ليس ضمن الحساب ، وتضايق أكثر حين علم أن مصروف اليد المقرر له عشرون ماركاً فقط على أن يكون مسئولاً عن طعامه طول النهار . . هكذا قرر « الإيخت » وحاسب . أما الذين تخلفوا للمبيت فى سفينة (المندرة) فكل واحد يتقاضى أربعين ماركاً لزوم الأكل والمبيت . . .

وكان « الفلاح » يأمل أربعين ماركاً يضيفها إلى ما تبقى معه لكى يشترى شيئاً ما . ثم إنه أحس بشىء من القهر ، ثم بشىء من الاحتقار لنفسه ، ثم بالاكتئاب . على أنه راح يرقب « السكند أوفسر » وهو يرتب قائمة المبيت فى غرف الفندق ويحاول توفيق كل اثنين فى غرفة . وقيل للفلاح : إن رفيقه فى هذه الليلة فى غرفته هو « الراديو أوفسر » . فلم يفرح ولم يحزن . ثم إنه قال لنفسه : إن « الراديو أوفسر » شخص لطيف ومسل ، ثم تذكر أن « الراديو أوفسر » قد لا يعود للمبيت لأنه فى الصباح سافر إلى مدينة « روستوك » لمقابلة فتاة كانت معه بالأمس ومن المحتمل أن يسكر الليلة على حسابها .

ثم إنه خرج للخلاء بصحبة زميليه و « السكند أوفسر » وشرع زميله يلتقط الصور فى الشوارع و « الفلاح » يتنقل من وضع إلى وضع ، وقد لفت نظره سيدات يرتدين مرايل زرقاء قاتمة ، وقبعات البوليس ، وعلى أكتافهن شرائط وشبابير ، ونجوم نحاسية لامعة وقيل له : إنهن ضباط شرطة ، فاندهش أن تعمل السيدة فى

الشرطة . وصار مشوقاً لرؤيتها فى موقف شرطوى . أن يراها مثلاً وقد ضبطت لصاً وأمسكته من خناقه . وأشبعته تلطيشاً وتشليتاً على حين تبرم فى شواربها وتقتاده إلى القسم ! أو يراها تتدخل لفض مشاجرة . .

على أن السيدات الشرطيات كن يسرن فى رفة كأنهن طالبات ذاهبات إلى المدرسة الثانوية : طلب « الفلاح » أن يظهر مع إحداهن فى صورة . ولكن بشرط ألا تشى هذه الصورة بأن الشرطة تقتاده إلى القسم . فرحب زميله بالفكرة . ونشط « السكند أوفسر » وتحفز للقيام بهذه المهمة . فاستوقف إحداهن . وصار يتعثر فى الحديث حتى تمكن بالإشارة من إفهامها غرضه . فابتسمت وأحس « الفلاح » أنها حائرة وكان على مقربة منهم اثنان من ضباط البوليس الرجال يركبان « موتوسيكلاً » واقفاً . ويبدو أنهما فهما المقصود . فأشارا للشرطية بالرفض . فاعتذرت بهزة من رأسها وانصرفت . فكرروا التجربة مع شرطية أخرى . ولكنها هزت كتفيها دون كلام وواصلت سيرها . فلما اخترقوا الشارع ومشوا فوق رصيف كورنيش البحيرة يلتقطون الصور وجدوا شرطية يبدو أنها برتبة كبيرة كانت تجلس فوق دكة خشبية . ومندمجة فى الكتابة فى أوراق تسندها على ركبتها . وقال « الفلاح » : إن هذه الضابطة لابد ستوافق . ثم اقترب منها وهم يقتربون معه إلى أن وقف بجوارها .

رفعت رأسها عن الأوراق ناظرة إليه فى ابتسامة . تأمل « الفلاح » وجهها وقدر أن عمرها يقترب من الأربعين ، لم تكن جميلة ، لكنها أيضاً لم تكن دميمة . .

تقدم منها « السكند أوفسر » وأفهمها بالإنجليزية أن « الفلاح » يريد أن يظهر معها فى صورة فهزت رأسها بالموافقة وقد تملكتها ضحكة هستيرية .

حينئذ انبط « الفلاح » بجوارها والتصق بها وظل يلتصق كأنه يريد أن يسرق شيئاً من تحت إبطها ، وكانت هى لا تزال تضحك وتضحك فيما تنظر إليه نظرات فيها قليل من الود وقليل من الاستهجان ، وكثير من المزاح ، مما شجع الفلاح .

ووضع ذراعه على كتفيها وقرب رأسه من رأسها وراح ينظر إلى الكاميرا . وكان يريد أن يحظى بالانفراد بها فى الصورة ، ولكن زملاءه ارتصوا بجوارهما وخلفهما ، وبرغم ذلك كان « الفلاح » يشعر بسعادة فائقة ربما لإحساسه أنه قد عقد أواصر الود والصداقة مع البوليس الألمانى فى أمنع حصونه ! . .

مع تكة صوت الكاميرا التى تنبئ بتسجيل الصورة انخسف وجه « الفلاح » ، ذلك أن « الذى يرى » انتصب واقفاً أمامه ناظراً إليه فى سخرية وكان « الفلاح » يعرف أنه سلك سلوكاً صبيانيا ما كان يصح أن يسلكه . احتج « حامل القلم » أيضاً أن هذا السلوك ليس فى مصلحته على أن « الفلاح » تجاهلها وأسلم نفسه من جديد للوضع فى إطار صورة ثانية ثم ثالثة .

٦

ثم إنهم ظلوا يمشون فى الشوارع بلا هدف محدد . وأغلب الظن أنهم كانوا يبحثون عن مطعم يتناولون فيه الغداء وقد حودوا تحويدات كثيرة . وكل تحويدة تؤدى بهم إلى مفاجأة معمارية جديدة تستحق الوقوف أمامها طويلاً . لكن « الفلاح » لا يفهم فى المعمار إنما ينبهر فحسب بمرأى بيوت ذات أشكال تبدو بسيطة للغاية ، فإذا اقترب منها وحاول فهم تكوينها وجدها مركبة ومعقدة ، فينصرف عنها إلى غيرها . .

وأخيراً وجدوا أنفسهم فى ميدان كبير تحيط به البيوت من جميع الجهات . وبه عشرات من الأكشاك الأنيقة المزركشة تقف أمامها وحولها مجموعات من الناس بأيديهم أطباق الطعام وأكواب البيرة أو الكونياك . اقترح « الفلاح » أن ينضموا إلى إحدى هذه المجموعات الآكلة ، ليس حبا فى الطعام المقدم لها ، بل حبا فى

المهرجان الذى تكونه والذى يُذكّر «الفلاح» بالعيد فى قريتهم ، حيث يجتمع الناس هكذا ، وتبدو أشكالهم من بعيد ملونة . لذلك خيل للفلاح أنهم جميعاً يرتدون ثيابهم الجديدة ، غير أن «السكيد أوفسر» كان مترددا فى الاقتراب من هذه الأكشاك . ولما قال للفلاح : إن اللحوم التى تبيعها هذه الأكشاك معظمها لحم خنزير – اقشعر بدنه وابتعد عنها . .

بدأت أذهانهم تنصرف عن الطعام ، وتشغل بمعروضات «الفترين» . وقد لاحظ «الفلاح» أنهم جميعاً يهتمون بمعارض الأحذية ، وتنفرس عيونهم فى أنواعها وموديلاتها واحدة فواحدة ، وتندهش من هبوط أسعارها وارتفاع مستوى جودتها ، فهى أحذية كما رأوها وقلبوها صنعتها المصانع ليمشى بها لا سوها فوق الثلج . وكان طاقم السفينة كله بلا استثناء قد هجم على هذه الأحذية فى (ويزمار) هجمة تترية شرسة حيث اشترى كل واحد منهم عدداً من الأزواج له ولزوجته وأولاده تكفيهم لسنوات طويلة قادمة . أما معروضات الملابس فإن عنصر الأناقة فيها لم يكن لامعاً ، لكنها بوجه عام مصنوعة من أقمشة أصيلة ، تفتعك بأصالتها على بعد كبير . وفجأة استيقظ الأمل فى نفس «الفلاح» من جديد فى أن يعود بشىء لزوجته من هذه المعروضات . .

ثم اجتذبته المعروضات الموسيقية ، ومرة أخرى استيقظ فى نفسه الأمل فى أن يعود بالتين موسيقيين لابنه وابنته . وكانت الفترينة حافلة بما يقيم عشر فرق موسيقية على الأقل بكل أنواع الآلات ، ولكن لم يسترع نظره سوى الجيتار والمندولين : الأول كبير الحجم وأنيق ولا يزيد سعره على ثمانين ماركا ؛ أى ما يوازى ثمانية جنيهات مصرية بسعر السجائر كما يقول البحرية . وصحيح أن المبلغ ضئيل جداً فى مقابل أن تكون هذه الآلة فى البيت حتى لو لم يعزف عليها أحد . لكن «الفلاح»

اضطر إلى تأجيل هذه الرفاهية المفرطة لبعض الوقت ، ثم مضى خلف زملائه لمتابعة الشوارع من جديد . .

٧

وقال زميل «الفلاح» : إنه يجب زيارة قصر فى هذه المدينة رآه فى زيارة سابقة له مع مدير الميناء فظلوا يمشون فى شارع طويل حتى اقتربوا من ترعة صغيرة . عليها قنطرة صغيرة فعبروها فرأوا البحر يطل من ورائها ورأوا القصر عملاقاً متربعاً فوق القمة ، ممتداً ساقيه على أكتاف الموج البعيد . .

اقتربوا منه ، فإذا به يقف شامخاً عظيماً مهيباً . يبدو أنه بعد قليل سوف يلد من جوف ثلاث مدن أو أربع مدن كاملة ! عشرات الشرفات تطل على كل اتجاه ، كل شرفة مهما صغر حجمها لها شخصية مستقلة . وتعتبر وحدة معمارية قائمة بذاتها كأنما خصص فى صنعها مهندسون وبناءون انفردوا بفنها وحدها . وكلما اقترب «الفلاح» من ضلع من أضلاع القصر وتكشفت له وحداته الكثيرة وما فيها من شغل دقيق – خيل إليه أن هذا هو القصر فحسب ، فإذا انحرف انحرافة بسيطة ، وجد ضلعاً آخر يقترب كأنما القصر هو الذى يدور فوق طبلية دوارة ، وإذا بالضلع الجديد حافل بالتشكيلات المعمارية التى لا يعرف «الفلاح» كيف يشرحها على حقيقتها ؟

لكنه ذهل من أن يكون هذا القصر مسكناً لشخص أيا كانت صفته ، فليس هذا بقصر فقط ، إنه عالم كامل على قدر ما فيه من تنوع فى التشكيل المعمارى ، وتفرد فى جزئياته تجمعه وحدة ما ، وحدة لا تستطيع الكلمات تحديدها بشكل حاسم ، لأنها كالوحدة التى نراها فى ملامح شعب من الشعوب ، بحيث إن رأيت وجهاً إنسانيا قلت إنه – مثلاً – من الصين ، فوجه الإنسان الصينى واحد وإن تنوعت

وتفردت الجزئيات المكونة لكل وجه على حدة .

ولحظات « الذى يرى » دبيب يريد أن يطغى على شخصية « الفلاح » ومن خلفه « حامل القلم » يريد أن يسجل ، ولكن دهشة « الفلاح » وعلو صوتها لابد أن « تشوشر » عليهما .

قبل للفلاح : إن هذا القصر كان مملوكاً لكارديبال كبير ، ولم ينتزعه منه سوى هتلر بعد معركة دامية هم أحاله إلى مرفق من مرافق الدولة ! فأخذت صورة الكارديبال تتمثل للفلاح فى كل خطوة يخطوها نحو القصر . وعاوده ذلك الشعور البغيض الذى يعاوده دائماً كلما شاهد واحداً من هذه القصور ، الشعور بأنه ليس أكثر من حُرّ لا يستحق مثل هذه الحياة !

قال « الذى يرى » للفلاح :

هدئ من روعك فأنت لم تفق بعد من ذهولك الذى اعتراك يوم شاهدت لأول مرة قصر المنتزه وقصر القبة وقصر عابدين . وقال « حامل القلم » :

– ولا تنس ذهولك مما قرأ عن القصر الشرقى الكبير الذى كان مقراً للخلافة الفاطمية فى القاهرة . .

ورد « الذى يرى » :

– إنه فلاح يقصر رقبتنا فى كل مكان . . !

وقال « الفلاح » :

– إن مظاهر البذخ والترف التى أراها صارخة فى كل هذه القصور تهبط بى إلى ما دون مرتبة الإنسانية . وتجعلنى أنظر إلى أى مدى يؤله الإنسان نفسه . فالإنسان الذى يختص وحده بهذا الترف ، ويحيا هذه الحياة – لاشك أفضل من غيره وأرقى عنصراً . هذا ما تريد أن تقوله هذه القصور للغلابة أمثالنا . .

قال « الذى يرى » . .

– إن كل الغلابة الذين هم مثلك ليسوا بالضرورة قصيرى النظر أو ضيق الأفق مثلك !

رد « حامل القلم » :

– إنه دائماً يشعر بالانسحاق . . ولابد أن يبدد هذا الشعور . .

قال « الفلاح » محتجاً :

– إن كل هذه المظاهر تبدد كل مشاعرى وتسخطها لأن المشاعر الإنسانية مهما تكن سيئة فهى إن نشأت فى بيئة فيها مثل هذه القصور فإن البيئة تصادرها . ولعلكما تظنان بأننى لا أطوى بين جوانحى حقداً من أى نوع ، إنما أطويها على بركان من الغضب النبيل تجاه البذخ ، لأنه لابد أن يخلف بجواره حرماناً لا تخطئه العين .

قال « الذى يرى » :

– لكن إلى من يعود الشرف الحقيقى : أإلى صاحب القصر أم إلى اليد العبقرية التى أقامت البناء شامخاً يتحدى الزمن ؟

رد الفلاح . بسرعة مقاطعاً :

– وتتحداك أيضاً وبعمى أصبح يتحدى حرمانى !

قال « حامل القلم » ساخراً :

– أتظن أنه قد وضعك فى الحساب ؟

قال « الذى يرى » :

– كل ميزة صاحب القصر أنه امتلك المال والجاه ، وانفتحت السبل والمسالك أمام خياله ، فانطلق بلا حدود !

قاطعه « الفلاح » :

لكن انطلاقه كان فى إطار المتعة وإرضاء الملذات على حساب الآخرين ، ولابد أن يكون هناك من زرع له الأرض ، وقدم له محصولها مقابل العيش

فحسب ، ولابد أن يكون هناك من حمل الأحجار ، وتسلق بها الأعالى والأسافل ، ولابد أن هناك من وقع ميتاً فى أثناء البناء ، كل ذلك من أجل أن يستمتع هذا الكاردينال .

قال « الذى يرى » :

— وهذا لا يبهرنا ، إنه لابد أن يثير فينا الألم بالطبع ، إنما يبهرنا الرجال الذين أعملوا عقولهم وأيديهم ، فشقوا هذه الأرض ، واستنبتوا فيها هذا الصرح حيث استطاعت عبقرية اليد البناءة أن تحوله من صرح مادى إلى صرح معنوى يشهد بالقدرة الإنسانية على الفعل الإنسانى العظيم ، فهذا الذى تراه أمامك ليس مجرد قصر يحقق قدراً كبيراً من الراحة والرفاهية للجسد ، ولكنه أيضاً حضارة كاملة تم ضبط الصمت الفاجئ ذلك أن « الفلاح » كان قد دخل الحديقة وسكتت بداخله الأصوات ! للحديقة نسق يميزها عن الغابة إذ كل شىء فيها مزروع بقدر وعلى حسب مقتضيات معينة ، إنها تشبه الفن : انتقاء عناصر لها وجود « طبيعى » فى الكون ، ثم تجميعها فى إطار معين تتحدد معانيه وأبعاده ، فالطرق الممهدة داخلها حافلة بالتماثيل الثبتة ، تماثيل من النحاس والبرونز بالأحجام الطبيعية لنساء عاريات فى أوضاع متعددة ومن زوايا مختلفة تكشف لك بجدارة واقتدار عن مدى ما فى الجسم البشرى من جمال حقيقى . .

قادتهم الطريق الممهدة إلى ما يشبه القنطرة تطل منها فترى فى السفح صالة ألحقت بها حجرات صغيرة ، كالبناوير مما يؤكد أنها ساحة للملاعب أو العروض المسرحية أو السينمائية أو الألعاب الترفيهية ، وإذا أسندت ظهرك إلى الدارزين ونظرت إلى القصر تيقنت أن أى جالس فى أى شرفة من شرفاته يستطيع بوضوح شديد متابعة كل ما يمكن أن يحدث فى هذه القاعة الفسيحة . .

ثم إن الطريق الممهدة أغرتهم بمواصلة السير ، فمضوا يهبطون فى منحدرات

ويشاهدون بترع وقنوات وتماثيل ثمينة وناس يتنزهون دون أن يفكر واحد منهم فى تشويه تمثال أو الكتابة عليه بالطباشير ودون أن ينزوى أحدهم خلفه ليفعل مثلما تفعل الناس . وليس هناك حارس يمنع الناس من شىء !

٨

تسلم « الفلاح » غرفته بفندق « جيفرين » . تبدأ بملحق صغير كمدخل به دولاب ، وفى مواجهته باب الحمام ودورة المياه . أما الحجرة نفسها فهى مربعة الشكل بها سريران وبينهما ترابيزة واطئة عليها دفتر للخطابات وعدد من الظروف مكتوباً عليها اسم الفندق وعنوانه ، والسرير منحدر من كومدينو بعرض السرير فوقه جهاز راديو كبير . .

ما إن جلس « الفلاح » على السرير حتى هبط به إلى قاع وثير ، ثم ارتفع به فى الحال فانبسط « الفلاح » من هذه « التشكة » فكررها عدة مرات ثم راح يتحسس اللحاف ويبحث بأصابعه عن فصوص القطن الداخلة فى تنجيده ، فلم يجد سوى شىء شديد النعومة عرف أنه ما يسمونه بريش النعام . ولما رأى دفتر الخطابات أمامه مفتوحاً وبجواره الظروف رأى أن يكتب خطاباً ، ولكن يكتبه لمن ؟

أخرج قلمه وفتحه ، وأشعل سيجارة وشرع يفكر : هل يكتب لزوجته ، أو لبعض أصدقائه ؟ لقد سبق أن كتب لزوجته من كل بلدة نزل فيها فالأفضل الآن أن يكتب لأحد أصدقائه يصف له هذا الفندق وهذا الفرش الوثير الذى قرأ عنه فى ألف ليلة وليلة ، ولن يقدر له أن يتلذذ به إلا بالقدر الذى يشعره أن فى هذه الدنيا من يتمتعون بالنوم فوق مثل هذا الفراش . .

كتب فى أول السطر : أخى العزيز . ثم توقف القلم . . أى أخ من أصدقائه

يكتب له ؟ فليكن أقربهم إلى نفسه . فالفلاح يريد أن يكتب والسلام وعاوده ذلك الحلم الصبيانى القديم الذى كان يعاوده فى أسفاره داخل بلاده يبحث عن عمل كريم . وكان يبيت فى اللوكاندات ويضع حقيبة ملابسه تحت رأسه أو بجواره على السرير . ويصحو فى الصباح الباكر ليشرب الشاى « الميزا » على المقهى على حين يفكر فى أى الأبواب يطرقها ؟ لكنه بدلاً من التفكير فى أبواب يطرقها كان يفكر فى أنه قد صار مراسلاً لإحدى الصحف ، وأنه مكلف الآن بالكتابة إليها من هذه البلدة أو تلك . وبالفعل يفرد أوراقه ويظل يكتب ويكتب . يصف اللوكاندة وأصحابها ، وزبائنها والمقهى وشوارع المدينة ، وأيضاً يصف الأبواب التى عليه أن يطرقها ولم يطرقها . أما الآن وحيث صار بالفعل من أهل القلم وصارت له بالفعل صحيفة تحتفى بما يكتبه ، وحيث هو الآن فى بلد من بلاد الفرنجة — فإنه عاجز عن كتابة أى شىء . بل إنه يحس الآن أنه برغم حنينه إلى الكتابة — لا علاقة له بالكتابة . كأنه لم يمسك بالقلم فى يوم ما ، وكأنه لم يقرأ ! إن ذاكرته قاحلة كفروة رأسه تماماً . ولكن « حامل القلم » أراحه من العناء ، إذ قال له : إن « الذى يرى » قد اعتقله وأوصاه بعدم التحرك إلا بعد أن تتم له عملية الاستيعاب الكامل للأشياء . وكانت سحابة الدخان ملولاً كسولاً تزحف إلى ستارة مخملية مشقوقة من المنتصف ومزاحة من أسفل قليلاً . وثمة رأس أصلع . يبدو فى زجاج النافذة لرجل يحمل القلم ويسبح فى الدخان !

٩

حين استوى « الفلاح » ممدداً على السرير كانت الصورة قد اختفت تماماً من زجاج النافذة ، وانطفأت السيجارة فى الطفاية الكريستال ، وانفتح الراديو وبعث

موسيقى هادئة جميلة ، وبعد دقيقة واحدة استسلم « الفلاح » للنوم العميق .

وكان قد نبه على موظفة مختصة بأن تتلفن له فى تمام الساعة الخامسة مساء لإيقاظه ، ولذا فقد تسلل رنين التليفون إلى أذنيه مثل وشوشة منغومة ، فنهض جالساً وقد امتلأ بنشاط غير معهود ، ثم إنه نزل عن السرير واتجه إلى الحمام يريد أن يجربه . كان الحمام ضيقاً . ولكن أرضه اللامعة وحيطانه المضيئة والمرآة فوق الحوض — كل ذلك يعطيه اتساعاً وعمقاً ويضفى على مشاعر « الفلاح » العارى تحت الدش الساخن أخيلة جنسية ذات نكهة كان قد نسيها منذ سنوات المراهقة .

وحين شرع فى ارتداء ملابسه سمع طرقاً على الباب . ففتح الباب فرأى « الراديو أوفسر » يدخل ومعه فتاة ألمانية جمهورية القوام ذات شعر طويل أحمر منطرح على الجانبين كالحورية . وكان على « الفلاح » أن يتولى إغلاق الباب ثانية ، فما إن فعل ذلك حتى شعر بساقيه تتخاذلان وبدنه يقشعر من خوف لذيذ الطعم جداً ، غير أنه بعد أن خطا خطوتين إلى الداخل ارتد ثانية وفتح القفل الداخلى وأحس بصوت فى داخله يؤنبه تأنيباً شديداً ولم يكن هو يعرف بالضبط لماذا التأنيب لكنه كان يعرف أنه محق تماماً . ولقد وقف يكمل ارتداء ثيابه ويختلس النظر إلى الفتاة التى كانت تراقبه هى الأخرى فى الضوء الشاحب المنبعث من لمبة فى الركن فوق السرير ، ثم تهز رأسها وتبتسم محيية كلما أضاف « الراديو أوفسر » كلمة جديدة فى تعريفها بالفلاح . وكان « الفلاح » يريد أن يطردها . من الغرفة فوراً قبل أن يعرف الفندق كله أن فى غرفة الفلاح امرأة . لكنه كان يرى فى وجهها انكساراً مثيراً للإشفاق ، وكانت تدخن سيجارة وتضربها بأصابعها فوق الطفاية . بشكل مستمر ورشيق ، وتشفط النفس فى لذة سريعة وديعة . ثم تنفث الدخان كأنه يضعة من أفكارها الشاردة !

انتحى بالراديو أوفسر جانباً وقال له فى غضب :

– ما هذا الذى فعلته ؟

تكرمش وجهه ، واختفت عيناه كعادته كلما ابتسم وقال :

– فعلت ماذا ؟

أشار بذقنه إلى الفتاة . قال الراديو أوفسر :

– وماذا فى هذا ؟ . إنها صديقتى . وأنت أيضاً تستطيع أن تكون صديقها

فاستدار « الفلاح » نحو الباب . ثم حنى رأسه للفتاة مبتسماً ، وخرج ساحباً الباب خلفه فى عصبية . .

١٠

كان المطعم يمتد بطول الفندق ويطل على الشارع ، والترابيزات ممتدة فى نظام خلاب والمفارش نظيفة خارجة لتوهامن يد المكواه .

اختاروا ترابيزة فى منتصف المطعم تقريباً . جاءتهم حورية أبدع خراط البنات فى خرطها خصيصاً ليدير بها رأس « الفلاح » وينغص عليه عيشته التى حرمت هذا الجمال ! عمرها لا يزيد على ستة عشر ربيعاً . بيضاء الوجه محمرة الخدين متسقة الملامح ترتدى فستاناً أسود . أول شىء تمناه « الفلاح » لدى رؤيتها هو أن تكون زوجته لا أقل من ذلك أبداً . وسيكتفى بها من الحياة كلها فهى لا تقل روعة عن الحياة نفسها ، ويبدو أن وجهه قد كشف ما فى أعماقه ، إذ راح زملاء المائدة ينظرون إليه بخبث ويبتسمون . .

ظلت هى واقفة لبرهة طويلة ، وخلالها لم يكف « الفلاح » عن النظر إليها متعبداً فى قدرة الله وإبداعه العظيم ، ولسان حاله يقول : إن هذا المستوى من الجمال كفيل بردع النفس عن كل دناءة ! إنه جمال لا يصلح للابتذال بأى سلوك ، لا يصلح

إلا لبعث النور فى كل منعطف من النفس الإنسانية . ويبدو أنها يئست من الوقوف ، فتلفتت فى خفر وكبرياء ، ثم مضت إلى ترابيزة أخرى ، فالت برأسها الدقيق نحوها قليلاً ثم هزته ، ثم انصرفت تماماً .

رد « الفلاح » بنعم على كل الأسئلة السخيفة التى تلقاها من زميله ، فالحق أنه لم يكن مستعدا لابتذال هذا الإيقاع الجميل الرائع الذى بدأ ينتظم مشاعره ويشبعها بروح أوربا وبروح الارتحال ، وبفرحة الاكتشاف والرؤية . ولقد عاش « الفلاح » طول عمره مصدوماً فى المرأة ربما لأنه لم يجد على صدرها المكتنف بالدفء متسعاً لأحلامه الوردية المبكرة ، مما أطفأ فى خياله الصورة المثلى للجمال . كان يرى الكثيرات ويعجب بالكثيرات ، ولكن جمالهن مهما عظم لم يكن يهز صموده الراسخ قط . ولم يجد لدى رؤيته لإحداهن أى إحساس بالرغبة فى الامتلاك ، أما هذه التى رآها منذ لحظة فقد فتحت كل العيون فى خياله الأسطورى ، وأحس لأول وهلة أن هذا هو المثل الأعلى للجمال . وبالتحديد ذلك الجمال الذى افتقده « الفلاح » طول عمره . . . .

ثم أقبلت فتاة أخرى . ما إن رآها « الفلاح » تتهادى بثوبها الأسود كعروس من القشدة حتى ارتبع عليه ولم يعد يعرف : هل يسحب حكمه بالنسبة للفتاة السابقة أو يظل على ولائه لها ؟ إن هذه التى يراها الآن تسطع فى خياله بضوء جديد ! لها عبق البعد نكهة وحلاوية . وتذكر « الفلاح » قولة صديقه المصرى مندوب « ميرتيرانس » حين أخبره فى عرض الكلام أن بنات هذه المدينة معتزات بأنفسهن جداً . فلقد كانت هذه المدينة فيما مضى ولاية قائمة بذاتها كدويلة صغيرة تضم بين جوانحها فصيلة راقية من الجنس الألمانى ، وكانت الفتاة تتحول شيئاً فشيئاً إلى ظل ذى رائحة منعشة ترتفع معه هامة « الفلاح » كلما اقترب . .

وقفت تبتسم ولابد أنها علمت من زميلتها أنهم على هذه الترابيزة يكتفون

بالفرجة فحسب ، وكانوا فى الواقع يريدون دجاجاً مشوياً ، الوجبة الدسمة والمتواجدة بالسعر فى ألمانيا الشرقية . غير أنهم لا يعرفون اسم الدجاج بالألمانية . ولذلك أخذ «السكندأوفسر» يتحدث كثيراً وهى تكتفى بالنظر إلينا فى إستفهام . وعرف «الفلاح» أنها لم تفهم الطلب ، فأشار إليها أن إليه ، ثم تناول قلماً وورقة . وصار يرسم لها دجاجة ، ولكن الرسم تمخض عن شكل غريب لا يفهم منه إن كان دجاجة أو عنزة . وصار يضيف إلى الشكل المرسوم بعض التفاصيل التى توضحه ، فرسم بيضة تسقط من خلف الشكل المرسوم . وصار الزملاء يضحكون ويضيفون بعض الكلمات حتى هزت الفتاة رأسها ومضت ، ولكن إبتسامتها العبقرية قالت : إننا فهمت غرضنا !

وبعد قليل عادت الفتاة الأولى تحمل الأطباق المزدانة بأفخاذ الدجاج وصدورها المورّدة ، وأطباق السلاطة . وراحت الأيدى والملاعق تعزف على الأطباق لحن التذوق الأبدى !

١١

جاءت الحلوى وبعدها البيبسى كولا وبدأ «الفلاح» يتمعن فى الحلقات المتناثرة حوله . على الترابيزات : ناس لامعون من جنسيات مختلفة ، ولكن معظمهم من الألمان ، وفجأة ظهر قادماً من الصالة شبح راح يتجسد شيئاً فشيئاً فى مشية غير متسقة ، أصلع الرأس لا علاقة ولا إتساق بين الجاكت الذى يرتديه وبين البنطلون ، مما خيل للفلاح أنه موفد من قبل إدارة الفندق للترفيه عن النزلاء فى المطعم . الجاكت ذو خصر محدد ، وصدر يبرز فوقه عُثّان لقديش مهاجرين . وكان الشبح يقترب من ترابيزة «الفلاح» فلما اقترب أكثر تبين الجالسون أنه «الراديوأفسر»

فاندفعوا يضحكون وقال «الفلاح» إنه رأى هذا الجاكت من قبل ، فقال «الراديوأوفسر» إنه جاكت الفتاة التى جاءت معه . .

– وكيف ترتدى سترة فتاة يا رجل ؟ . .

قال إنه يريد أن يهبط إلى البدروم ؟ .

– ولماذا الهبوط إلى البدروم ؟ . .

قال : إن الحفل الساهر يقيمه الفندق فى الدور تحت الأرض . وهو حفل راقص لا يدخله الرجل إلا ببدلة كاملة . ولما كان «الراديوأوفسر» يريد أن يراقص فتاته فى هذا الحفل فقد تمخض فكره عن حيلة يدخل بها ، فلم يجد أمامه سوى سترة الفتاة يرتديها . . قال هذا ثم راح يضحك فى بلاهة ، ثم إنصرف ، وتركهم يدهشون ويتساءلون : عم دفعه إلى الحفل اليوم ؟ . .

١٢

نام الفلاح نوماً عميقاً .

لم يوقظه إلا رنين التليفون الرقيق ، وحينما رفع السماعة وجد نفسه يمسكها مثل الناس المهمين الذين يراهم فى الأفلام ، ومثلهم أيضاً قال من أنفه وبلا اهتمام : هاللو . فسمع رطانة ذات وقع لذيذ فهم من نبرته الرقيقة أن صاحبة هذا الصوت تقول : ليقظ . .

وقد حرص «الفلاح» عند خروجه من الفندق أن يكون الأخير لكى يتسنى له أن يداعب الباب داخلا وخارجاً عدة مرات . .

ثم إنه لحق بزملائه إلى محطة القطار . .

والقطار متواضع مثل قطر الأرياف فى بلاد «الفلاح» ، لكنه نظيف ومهيب ،

وحين يجلس الواحد منهم على كرسي تراه يتقدم في وقار وهدوء ، ثم يستأذن الجالس بجواره ، وعلى الرغم من أن القطار كان مزدحماً جداً فإن الأذن لم تكن تسمع سوى صوته يمرق فوق القضبان . فليس هناك لغط ولا ضوضاء ، ولذلك فالأصوات محددة وواضحة مع أنها تدور في همس ، لكنه مثل أصداء صور شعرية عميقة ذابت كثافتها ، فتناثرت إلى واقع أكثر إلهاماً للشعر . فالقطار هو نفس القطار في الأقاليم ، مع أنه ليس هو ، والناس هم نفس الأهل والأصدقاء مع أنهم من جنس آخر ، وخضرة الحقول المترامية على الجانبين تشد لب المشتاق إلى قلب الأم المنتظرة أوبته بفارغ الصبر ، وللأكواخ المتناثرة صمت يقتحم صوت القطار وتنتشر رائحته اللذيذة بين الأرائك !

أشعل « الفلاح » سيجارة ، ولكن عيون من حوله من الألمان نظروا إليه في إستنكار مهذب . فأحس بأنه أتى أمراً إداً . فأطفأ السيجارة في الحال ، ولكن الجالسين إبتسموا إبتسامة تقطر حبا وودا ، ثم قال رجل يجلس بجواره كلاماً لم يفهمه « الفلاح » فتحدث الرجل إلى زوجته الجالسة أمامه تحاور طفلها محاورة تستوعب شقاوته وتستنفدها فردت عليه بهمس رقيق ، ففهم « الفلاح » من نبرة صوتها أنها تعتذر لزوجها عن ذنب « الفلاح » في عدم معرفة اللغة الألمانية ، ذلك أن الألماني يستنكف أن تحدثه بغير لغته .

غير أن الرجل عاد مرة أخرى وتحدث إلى « الفلاح » مشيراً بأصبعه إلى العربة المقابلة ، فبدا على « الفلاح » أنه ارتبك في النظر ما بين باب العربة وأصبع الرجل ووجهه ، فابتسم الرجل وابتسمت السيدة أيضاً .. حتى طفلها « تنازل » عن النظر من الشباك وراح يرقب الموقف متسماً هو الآخر في اهتمام شديد ، وكاد عرق « الفلاح » يتصبب ، ثم إن الرجل مد يده في جيبه وأخرج علبة سجائر ألمانية فتحها

وقدمها للفلاح متسماً فرفع « الفلاح » ذراعيه في الهواء وصار يهزهما تجاه رأسه مبدياً شعوره بالامتنان الشديد . فأومأ الرجل برأسه في تكرار وإصرار فمد « الفلاح » يده ليسحب سيجارة ولكن أصابعه كانت ترتعش ، إذ إن ذهنه في الحال وقع في حيص بيص ، فإذا كان التدخين ممنوعاً في القطار فما بال الرجل يعزم عليه بسيجارة ؟ وسقط على رأس « الفلاح » سحابة ظلماء ، وسحت أذناه : أيقصد الرجل أن يعطيه سيجارة بدلاً من التي أطفأها ؟

كادت يده تتوقف عن سحب السيجارة ، بل كادت تتصرف بحمق ، لولا أن تلقائية السحب كانت أسرع منه ، فلما صارت في يده إذا بالرجل يقدم له علبة الكبريت بيد وبالأخرى يشير بها إلى العلبة المقابلة . فهطل الثلج على رأس « الفلاح » وانتفض واقفاً يضحك ، ويهدر بأصوات غوغائية حين يتجه إلى العربة المقابلة ، فما إن دخلها حتى رأى كل من فيها يدخنون ولم يكن بها مقاعد خالية فوقف بين الواقفين وأشعل سيجارته . وكانت نكهة الدخان لذيذة وطازجة .

اندفعت سحب الدخان كثيفة تتصاعد لترتمي على صدر زجاج النافذة المقابلة ، فكأنها أضافت إلى ندف الثلج المتساقط في الخارج وإلى لون الفضاء الرمادي طبقة لونية جديدة . وصارت عين « الفلاح » تعبر حاجز الدخان إلى حاجز الزجاج إلى حاجز الثلج الرقيق إلى الفضاء إلى السماء المنحنية لتلثم أعواد الخضرة فتتدافع الأعواد كنشوة الأطفال ، إذ تعبر عن انعزالها التام عن كل ما حولها .

من بين الرقائق الشفافة عاد « الذي يرى » حيث لم يحتمل لفح الهواء خارج القطار . وقد شحنه الفضاء النشوان بطاقة منعشة . وقال للفلاح :

— أرأيت ؟ إن الإنسان يتعلم كل شيء من الطبيعة حتى اللغة . لقد علمته الطبيعة أن يتفاهم هو ونفسه والطبيعة !

قال « الفلاح »

– أى نعم ، لقد حدثنى الرجل حديثاً غاية فى الرقة والعذوبة والتحضر . برغم أننا لم نتبادل كلمة واحدة . ولا أفهم شيئاً من قاموسه اللغوى !

قال « الذى يرى » :

– اعلم أيها الفلاح أن الإنسان حريص على أن يفهمه الآخر أياكانت الحواجز والعقبات . . لا تتصور أنك وحدك الذى يشاء من عدم فهم الطرف الآخر الذى لا يفهم لغتك ولا تفهم لغته . . إنه ربما كان أشد استياء منك ، لأنه بالتأكيد أشد منك حرصاً على أن تفهمه ، أن يصل إليك ، هذه غريزة أصيلة فى البشر . ألست تلاحظ أن الإنسان حين يتحدث إلى أحد تراه يُتبع القول بالإشارة حتى لو كان يحدث أباه أو أمه ؟ . . إنها أيضاً غريزة أصيلة فى البشر . .

قال « الفلاح » باقتناع :

– نعم ، نعم ، ولكن لا مفر من أن يتعلم الإنسان لغات الأقوام التى يجب الذهاب إليها .

قاطعه « الذى يرى » :

– أحياناً تكون اللغة حاجزاً بين الإنسان وأخيه . .

قال « الفلاح » بتهاس :

– نعم ، فاللغة حين تعبر عن الحقد والعدوان . تصير حاجزاً .

قال « الذى يرى » :

– واللغة التى بلا مشاعر حقيقية تصبح أصواتاً جوفاء مثيرة للضوضاء ، والخوف الغامض . وهذا أسوأ حاجز .

سأله « الفلاح » :

– ولكن لاشك بأنك تنصحنى بعدم الإهمال بعد اليوم فى تعلم اللغة الإنجليزية ؟

قال « الذى يرى » :

– ليس اللغة فحسب ، فاللغة وحدها لا تكفى ، عليك أن تتعلم المشاعر السامية قبل كل شىء . فهى أعظم لغة فى هذا الوجود . .

هز « الفلاح » رأسه فى إقتناع شديد ، ثم أطفأ السيجارة ، وعبر إلى العربة الأخرى . وعند عبوره لمسته أنامل الثلج والهواء الحميل . .

١٣

وكان « الفلاح » قد نسى أجواء المحطات فى المدن ، فبعد أن صار من سكانها فقد الإحساس بها ، وأصبحت مجرد مبرر لتدافع الزحام الكثيف تبذل خلاله النفس أقصى طاقاتها للخروج منه فحسب .

أما الآن فأى سحر هذا الذى يراه . . ؟ إن ساحة محطة السكة الحديدية فى مدينة (ويزمار) التى هبط إليها « الفلاح » قادماً من مدينة « جيفرين » لا تختلف فى كثير أو قليل .

وأىُّ محطة سكة حديدية فى أى مدينة إقليمية مصرية بإستثناء بعض التفاصيل الدقيقة ، ولكن « الفلاح » مع ذلك مفعم بمشاعر طازجة بسحر المدن القديمة : زحام فى المحطة أى نعم ولكنه الزحام الدافئ العظيم الذى يوسع لك إن رآك متعجلاً . ويشيعك بإبتسامة ويؤمن على فرحتك النزقة ويؤيدها . والحقائب والأكياس والأشياء مهما ثقل وزنها تنوب إلى حفة تنطوح بين الأيدى المتعاونة فى رشاقة .

على أن الفلاح لم يدْرِ بعد علام كانت هذه الفرحة الطاغية تجو المحطة ؟ ألأنها أعادت إليه بكارة الإحساس بالرؤية ؟ . . ربما .

الفصل الرابع عشر

لقاء مع جنية البحر

١

استيقظ «الفلاح» من النوم فى الصباح ، فلاحظ أن مصابيح القمرة المضاءة تلمع فى الأرض ، وتعكس ضوءاً فاتح الزرقة . وحين هبط عن السرير فوجئ ببركة كبيرة ، من الحبر الأزرق القاتم تفترش أرض القمرة !

اندفعت عينه تلقائيا إلى السقف ، وفى السقف بروز يشبه صندوقاً ملتصقاً بالسقف عرف أنه ربما كان جهاز تكييف . وكانت نقط زرقاء عالقة به كأنما تخشى السقوط ! نهض «الفلاح» واقفاً ليرتدى ملابسه بسرعة ، ويخرج لتناول فطوره فى الصالون ويستدعى من ينظر فى هذا الأمر . فرنت على قفاه نقطة كشظية لاهبة من قنبلة تختبئ فى جوف السقف المعقد ! تراجع «الفلاح» منزعجاً يتحسس قفاه وينظر فى أصابعه ، ومع ذلك لم يتحرز . فتقدم نحو الدولاب ليفتحه ، فقطت عليه ثانية كالقضاء المستعجل ، فارتعد برهة قصيرة ثم مد ذراعه عن آخره مائلاً برأسه وفتح

الدولاب بسرعة لكن النقطة الثالثة تشبثت على زجاج النظارة بالضبط ، وانحدرت منه فتلطخت المرئيات كلها بمربعات زرقاء عائمة . وكان لابد أن يستخرج ملابسه ويرتديها على أى وضع . وأغراه السقف بالأمان حتى انتهى من ارتداء ملابسه وربط حذاءه . وعندما نهض واستدار ليخرج من الباب صفعته نقطة أصابت أنفه فى مقتل ! وفى لحظة «الفلاح» وقف لاوياً عنقه ليقدر حجم المصاب ، إذا بالقذائف تنهال فوق ظهره ، ورقبته ، فاندفع يجرى كأنه يبحث عن خندق قريب .

٢

لم يكن أمامه باب مفتوح ، سوى غرفة «الشيف أوفسر» فقال : «حلم لابد أنى أسبح فى حبرى» ! . اندفع داخلاً فوجد «الشيف أوفسر» جالس بجوار مكتبه واضعاً يده على خده رافعاً عينيه إلى السقف فى تأمل أسيف . ابتلع «الفلاح» لسانه ونظر بدوره إلى السقف ، فرأى نفس النقط المتشبثة بالسقف تتهيأ للسقوط . ونظر فى الأرض فرأى بركة صغيرة أزاحها انحدار الأرض ناحية الشباك البعيد !

برهة طويلة مضت لم يخدش صمتها سوى صوت النقط تلقفها الأرض . قال «الفلاح» :

— طبعاً .. «الشيف أوفسر» لابد أن يكون مميزاً حتى فى الملمات ! ابتسم «الشيف أوفسر» فى سخرية مريرة وقال :

— عشان تشبع ! عندك أنت الأخرى بركة .. اشبع إذن فغداً يعرفك الحبر الأزرق القاتم .

قال «الفلاح» مذعوراً :

– كيف ؟ لماذا ؟

قال «التشيف أوفسر» :

– ألست ضد تصليح السفينة ؟ . إن التشيف إلجنير يئس من كسب صوتك فى صف التصليح . . وقد بلغه أنك لن تسكت إذا ما تم التصليح . . وستفضح الأمر فى الجرائد . .

صاح «الفلاح» . . :

– وماذا يعنى هذا ؟ .

قال «التشيف أوفسر» :

– إن «التشيف إلجنير» يقنعك عمليا . وبوسائله الخاصة بضرورة الموافقة على التصليح . .

أشعل «الفلاح» سيجارة وقال فى توتر ملحوظ :

– يعنى هو الآن يعاقبنى على موقفى . .

أومأ «التشيف أوفسر» وقال ضاحكاً :

– إنه لا يعاقبك أنت وحدك . فمن الخير لم تسلم قمرة الربان نفسه . اذهب إليها تجد أوعية منتشرة على أرضها وفوق سريرها . .

صاح «الفلاح» فى غيظ :

– هذا انحطاط خلق . ما معنى أن يفعل التشيف إلجنير هذا ؟ .

رد «التشيف أوفسر» بهدوء . .

– معناه أنه يشتغل لنا فى الأزرق . ألم تسمع من يقول للآخر : حاتشتغل لك فى الأزرق ؟ هذا هو الأزرق الذى يقصدونه . .

وكان لابد للفلاح أن يضحك حتى لو كان موقناً أنه ليس ببعيد أن يغرقه الأزرق . . ذلك أن الأمر برغم زرقته القاتمة مضحك شديد الإضحاك . .

٣

عند الأصيل والشمس الرخوة تلم حرقها من الشوارع الخالية الهادئة تغلق كل المحال أبوابها ماعدا المطاعم ، والكازينوهات . . عندئذ يخلو المشى فى المدينة ويصبح زاداً يتغذى منه الجسد والنفس على السواء . ثم يبدأ الليل فى مصافحة المدينة قادماً من الغرب . فتنشأ فى وجهه المتاريس الضوئية على شاطئ البحر وفى أعماق الطرق البعيدة المسفلتة ، لكنه يظل يزحف ببطء وجبروت متسللاً إلى شوارع المدينة التى تبوح بأسرارها فى غير ترخص أو ابتذال . .

وكانوا عائدين من سهرة قضوها فى البار الذى إستهواهم جوه العائلى . . . كانت شوارع المدينة تقدم نفسها للفلاح خطوة بخطوة كأنها تعرفه بنفسها من جديد . والمحال التى تكونت بينه وبينها علاقة من فرط ما زارها متفرجاً كانت تقترب منه فى هدوء صامت وبلا زحام والفترينات عارية من أى غطاء . معروضاتها المتنوعة تقول للفلاح : هذه هى كل متطلبات حياتك إن كنت تنشد حياة كريمة معطاء ! أجرها فى متناول يدك . أما إن كنت تنشد حياة صاخبة مملوءة بالرفاهية فهذا ما ليس عندنا ، لأن الرفاهية باهظة الأثمان . وتستطيع أن تدلل على ذلك بأن تعبر إلى الغرب فى نفس البلاد وبين نفس الجنس الخرساق . .

وكان «التشيف أوفسر» يتلكأ أمام الفترينات حاذياً «الفلاح» من يده ليشهد جودة غزل ونسج مصر . . إذ إن معروضاته كانت تزين وجه الفترينات من فانلات وسراويل ومناشف وجه من القطن المصرى العظيم تحمله السفن المصرية إلى هذه البلاد . فانبعث من جلد «الفلاح» دفء لذيذ مسح المسافة التى بين الفانلة التى فوق جلده وأختها التى بداخل الفترينة !

لتعد بقية الزملاء، واختفوا تماماً . وبقى كل من « التشيف أوفسر » و « الفلاح » يتسيران على مهلهما ، حتى اجتازا قنطرة فوق ترعة صغيرة تخترق المدينة وتبدو أنها فى سبيلها إلى الانقراض . ويبدو أيضاً أن هناك من يحرص على بقائها بهذا الوضع . .

كان الوقت منتصف الليل تماماً . وجاءت تلك « الحوداية » التى يحبها « الفلاح » لأنها كانت مألوفة له جداً . وهى « حوداية » تؤدى إلى شارع عمومى طويل . تتفرع منه عدة حارات . كان « الفلاح » يجد لذة فى أن يتيه بينها قبل أن يكتشف الحارة المطلوبة التى عليها أن تقوده إلى الميناء مباشرة . وكان كلما دخل واحدة من هذه الحارات تذكر حارات طنطا ودمنهور والمنصورة وأعتابها العريضة . والشبابيك القريبة من الأرض ، والمتقابلة إلى حد يمكّن اليد من مصافحة يد جارها فى الشباك المقابل . العتبات من رخام قديم أملس تنىء — عن عز غابر شهدته هذه البيوت ذات يوم . وكانت البيوت شأنها شأن كل عالم توارته أمجاده — تحاول الاحتفاظ باحترامها وثبات قدرها بين عمائر العصر الحديث . ولعلها لم تفقد شيئاً من أرستقراطيتها القديمة ، لأن بيوت المدينة كلها من عصر واحد ، وكلها تأخذ الشكل الأرستقراطى حتى لو كان بداخلها خواء !

٤

إلى الحارة المعنية دخل « التشيف أوفسر » يتأبط ذراع « الفلاح » ويكمل له رواية عن مغامرة له فى واحدة من هذه الحارات ... وكان الضوء الكهربى الأبيض المصقول يصف القدم فى الشارع العمومى وينعكس ظله الشاحب على مدخل الحارة التى بلافوانيس حتى لتبدو الحارة وأنت مقبل نحوها كأنها مدخل بيت أسطورى . وكان « الفلاح » يحس كأنه ينتهك حرمة السكان كلما اخترق الحارة ومشى خشياً بجوار

ستائر الشبابيك وهو واثق أن دبيب قدميه ينتقل من بيت إلى بيت . وكان أيضاً يحس بأن حسيس كامن فى الأعماق البعيدة مغلفو بمثل هذه الستائر الحريرية الغليظة .

اعترضهما شاب فى حوالى العشرين من عمره نحيف الجسد صغير الرأس ، ثم اقترب من « الفلاح » مادا يده بقرشين مردداً فى رجاء واستجداء « ون سيجارت » : أى سيجارة واحدة . ولما كانت هذه الظاهرة قد تكررت مع « الفلاح » كثيراً فإنه سرعان ما أخرج علبة سجائره وقدمها للشاب . فتناول منها واحدة . ثم إلى « التشيف أوفسر » فعل ذلك أيضاً .

وهنا سمع « الفلاح » هديلاً كهديل الحمام يجىء من يساره ، ويسرى إلى عروقه مباشرة بدفء لذيذ ساحر . فنظر إلى مصدر الهديل ، فرأى جنية البحر متقرفصة على العتبة الرخام وبجوارها وصيفتها ، كانت مثل بلطية كبيرة حمراء وردية تنساب حولها جدائل الشعر الغزير ، وكانت تسند رأسها بذراعين طويلين فيما تميل به فى محاولة لإخفائه — من فرط الكسوف — فى زاوية الباب ، وكان « التشيف أوفسر » لحظتها يمد لها يده بعلبة السجائر وهى راغبة فى السيجارة حقاً ، ولكنها ليست تحب الظهور بمظهر الشحاذة ، فتتكسر ضحكتها الخجول ، وتتفتت فوق رخام العتبة . ولم يكن أمامها من مفر لإبعاد يد « التشيف » الزاحفة نحوها سوى أن تأخذ السيجارة بسرعة . وهذا ما فعلته شاكرة . وبذراعها المبطط السرح غرزت السيجارة بين شفتيها ، ثم راح جبل الشعر الذهبى يميل إلى الأمام زاحفاً نحو « الفلاح » مثل الكنز المسحور . ثم نكت الولاعة فى يد « التشيف » وانعتق اللهب سريعاً ، ثم احتفل ، ثم راح جبل الشعر الذهبى يرتد زاحفاً إلى الوراء من جديد حتى التحم هو والظلام المنبعث من فجوة الباب وصار وهج السيجارة يغامز عين « الفلاح » بومضات قانية تُرق وتنطفئ كالفنار يهدى إلى جزيرة على مرمى نظره . لها عينان واسعتان كرصيف ميناء بعيد بعيد تلمع بينهما زرقة ماء البحر .

خيل للفلاح أنه ظل طول عمره يلهث نحو هذا الشاطئ المسحور، وأنه بعد طول غياب واختفاء بدأ يلمع فى الأفق ويتضح أنه حقيقة واقعة.. غمزه «التشيف» بقرصة فى ذراعه أن انتبه إلى ما يدور بيننا من حوار وفى الواقع لم يكن «الفلاح» مستريحاً لهذا الحوار فقط، بل كان يرفضه، فالأمر مالم يكن «الفلاح» يميل إلى معاملة الفتاة باعتبارها إحدى مومسات هذه المدينة، لذا فقد ترك «التشيف أوفسر» يمارس حواره مع الشاب والفتاتين، وراح يرقب «حامل القلم» الذى شرع يدون فى ذهنه بعض ملحوظات مثيرة عن مومسات أوربا الشرقية، وكيف يرتمين على العتبات من شدة البطالة ينتظرن أى زبون من السابلة»؟ و«الفلاح» ممتعض من هذه النظرة وغير راض عنها، ثم إنه صار يصغى بانتباه «للذى يرى» حيث أمسك بيد «حامل القلم» وقال له فى ضيق:

— تمهل يا صديقى، إن المومس لا تعانى البطالة أبداً فادامت مومساً فلابد أنها تكون فى حالة ممارسة دائمة، وهذه الفتاة..

قاطعه الفلاح:

— حقا، هى ربما لم تكن فتاة فى حياتها، لكنها مع ذلك تبدو فى نظرى فتاة.. تجاهله «حامل القلم» وقال:

المومس ليست المرأة التى تعطى نفسها لعابر سبيل فى مقابل أجر فحسب إنما المومس نوع من الممارسة العلنية، فبيع العواطف الرخيصة فى عرض الطريق مقابل ثمن بخس أمر لا يقل انحطاطاً عن بيع الجسد بأغلى الأثمان فى الحجرات المخملية المغلقة..

رد «الذى يرى»:

— مثل هذه البلاد لا تنتشر فيها المومس التى تتحدث عنها. فما تراه أنت مومساً طقس من طقوس الحياة فى مثل هذا المجتمع.. فالمتاجرة بالجسد حرفة لا تنشأ

إلا فى المجتمعات المغلقة التى تعانى من كبت جنس وكبت فى العواطف، أما فى المجتمعات المفتوحة مثل هذا المجتمع فالجسد متحرر من قيود الشريعة، والنفس متحررة من قيود التقاليد.. الفتاة هنا تمارس حريتها العاطفية دون تحفظات أو قيود، ولكنها لا تعطى نفسها إلا من تريده فى اللحظة التى تريد تبعاً لمشاعر عاطفية صادقة..

لم يحاول «الفلاح» استيعاب أى من هذا الكلام، فلقد كان وهج السيجارة يطلق ومضاته القانية مشيراً إلى الشطآن البعيدة برغم شدة قربها. كان «التشيف أوفسر» قد تجرأ بعض الشىء وراح يتحسس صور الفتاة وهى تتراجع خجلة، وتعترض يده بذراعيها ضاحكة فى استنكار. نظر «الفلاح» إلى الشاب الذى طلب السيجارة فوجده واقفاً يبتسم ولم يكن لابتسامته أى معنى، وقال «التشيف أوفسر» للفلاح، إن هذا الشاب هو شقيق هذه الفتاة، وإنها على استعداد للحضور غداً لمقابلته فى أى مكان يختاره. قال «الفلاح» وماذا أفعل بها؟ ثم من قال: إنى أريد مقابلتها؟ قال «التشيف أوفسر» هذا إن أردت. ثم استأذن ومضى. قضى «الفلاح» بجواره. وقد حاول التغاضى عن وجه تجسد فى ذهنه لا يريد أن ينمحى ذلك هو وجه الشاب الذى تقدم نحوه بقرشين طالباً أن يبيعه سيجارة.. كان برغم شحوب الضوء يرى على وجهه إحساساً مرهقاً بالضياع. وفى عينيه شعور عميق بالألم والقهر والغموض..

فى تلك الليلة نام «الفلاح» بصعوبة بالغة. وآخر صورة حاول تركها فوق الوسادة وجدها فى صباح اليوم التالى تنام بجواره. وتستيقظ معه: وجه مدبب أبيض البشرة يمتص دخان السيجارة وتبرق عيناه فى الفراغ بلا مبالاة شديدة. على حين أن يداً غريبة تتحسس صدر أخته فى اشتهاء صفيق فلا يفكر فى البطالة باحترام وفقته..

٥

لاحظ «الفلاح» أن الأشياء قد بدأت تفقد مذاقها ابتداء من الفطور حتى السحر بكل عالمه. وكان الاكتئاب الذى ناء به فى المساء قد استيقظ معه فى الصباح قويا شديد الوطأة. وبرغم أن العلاقة بين «الفلاح» والربان كانت قد تحددت فى إطار: السلام عليكم — عليكم السلام. فإنه لم يجد بأساً فى الذهاب إليه لسؤاله عن قرص مهدئ. فما كاد يقترب من قمرته حتى هب لاستقباله وأمر له بالقهوة، ثم أبدى «الفلاح» رغبته فى قرص مهدئ ففتح الربان درج مكتبه، وصار يستخرج منه أنواعاً شتى من الأقراص، ثم اختار له أقواها. ابتلعه الفلاح. وبعد مضى دقائق معدودة صار جزءاً لا يتجزأ من المقعد الوثير!

ثم بدأ الربان يحكى مغامراته التى سبق أن سمعها «الفلاح» مراراً وتكراراً، وقد اضطر «الفلاح» إلى إبداء الرغبة فى الاستماع حتى لا يضيق الربان. فمفتاح شخصيته هو أن تستمع إليه راغبا لا مجاملاً حينئذ يتحول إلى شخص وديع يعزم عليك بسجائره وعا فى ثلاجته من جهة. ولقد أراد «الفلاح» أن يستميل مزاج الربان حتى يعرف منه شيئاً هاما: متى ستتحرك السفينة من ميناء ويزمار؟ ومتى ستبدأ التفريغ ثم الشحن؟ وهل ستستأنف الرحيل إلى ميناء آخر من موانى أوربا؟. ذلك أن السفينة أمضت حتى الآن تسعة أيام دون أن تستلق أية معلومات فى حين أن السفينة (أورابيا) أفرغت وانتقلت إلى رصيف الشحن منذ أيام. وجاءت سفينة (المندرة) وهى تابعة لنفس الشركة التى تتبعها (رمسيس)، وحلت محل السفينة (أورابيا) على الرغم من أن (رمسيس) قد سبقتها إلى الوصول بأيام..

— إن موقف السفينة محاط بشيء من الغموض أليس كذلك؟

هكذا سأل الفلاح الربان فى لحظة تجىء عادة كفواصل بين الحديث كالفواصل الموسيقية فى التمثيليات الإذاعية. وكان الربان يشعل سيجارته الطويلة جدا، فأطفأ الولاعة ثم شوح بيده فى رشاقة وقال: إنه حتى الآن لم يتلق أى تعليمات من أية جهة، فبدأ «الفلاح» يحس بالاكتئاب يتزايد ويعظم، وخيل إليه أن وجه الربان يستطيل أكثر. وتستطيل معه تلك المسحة الشاحبة التى تنضح بالشر والتوعد، فأحس كأن الربان يتشفى فيه!

فقال «الذى يرى»...:

— ربما كانت مسحة الوجه تحمل شيئاً من هذا المعنى، ولكن علام التشفى؟

قال «الفلاح»:

— لقد ظهر له أنى ملول بطبعى، وأنى أتعجل العودة إلى القاهرة قبل حلول شهر رمضان حيث إننى إذ كنت قد تركت الأولاد وحدهم فى المنزل طوال هذه الأسابيع فإنى سأكون منزعجاً وقلقاً إذا حل شهر رمضان وأنا بعيد عنهم، ثم إنى لابد أن أكون فى القاهرة قبل حلول هذا الشهر وإلا ضاعت منى فرصة تأهيلهم لاستقبال عيد الفطر كما يجب!

قال «الذى يرى»:

— قد أوافقك على أن الربان يجب أن يظل متذكراً أنه ربان، وأنه محط الأنظار، وأنه المسئول...

قال «الفلاح»:

— ثم إنه يخفى عنى المعلومات الحقيقية حتى يعيشنى فى قلق عقاباً لى على إهمالى له طوال الأيام الفائتة..

قال «حامل القلم»:

— لماذا تتعجل السفر يا فلاح؟ هذه رحلة لا تعوض وأنت قد بدأتها وانتهى

الأمر . فلماذا لا تكلمها ؟ .

صاح « الفلاح » صائحاً :

— إذا كنا قد أمضينا حتى الآن تسعة أيام على الرصيف المهمل فى ميناء واحد ، ولم يظهر بعد متى سنقرع ؟ ومتى سنشحن ؟ وهل سنرجع من هنا إلى الإسكندرية أو أننا سنذهب إلى ميناء آخر — فمعنى ذلك أننا لن نكون فى القاهرة قبل مضى ثلاثة أشهر على الأقل . إلى ميناء آخر — فمعنى ذلك أننا لن نكون فى القاهرة قبل مضى ثلاثة أشهر على الأقل . إن العمل فى هذه السفينة مأساة حقيقية لا نظام ولا تخطيط ولا حب للعمل قال « حامل القلم » :

سمعك حق ، إن شخصية الربان ضعيفة بدليل أنه لا يريد أن يفعل شيئاً إيجابيًّا يحرك الموقف ولابد أن إدارة الميناء تستهين به وتضعه فى ذيل القائمة و . . . رد « الفلاح » :

— الآن تذكرت ما جرى ليلة حفل التدشين ، ها هو ذا الآن يؤثر على موقف السفينة . .

قال « الذى يرى » :

— فاتكما ملاحظة أن الربان سعيد بتأخير السفينة ، ولا يهمه أن تتحرك أو لا تتحرك .

قال « الذى يرى » :

— فاتكما ملاحظة أن الربان سعيد بتأخير السفينة ، ولا يهمه أن تتحرك أو لا تتحرك

وقال الربان للفلاح :

تشرب زجاجة بيرة ؟

قال « الفلاح » :

— نعم .

وأتبع القول العمل ، إذ فتح ثلاجة الربان وأخرج منها زجاجة فتحها وأفرغها فى الكوب ، وجلس يشرب . وقد أحس ربما لأول مرة فى حياته أنه يريد أن يغيب عن الوعى حقاً ، ليمحى وجوه الأولاد التى بدأت فجأة تلتف حوله وتسأله عن سر رغبته . .

٦

فرغ الكوب وإمتلأ مرات ومرات . وأبدا لا يريد دماغ الفلاح أن يستكن ، ولا يريد الربان أن يكف عن أن يحكى مغامراته الفاقعة ، التى لم يعد « الفلاح » يعرف إن كانت قد حدثت بالفعل أو أنها من القصص التى يؤلفها الربان ، ولا يعد الوقت لكتابتها فى الكشكول العتيد ، الذى دوما على رف المكتبة خلفه يحفل بقصص من قبيل : رخى الليل سدوله ، وذات الخد الأسيل . . إلخ .

إنتبه « الفلاح » فإذا به يفتح الزجاجة الخامسة كان لبرودة مذاقها لذعة أيقظته فجأة ليضبط الربان متلبساً ببدء حكاية جديدة واضحة المعالم ، ففرح ، وقرر متابعته هذه المرة بدقة ، ليعرف متى تبدأ الحكاية عنده ومتى تنتهى على وجه التحديد ، ذلك أن الحكاية عنده تتضمن عشرات الحكايات الإعتراضية والفرعية . .

ظل يتابعه حوالى عشرين دقيقة ، سمع خلالها أسماء ناس كان قد سمعها من قبل كثيراً ، ووقائع تتعلق بهم يوردها بسرعة مذهلة ليذكر فحسب بأن فلاناً هذا هو الذى فعل كذا أو قال كذا فى المرة الفلانية فى الحكاية الفلانية . .

استعان « الفلاح » بزجاجة سادسة ليظل محتفظاً بإنتباهه لآخر نقطة وصل

الحديث إليها ، وهى أن البوليس داهمهم ذات ليلة فى الشقة بالإسكندرية . فضللوه بأن رموا الجوزة والفحم ، وكل شىء من الشباك ، ثم نزلوا من ممر الحديقة ، ولفوا ، ودخلوا من باب العمارة ، وصعدوا إلى الشقة من جديد ، ليقابلوا البوليس على بابها كأنهم عائدون لتوهم أبرياء من كل ذنب !

جميل ! ها هو الآن يضيف أن هذه الحادثة كانت آخر عهده بشرب الحشيش . إن « الفلاح » منتبه جيداً . ثم ماذا بعد ؟ .

قال الربان مشيراً بإبهامه إلى الوراء فى جدية شديدة . وقد إمتد جذعه أمامه عشرات الأمتار :

– يرجع مرجوعنا إذن لليوم الذى وقفت فيه السفينة فى الميناء .

– أهو ميناء ؟ .

– الميناء الأفريق إياه .

– أفريق إيه يا أستاذ ؟ .

– الذى قابلت فيه البنت . . عشيقة الولد الجريجى . ما الذى أحكيه لك إذن من ساعتها ؟ وكان لابد للفلاح أن يحطم الكوب على رأسه الصغير المدبب ، الذى يشبه رأس الهدهد ! ويبدو أنه قد هُم بفعل شىء كهذا ، إذ راح الربان يشير بذراعه الطويلة جداً ليهدئ من ثائرة « الفلاح » قائلاً :

– سأذكرك . . سأذكرك . نحن أول ما جلسنا عندما أعطيتك القرص المهدئ . ألم أكن أقول لك : إننا كنا نحمل شحنة بصل ، وإننا . ؟

– يا أستاذ حكاية البصل هذه كانت منذ أسابيع مضت . .

– واليوم أيضاً اعرفْ أنى كلمتك عن رحلة فيها شحنة بصل . .

– المهم .

– إلى أين وصلنا إذن ؟ .

– نحن لم نصل بعد لأى شىء . .

– تأخذ قرصاً جديداً ؟ .

– لا ما فائدة أن تعطينى القرص وتستنفد مفعوله فى الحال . . ؟

– إذن فافتحْ لك زجاجة جديدة . واجعل بالك معى قليلاً .

وفتح « الفلاح » زجاجة جديدة .

وشرع الربان يحكى . .

٧

. . أيامها كان الربان يرتبة « ميكندأوفسر » وكانت رحلة البصل قد طالت شهوراً مرت السفينة خلالها بكثير من الموانى وتمكن فيها من أن يذوق طعم نساء كل هذه الدول إلى أن توقفت السفينة فى الميناء الأفريق . وكان من المقرر أن تفرغ شحنتها من البصل وتنطلق لتشحن من ميناء آخر . وكالعادة نزل تاركاً السفينة ترن ، وتوغل فى الميناء . وأيا كانت جنسية الميناء أو طبيعته فلابد أن يكون له فيه واحدة بعينها يتوجه إليها رأساً ليقضى وطره منها . أما إن كان يزور هذا الميناء لأول مرة فإن الأمر لا يستغرق منه أكثر من جولة قصيرة فى المحال العامة .

فى تلك الليلة نزل متوجهاً إلى مكان بعينه كان يسمع عنه فحسب فلما وصل إليه تعرف على امرأة سالمة تصطحب عدة فتيات يقلن للقمر : قم لنجلس مطرحك ! ولذا فإنه خرج من عندهن آخر الليل وهو يشعر أنه لا يساوى شيئاً ، فلقد تقلب عليهن واحدة وراء الأخرى كل على حدة مرة ، ثم كل أمام الأخريات مرة أخرى ! ومع ذلك لم يصرف من النقود شيئاً يُذكر . صحيح أنه لم يكن فى جيبه ليلتها من النقود شىء يُذكر ، إلا أنه طول عمره وند جذع مفتح ، لا تضحك عليه النساء

بسهولة إلا فى كوبى لميناء فحسب . وقد شرب من الكئوس ليلتها ما شرب ، ودفع القليل ووعد بالكثير إذا ما شرفه فى السفينة غداً أو بعد غد ، وكانت السفينة فى الواقع تستعد للإبحار فى صباح الغد !

.. وكان نصف الليل قد انقضى حينما كان هو يعود إلى الميناء متحسساً جيبه ، ليطمئن على ما تبقى فيه من أجرة التاكسى ، وورقة مالية أخرى ، من عملة أجنبية انتهى زمانها وبطل التعامل بها ، فاحتفظ بها للذكرى . على أنه فى سفح غابة أفريقية اكتشف ملهى ليليا تتصاعد منه الموسيقى فحوّد لمجرد المشاهدة . وجلس دون أن يطلب مشروباً ، لأنه ذهل من منظر فتاة أفريقية تبارك الخلاق فيما خلق ! كانت تراقص ولداً جريجيا يعرفه من البحر ويعرف أنه «سكندأوغسره» مثله ، وكان يصرف بسخاء وينثر كئوس الشمبانيا على كل الموائد من أجل عيون الحسناء السمراء ، ومع ذلك قرر هو ألا يدعها تفلت من بين يديه ..

تصيد ولداً يمنياً يعرف أنه «بمبوطى» وأن الميناء إحدى مصادر كسبه . فأجلسه بجواره ، وفاتحه فى الأمر ، فأبدى اليمنى استعداده للخدمة على الرغم من أنه يعرف أن هذه الفتاة لهذا الولد من سنوات مضت . وعلى هذا تمت دعوة الولد والبنت إلى مائدته للتعارف ، ثم انهالت على المائدة أنواع لا حصر لها من المشروبات على حسابه . حتى سكر الولد الجريجى سكراً بيناً ، فانتهز هو الفرصة ، وتفاهم هو والفتاة بالاشارة . واتفقا – بالإشارة أيضاً – على أن يهربا معاً ، وأن يخرج هو أولاً بأية حجة ، ثم ينتظرها عند كوخ خلف شجرة فى منتصف الغابة .

وقد كان ، ودخلت الحسناء السمراء ذلك الكوخ فإذا به بيتها . وإذا به يحتوى على دهليز وحجرتين متقابلتين . فى الدهليز وابور غاز ، وزير ماء ، وفردة حذاء قديمة ، وامرأة عجوز متكورة فى ركن فوق مصطبة طينية ، وتمسك بيدها مسبحة . فلما رأتهما كفت شفتاها عن التمتمة وقالت بالعامية المصرية :

اعمل معروف يا ولدى لا تعمل هذه الفعلة فى هذا البيت دعه طاهراً كما هو ! وعرف أن هذه العجوز أم هذه الحسناء ، وقال لها :

– لا تخشىْ شيئاً يا خالة ، فأنا لست أنوى شيئاً يغضب الله . وإذْ عرفت أنه مصرى تهلل وجهها ، ومالت برأسها موافقة على أن يتحرك داخل البيت !

الحجرة تحتوى على سرير من الحديد قديم ذى عمدان ، خلعت الفتاة ثوبها وراحت ترقص على أنغام لا يسمعها سواهما ، ولم يكن هناك مفر من أن يحدث ما حدث ، لأنه لم يكن أقوى من هذا الجسد الذى احتواه وأفقده الإرادة !

وكانت الشمس الأفريقية تسقط وسط الكوخ ، متسللة من بين الأشجار حين استيقظ من النوم ليجد نفسه وحيداً فى السرير . فأخذ ينادى ، فلم يجبه أحد ، فراح يلبس ثيابه على عجل وفى وجل ، ثم إنه خرج إلى الدهليز ، ثم عبره مسرعاً إلى الحجرة الأخرى مفتشاً عن فتاته فلم يجدها . فعاد إلى الدهليز . لم يكن به سوى العجوز متكورة ، ورأسها متكئ علىّ ركبتيها والمسبحة تتدلى من عنقها . فصاح عليها . فلم ترد فهزها ، فتهاوت مثل كتلة من الطين اليابس ، ولم يكن فيها نفس !

وكان الربان يستطرد ليحكى ما كان من أمر الولد اليمنى الذى هرع وراء السفينة يطلب حساب الليلة الماضية ، لكن «الفلاح» لم يكن قد بقى فيه نفس ، فرفض أن يسمع البقية ، أى بقية !

كرنفال الأشباح

١

– سعادة البيه الفلاح . . يا فلاح أفندى .

ولم يكن قد نام أكثر من نصف ساعة ، ولو كان الذى يوقظه فى هذه اللحظة واحدا غير « عطيطو » لشرخ رأسه بسلم السرير . لكن « الفلاح » كان يتعاطف هو و « عطيطو » ويشفق عليه ، ذلك أنه يقوم يوميا بتنظيف الدور كله . وهو دور حافل ففيه قمرة الربان ، وهى حجرتان ، وقمرة « الشيف بيرسر » أو الخوجة ، وقمرة « الشيف أوفيسر » ، وهى أيضا حجرتان . وقمرة « السكندر أوفيسر » وقمرة « السيرد أوفيسر » وقمرة « الراديو أوفيسر » وقمرة « الشيف راديوأوفيسر » وقمرة « الفلاح » وقمرة زميله « حسين » ، وفيه أيضا ثلاثة ممرات طوال ودورتا مياه . وحمامان ، ومطلوب من « عطيطو » أن يصحو فى السابعة صباحا ليصنع الشاى لكل من « الفلاح » وزميليه باعتبارهم ركاباً تطبق عليهم قوانين معاملة الركاب فى هذه النقطة فقط . أى

تقديم الشاى والبسكويت فى السابعة صباحا قبل الفطور وفى الرابعة مساء قبل العشاء .

يدور « عطيطو » على القمرات ليوقظ سكانها فردا فردا . ويبلغهم أن الفطور « أُسْطة » ، ثم يتسلم القمرة التى يغادرها صاحبها ، ليعيد ترتيبها ويكنسها بالفرشاة والجاروف ويغسلها بالماء ، وينظف حوض الماء والمرآة . وفى هذه الأثناء يكون « الشيف أوفيسر » قد تناول فطوره فى الصالون وصعد يطلب شايا من « عطيطو » فعلى « عطيطو » أن يفتح بوفيه « الشيف » ويأخذ بطرمان الشاى وبطرمان السكر وكوبا من عهدته . وينزل إلى الصالون فيصنع الشاى ويصعد به إليه ويكون الربان قد استيقظ وأفزعه منظر الجاروف مستندا على الحائط فوق كومة صغيرة من التراب والزبالة ، فيصرخ مناديا السفرجى « دبك الكلب » وإذ يصعد « عطيطو » بالشاى للشيف يكون « حسين » قد استيقظ وطلب من « عطيطو » أن يجىء له بالفطور فى القمرة . وهذا ممنوع قانونا . ولكن « عطيطو » يخجل من قولة ممنوع خاصة لحسين ، ليس لأنه صحفى بل لأن معه سيدة . والمصريون فى الغربة ، على حد قول « عطيطو » ، يحترمون السيدة المصرية كأنها مصر . ولذلك يضطر « عطيطو » إلى النزول وتبليغ الطلب لكن « برهام » رئيس الصالون يكتشف أن الأطباق والملاعق قد تسللت إلى أماكن مجهولة ، ويخشى إن صرح بهذا أن يكتبه « حسين » فى الجرائد ، ويتهم السفينة بأنها ناقصة أطباق وشوك وسكاكين ، ولابد أن طاقمها يسرقها . يغضب رئيس الصالون . ويكل حلم يقول « لعطيطو » :

– قول له يا أستاذ حسين : الأكل فى الكباين ممنوع فى الكارجو . الكلام ده فى الباساجيرى ممكن . .

و « الكارجو » هى سفينة البضائع . أما « الباساجيرى » فهى سفينة الركاب وهى كلمة محرفة عن اللفظ الإنجليزى « باسنجر » وبالطبع فإن « عطيطو » ليس مطالبا

يحفظ هذه المقالة بنصها ، ولذا فهو يصعد ويقول لحسين في اختصار خجول :
لمؤاخذة الرئيس برهام بيقول لك لمؤاخذة . متأسفين . فيشال « حسين » ويتحط ويصفر ويخضر إذ لابد أن الربان قد أوصى بأن يعامل هكذا وفي الحال يتلقى للصالون ويؤنب رئيسه ، وعبثاً يحاول الرجل توضيح الموقف . وتكبر المسألة وتصبح تحقيقاً عند « الشيف أوفسر » ولأن « حسين » دائماً على حق فلابد أن يكون « عطيطو » هو كبش الفداء وفي النهاية يجيء الفطور لحسين في قمرته على صينية صغيرة . وهذه مشكلة أخرى . . فإذا كان الفطور طبقاً من البيض المقلي باللانشون يصبح وقد انتهى الموعد الرسمي للفطور . مجموعة من الساندويتشات ينفصل فيها البيض عن اللانشون بأن يسلق البيض ويقلي اللانشون . على أن السيدة إيناس لا تحب هذا ولا ذاك . فيلزمها جبن وزيتون ، والجبن والزيتون ليسا من مخصصات اليوم ، إذن فليفتح المخزن . وفتح المخزن مشكلة . وفي النهاية يجيء الجبن والزيتون ! .

وهنا يكون الضحا قد حل ، وجاء الظهر ونصف الدور لم ينظف بعد وإلى أن يخرج « حسين » ليأخذ أول حماماته اليومية يكون العصر قد جاء . ويكون « عطيطو » يكاد قد انتهى من تنظيف القمرات والممرات وبقيت قمرة « حسين » و « حسين » لا يأتمنه على المفتاح ، فلابد أنه موصى من الربان بأن يفتش في أوراقه ويسرق مذكراته التي يدونها عن الرحلة وعلى هذا فعطيطو مرغم على المجيء في الوقت الذي يشاؤه « حسين » لتنظيف القمرة في وجوده ، ثم تدب خناقة في الصالون فما الحكاية ؟ السكند أوفسر « نزل يطلب فطوره في الظهيرة . إذن فعطيطو هو المسئول لأنه لم يوقظه ! تعال يا « عطيطو » . هات ما عندك من أمارات ، واحلف أيماناً مغلظة على أنك أوشكت أن تحمل الواحد منهم من سريره وتضعه في الصالون ! ولكن ، من ذا الذي سيكذب الضابط ويصدق السفرجي ؟ . وهكذا يظل « عطيطو » يتلقى طول النهار إذلالاً ما بعده إذلال ، ومع ذلك يراقبه « الفلاح » فيراه يستأنف الكنس

والمسح منكس الرأس في صمت ، فيكاد يبكي نيابة عنه !

أمعقد ذلك يلومه ، لأنه أيقظه قبل أن يشبع من النوم ؟ . ما ذنبه إذا لم يكن قد نبه عليه من الأول ؟ . هذا مع يقينه بأن « عطيطو » كان مستعداً لكل شيء ، بل لعله كان يؤمن أن من بين مهام عمله أن يتلقى الزجر والزع ، كل ما كان يفعله حين يفيض به الكيل أنه يلوي شفتيه في قرف ، ثم يتنهد ويقول : تتعدل ! .

٢

نزل « الفلاح » عن السرير وانتقل إلى الكنبة يحاول أن يعدل رأسه دون فائدة وصار يضع حافة الكوب على فمه مرة وعلى أنفه مرة أخرى . ويلوك السكويت ، فلما انتهت آخر شفطة في الكوب كان النوم قد ذهب ، ولكن الجسد مفكوك ومسحوق من القرف والاشمئزاز والشعور الفاجئ بالوحدة ثم إنه اعتدل وأخذ يرتدي البنطلون والقميص متركاً ، وثمة خاطر يراوده إن هو اعتذر عن الفطور — كما حدث ذات مرة — فإن رئيس الصالون بنفسه سيصعد ويظل يسأله : ما الذي جرى منهم ؟ وما الذي وجده — هو الآخر — في طعامهم ؟ ولا سبيل لإقناعه بأن « الفلاح » متعب ولا لزوم للإفطار ! فالسبب الحقيقي في نظره هو أنه يتحد هو وزميله على الصالون ويرفض طعامه ! فما هذه المعاملة في عرض النبي ؟ .

ترك « الفلاح » قمرته للتنظيف ، ونزل إلى الصالون واتجه مباشرة إلى نفس الترابيزة المعتادة . جاء « أبو الغيط » السفرجي ، ووضع كوب الماء والدورق المثلج . وقال كلمته التقليدية ؟ ماشي ؟

فقال الفلاح : ماشي . .

فجاء بطبق العيش ومال عليه قائلاً :

– البيض مقلى ولا مسلوق ؟ .

– مسلوق .

فذهب يبلغ ثم خرج الريس « برهام » من باب « الحالى – « المطبخ » . ومر بجوار الترابيزة . وقال :

– صباح الخير يا أفندى .

– صباح النور ياريس .

فوصل حتى نهاية الصالون ، وعاد . ثم أسند ظهره على باب « الحالى » ووقف . وكان طويلا مهيبا مثل فرعون . أبيض الشعر سلس الوجه ابن ناس أكابر . أحس « الفلاح » أنه يريد أن يقول شيئا فنظر إليه مبتسما قال : هيه ! فرد الابتسامة قائلا هو الآخر « هيه ! » ثم اقترب فقال له « الفلاح » : اقعد . فامتنع – كأن الجلوس مع الراكب على ترابيزة واحدة مخالفة قانونية . تمسك « الفلاح » بأن يجلس لم يوافق قط ظل مرتكنا على الترابيزة وقال معتذرا :

– خمسة بس بيسلقوا البيض . .

بدا أنه تذكر شيئا ، فاستدار ذاهبا إلى « الحالى » وعاد بطبق من الطرشى وضعه على الترابيزة . ثم تمهل قليلا وقال :

– أنا عايز أسأل سيادتك (سؤال) يا أفندى .

– اتفضل .

– واحد مثلى إذا كتبت عنه الصحافة (ممكن يرد) ؟

– طبعا ، كل واحد من حقه يرد . . هذا قانون .

– لكن ، إذا لم ينشر الجرنان رده (من حقه أن يشتكى) ؟

– طبعا .

– وإذا اشتكى يأخذ حقه حقا ؟ .

– مائة فى المائة . .

– والشكوى تكون لمن ؟ .

انقلبت ابتسامة « الفلاح » إلى ضحكة . وسحبه من يده وأجلسه بجواره بالرغم عنه ، قال له :

– ما الحكاية بالضبط ؟ .

قال منفعلا وقد احمر وجهه .

– أنا قرأت بالأمس كتاب الأستاذ حسين ، الذى اسمه « راكبان على السفينة » وقرأت ما كتبه عن كبير الضباط . .

– وما الذى يخيفك فى هذا ؟ .

– لا ، أنا لا أخاف إلا الله . لكن ، اسمع لى . الكتابة عن الناس هكذا لا ترضى أحدا . .

وكان « حسين » قد وزع على بعض أفراد الطاقم نسخا من كل كتبه ورحلاته . وعلى رأسها الكتاب المذكور ، فسرح هذا الكتاب فى معظم القمرات ، وكان « الفلاح » قد قرأ هذا الكتاب مسلسلا فى مجلة الإذاعة والتليفزيون ، ثم قرأه مجموعا فى كتاب ، ويشهد أن به الكثير مما يدخل فى باب التجريح الشخصى الخالص . وكان يخشى مغبة توزيع هذا الكتاب وقد حدث ما توقع ، فبعد أن سرح الكتاب فى أكثر من قمرة انقلبت كل الأوضاع فى السفينة ضد الصحفيين ، وصار الجميع يتحاشونهم ، وخاصة طاقم المهندسين الذين كان « الفلاح » يلمح فى عيونهم لمعة العدوان المغلفة بشئ من الترحيب الجاف تجاه زميله ، وكان معظم أفراد الطاقم ينتهزون فرصة وجود « الفلاح » وحده فيسألونه :

– هل ستكتبون فينا هكذا ؟ .

فيجيب بأن الكتابة فى علم الغيب ، وأنها إن حدثت فلابد أن تكون موضوعية .

وقال الريس « برهام » فى طلاقة وفصاحة يحسد عليها :

— إننا نعمل فى ظروف ليست مواتية فقسم الصالون الذى يرأسه « الشيف بيوسر » أو الضابط الإدارى ، أو الخوجة كما تسميه هو القسم المسئول عن نظافة السفينة داخليا ، وعن التغذية ، والمرتبات وإجراءات السفر وشئون الجوازات والجمارك فى الموانى الوطنية والأجنبية وهأنتذا ترى الخوجة يسرح طول النهار بكلبه من « البرج » إلى « الإبش » ومن « الدك » إلى « الفورذك » ! إنه مع احترامى الشديد له لا علاقة له بشئ وأنا كرئيس للصالون تراقى موضوعا فى وجه المدفع باستمرار . فالضباط لا يعجبهم الطعام ، ولابد أن أرضيهم جميعا بأى شكل ، والخوجه مقيد بلوائح لا يتعداها ، وإن تجاوزنا حدود المقررات الثابتة لكل فرد فسنشترى مأكولات إضافية ، ولو حدث ذلك ترى الخوجه فى نهاية الرحلة مدينا للشركة . إن الفرد الواحد يأكل بأربعين قرشا مصريا فى الطلقة الواحدة .

قال له « الفلاح » إن الفرد كما هو واضح لا يأكل بمائة وعشرين قرشا فى اليوم ! وإن مستوى الطعام يقل عن هذه القيمة بكثير ، فقال : إنهم يوازنون الوجبات : فهناك يوم يزيد نصيب الفرد فيه على هذه القيمة ، واليوم الذى يزيد يسد فى اليوم الذى ينقص كما أن هناك فواكه توزع على الطاقم ضمن ما يسمونه (بالرواشم) : أى التموين الاستثنائى .

غير أن « الفلاح » لم يقتنع بهذا الكلام ، بل ظل طعم اللحم المخزون فى الثلاجة عشرين عاما كما يقولون وطعم شوربة الأرز والمكرونة يحجب أى مدح فى طعام السفينة (رمسيس) والشىء الوحيد الذى يستطيع « الفلاح » مدحه بضمير مستريح هو « الفتة » باللحم الضأن التى كانت تقدم لهم كل أسبوع مرة ، كذلك طبق الفراخ وما عدا ذلك فإن السيدة « إيناس » محقة فى رفضها لكل الوجبات التى قدمت إليها فى الصالون .

وقال الريس « برهام » أيضا : إن الصالون يعانى من قلة السفرجية ، فقال له « الفلاح » : إن السبب الحقيقى فى الربكة هو سوء استغلال النفوذ فى هذه السفينة الضالة ، فليس هناك ربان يأكل فى قمرته بشكل خاص ويخدمه سفرجى خاص ، وتصنع له السفينة عيشا خاصا معجونا بالزبد المخصص لإطعام الضباط ، كما أنه ليس فى كل سفائن الدنيا مهندس يتشبث بمكتبه ليل نهار ، ويأكل هو الآخر فى قمرته ! ولأن الربان له سفرجى خاص فلماذا لا يكون للباشمهندس مثله ؟ ولهذا فإن « أبا الغيط » السفرجى لا يمكن أن يلاحق الضباط فى الصالون وسعادة البيك الباشمهندس فى قمرته ، ولهذا أيضا فإنك ياريس برهام مرغم على القيام بعمل السفرجية لأن أبا الغيط مخصص تقريبا للباشمهندس ولقد قُدر لى — يقول الفلاح — أن أشهد إحدى هذه الوجبات ، وتعليق عليها أنه لو كان هذا الباشمهندس يملك هذه السفينة وهذه الشركة برمتها ما كان فى هذه الأملة .

حينئذ اكتأب الريس « برهام » واكفهر ، ثم شوح بيده كأنه يلقى إلى البحر بأسرار كثيرة قبل أن يتورط فى الموافقة عليها أو الإفصاح عنها . وكان « السكند أوفسر » قد دخل وشرع يتناول غداءه بلا أى شهية واضحة ، كان هو الوحيد الذى لا ينجح فى كبت مشاعره وإحساسه بالغُبن . بعكس السيرة أوفسر « الذى يعترض فى السر فقط ، وبشكل لا يكسب الاحترام أبدا . « السكند أوفسر » يرى تناقضا بين مركزه فى السفينة وبين واقع المعاملة ولقد رضى أن يتجرع غداءه على مضض ، لأن الكلام لم يعد يجدى ولأنه تيقن أنه لن يقوم شبعان أبدا فى هذه السفينة ، لكنه فوجئ أن الطبق المقدم إليه طبق من البلاستيك الرخيص . أين إذن طاقم الأطباق الصينى الفاخرة التى زودت بها السفينة من الترسانة ؟ ولمن تقدم إذا لم يكن يقدم له ؟ ثم إن السعر ليس عاليا ولم يكن عاليا قط طوال الرحلة حتى تحتجز الأطباق الصينى وتستخدم البلاستيك !

صاح « السكندر أوفسر » سائلا عن الأطباق النظيفة ، فرد عليه رئيس الصالون قائلا : إن الأطباق فى هذه السفينة تسرح تمشى لا يعرف أحد إلى أين ؟ حتى إنه لم يعد لديه من الأطباق والأكواب إلا ما يكاد يكفى ترابيزة واحدة ! . ثم إن « السكندر أوفسر » يجب ألا يشغل نفسه بمسألة تافهة كهذه ! فقال السكندر أوفسر » : إن من حقه أن يأكل فى أطباق نظيفة وأن الشركة من أجله وأجل زملائه تزود السفينة بأطباق محترمة ، فرد رئيس الصالون قائلا :

– لو كانت الشركة مهتمة بك لصرفت لك بشكيرا للحمام ! لقد تسلمت أنا هذه الترابيزات بلا مفارش ، وهذه المفارش التى تأكلون عليها ملاءة سرير قطعناها !

حقا .. المفارش قطع صغيرة من ملاءة سرير أليس هذا شيئا مضحكا ؟ سفينة جديدة فى رحلتها العذراء تكلفت ثلاثة ملايين جنيه ، ومجهزة تجهيزا ميكانيكيا عالى المستوى ، ومصممة بحيث توفر الراحة لكل من يركبها ، ثم تتعرض لكل هذه المهانة ؟ . تذكر الأرض أيضا ، فنظرها فوجدها عارية مثل أرض الشارع تماما ، ولا فرق كل ما هنالك قطعة سجاد فى حجم المصلى فى استراحة الضباط الملحقة بالصالون ، تذكر كذلك أرض القمرات ، كلها عارية باستثناء قمرة الربان وقمرة الباشمهندس وقمرة الضابط الإدارى وقمرة الشيف أوفسر . ولقد سمع من أفراد الطاقم أن سفينة جديدة كهذه لا يمكن أن تخرج من رحلتها الأولى عارية هكذا وكان فى كلامهم تورية مستترة ، فبحث وراءها ، فقيل له بكل صراحة : إنه ليس ببعيد أن تكون سجاجيد القمرات قد بيعت أو ذهبت إلى البيوت ، فلما عرض هذا الكلام على « الشيف أوفسر » شوح بيده فى صمت ولم يعلق غير أن تشويحة يده كانت أبلغ من أى كلام ، إذ تحمل معنى « ما تدقش ! » وطبعا لا ينبغى للفلاح أن يدين أحدا بناء على تشويحة ذراع !

ولكن « الفلاح » كان يريد أن يقول لرئيس الصالون شيئا عن الأطباق التى تمرح ولا تعود ! فلقد رأى أرتالا منها فى حجرتى الربان والباشمهندس ، مما يؤكد أن هناك تنافسا مظهريا خطيرا بين القيادات الثلاث فى هذه السفينة . على أنه لم يقل شيئا ، لأنه يعلم أن رئيس الصالون يعرف هذه الحقيقة معرفة جيدة ، فالتنافس المظهرى واضح ، ليس فحسب فى اكتناز الأطباق والأكواب والملاعق فى البوفيهات الخاصة بل فى السجاجيد ! ولقد اعترف « الشيف أوفسر » للفلاح بأن الشركة دفعت ألفا وثمانمائة وخمسين جنيها ثمنا لسجاد خصص لأربع قمرات فحسب ، وأن الربان والباشمهندس والضابط الإدارى رفضوا الصعود إلى السفينة ، إلا بعد أن يجىء هذا السجاد ومعه بعض لوحات زينية تعلق على الحائط . وفى بداية الرحلة كانت التسلية الوحيدة هى مشاهدة الربان وهو يعبث بسجاد حجرته لكى يغطى كل بقعة فيها حتى تحولت قمرته إلى مجزرة سجاد ! . فهناك قطع فى حجم ورقة الناقرة تراها مصلوبة بجوار قطعة مستطيلة أو قطعة فى حجم البلاطة . كل ذلك ليوهم أن الترابيزة ، والكراسى والمكتب (موضوعة) أصلا فوق السجاد فى حين أنها ثابتة فى الأرض . فكانت النتيجة أن أطراف السجاد ملأت أرض القمرة فى نتوءات بارزة تلتف حول قوائم الترابيزة والرأس وتسلقها ، مما جعل منظرها قبيحا غاية القبح ! وكان « الفلاح » يرى هذا المشهد فيتحسر على هذا السجاد الفاخر الباهظ التكاليف الذى لم يعد يصلح مطلقا . ولو أن هذا المال مال العدو ما عاملناه بهذه القسوة وبعثرناه بهذا السفه !

٤

لم يعد « الفلاح » يجد تفسيرا لهذا الاكتئاب المتزايد ، إنه يضع فوق صدره

نفعا من الضيق لقيلة ، حتى ليخيل إليه أن ماء البحر قد تجمد ، وكان يكثر من الوقوف فوق الكوبرتة والانحناء على الدرابزين ليجد أن السفينة محشورة بين رصيفين ، كل رصيف عليه أبنية ومخازن ومكاتب وادارات ولها خلفية من القباب والأبراج والطوابق المرتفعة الغامقة اللون ، فيخيل إليه أن السفينة حشرت بين شوارع المدينة ، أو أنها وحدها شارع قائم بذاته ، فكان من فرط الضيق يصعد إلى سطح « البريدج » فيرى صفحة البحر مطوية على الأفق البعيد ! فيخيل إليه أن العودة إلى بلاده أمر مستحيل . صحيح أن القدرة التى أتت به إلى هنا تستطيع أن تعود به ، ولكن متى ؟ متى ؟ .

ومن جديد يهبط إلى قمرته .

السفينة خالية إلا من بعض النيام استعدادا للسهر .

قال « حسين »

— هيا بنا نخرج .

قال « الفلاح » : هيا .

ثم إنهم خرجوا إلى شوارع المدينة فى الصباح بغير هدف ، واقترح « حسين » أن يركبوا الأوتوبيس من هذه المحطة ، ويظلوا معه حتى نهاية الخط ، فينزلوا ، قال « الفلاح » بحماس : أنا أحب دائما أن أعرف : ماذا فى نهاية الخط ؟ علق هذا التحمس فى الأوتوبيس .

الأوتوبيس كالعادة خال من أى زحام . لكن المتعة التى كانت باكتشاف مقعد خال فى أوتوبيس لم تطل ، فبعد عشر دقائق كانت المدينة قد انتهت عجى محطة آخر الخط ، وكان عليهم أن ينزلوا .

وجدوا أنفسهم أمام ضاحية صغيرة . اسمها « أمسل وج » لا يستطيع « الفلاح » إيجاد شبيه لها فى مصر ! فهى عبارة عن تخطيط تستطيع أن تلم بتفاصيله كاملة من

أى نقطة فيه ! فأول الشارع يكشف لك ليس فحسب عن آخره ، بل عن كل ما يتفرع منه من شوارع ، فكأنما البيوت مجموعة من الأحواض المرتفعة ، كل بيت حوله قطعة أرض خضراء تماما ، والقنوات الصغيرة اللطيفة تتسلل بين البيوت يجرى بينها الماء ، فإذا نظرتها من بعيد تخيل إليك أنها أسراب من الخطوط والأقواس والجمل الاعتراضية !

أغراهم طريق فمشوا فيه حتى نهايته ، على الجانبين بيوت وخضرة ، وفى نهايته بيت فى المواجهة . كان « الفلاح » وهم مقبلون نحوه يكاد ينهيأ لدخوله من فرط ما هو حبيب لديه برغم أن شكله ليس كشكل البيوت المألوفة له . لكنه استدار عائدا من حيث أتى ، وجاءت خلفهم فتاة صغيرة تمتطى دراجة وتجرى بسرعة رائحة غادية صانعة دوائر على الأرض ، وكانت الشمس تظهر وتختفى كأنها ترفع يدها بالتحية ثم تتركها فيسقط الظل معها على الكون الهادئ الناعس الجميل .

برغم هذا الاتساع المنعش بين المساكن ووجود مساحات خالية كبيرة فإن المخطط لهذه الضاحية لم ينس تحديد أرض فضاء لملاعب الأطفال ، ووضع ألعاب مثبتة فى الأرض أرض سلم بلا درج ، مجرد انحدار معدنى أملس يهبط من مربع مرتفع كشرفة المرور فى الميادين العامة يقابله من الجهة الأخرى سلم ذو درج ، وعلى الطفل أن يصعد الدرج إلى الشرفة ، ثم يجلس على أول المنحدر ويسلم نفسه للهبوط السريع اللذيذ ، وعلى مبعدة آلة رافعة ، واثنين يجلسان فى مواجهة بعضهما لبعض أحدهما ترتفع به الرافعة ليهبط الآخر إلى الأرض وهكذا .

لم يكن هناك أطفال تمارس هذه الألعاب كانوا — فحسب — يطلون كالورد من النوافذ الدقيقة المحيطة . تقدم « حسين » وامتطى الرافعة فواجهه « الفلاح » على الطرف الآخر فى لمح البصر وجد نفسه كريشة طائرة فى مهب الرياح ، فأخذ يصوصو ويصيح مذعورا كالأطفال الغرقى وحسين . مثبت فى الأرض بقدمه

يضحك فى انتصار وباصرار واستمتاع طفل شقى عنيد . غير أن الفلاح استمرأ اللعبة بعد ذلك فظل يعيدها مثنى وثلاث ورباع ، ويظل ينتقل من الرافعة إلى السلم المتحدر ، وقد فقد الإحساس بوقاره حين أنه يتزلق متقرفصا على السلم الناعم ، كذلك فعل كل من « حسين » و « إيناس » وكان الرجال والسيدات يمرون عليهم ، فيواصلون السير دون أن يلقوا بالا إليهم . لم يكن يلتفت إليهم سوى الأطفال الصغار حيث يمر الطفل عليهم ممسكا بيد أمه ، فتتعوج رقبته ناظرة إليهم ، وتظل منعوجة خوفهم إلى أن يغيب فى حنايا البيوت .

٥

دخل « الفلاح » قرنه فوجدها لا تزال تسبح فى الحبر الأزرق برغم أن السفرجى قد نظفها خلال اليوم كانت البحيرات الصغيرة التى تناثرت فى أرض القمرة قد اتسعت وانعدمت الحدود الآمنة بين بعضها وبعض وبينها جميعا وبين الفلاح ! وقف مذهولا يرفض التصديق بأن موقف الإنسان يمكن أن يمر عليه كل هذا الحبر ، لكنه لما رأى أن الموقف قد صار حبرا على الأرض قبل أن يصبح حبرا على ورق الصحف قال لنفسه : حبر يحبر خل عنك اللوم ، ولا تتراجع !

وقال « الذى يرى » :

– لست أفضل من الربان فى ذلك . .

وقال « حامل القلم » :

اسمعا هذه الملاحظة التى سبق أن دونتها فى لاكرونا . .

فأصاخ « الفلاح » السمع .

وقرأ « حامل القلم » :

– بينما كنا نسير فى شوارع لاكرونا فى المساء نظر « التشيف إلجنير » إلى « حسين » وجز على أنيابه قائلا فى حقد شديد حاول أن يداريه بابتسامة مازحة : « آه : لو ماكينتش المدام معاك – كنا خليناك تفتح الحنفية تنزل هباب !

علق « الذى يرى » :

انظر كيف تنعكس الآية ؟ الرجل المسئول عن سلامة السفينة يصبح متفرجا على خرابها ! رد « حامل القلم » بحماس . .

– بل يعمل بنفسه على تخريبها !

قال « الذى يرى » . .

– لا ، لا ، أستطيع اعتماد هذا القول ! من أدراني أنه هو الذى يفعل فى السقف هكذا عامدا متعمدا ؟ لكن الوصف الدقيق له فى نظرى أنه متفرج على الخراب ، وهذا وحده مثير للمخزى والعار ، !

ثم إن « الفلاح » يصق فى قرف . ومضى إلى قمرة « التشيف أوفسر » إلى أن ينتهى السفرجى من تنظيف الأرض ، كانت قمرة « التشيف » مزدحمة بعض الضباط ، وكان يخيم عليهم وجوم شديد . والبحيرة الزرقاء تسبح فى وسطهم كالفطحة العار ، والقطرات المتساقطة من السقف تثقب الصمت فى حدة هازئة به !

اتخذ « الفلاح » مجلسه بينهم ! قال : ما بالكم ؟ فتناثرت الكلمات المختصرة هنا وهناك :

أبدا . لا شيء . رحلة قليلة الخير . إلخ . فانزعج « الفلاح » أيما انزعاج ، ونظر إلى « التشيف أوفسر » وقال له :

خير يا شيف ؟ .

قال « التشيف » . . .

ولاد الـ . . . » . . . » يتحكون فينا . .

– من هم ؟

– المسئولون !

– هنا ؟

– فى كل مكان .

– ماذا حدث ؟

– سنرجع الى الخطاف .

– ماذا خطاف ؟

وهب « الفلاح » واقفا كالمصعوق . بتيار كهربى سنرجع إلى الخطاف ثانية ؟ لماذا ؟ كيف ؟ متى ؟ وحتى متى ؟ . كانت ورقة النتيجة على الحائط تشير إلى الثانى من أغسطس . وقال « الشيف » : إن السفينة ستبقى فى الخطاف حتى العشرين منه ، ثم تعود بعد ذلك إلى رصيف التفريغ ومن الذى قال ؟ . . هل جاءت بذلك تعليمات رسمية ؟ . قال الشيف : « إنه سمع هذا الخبر من « شيف أوفسر » السفينة (أورايا) وهو مصدر موثوق به على اعتبار أن السفينة (أورايا) مؤجرة للحكومة الألمانية ، ومن ثم فإن كبير ضباطها يعرف بعض أسرار العمل فى الميناء . .

الخطاف مرة أخرى ؟ وأحس « الفلاح » بقهر شديد ، كأنه وضع فجأة فى القبر صار يفتح النوافذ ، ويتمشى ويتمطع قبل أن يفقد القدرة على ذلك تماما . . إن السفينة إذا عادت إلى الخطاف مرة ثانية فإنها لن تعود قبل شهر على الأقل . هكذا يؤكد أفراد طاقمها ، فالخطاف مثله مثل سجن « صلاح نصر » . تماما أيام مخابراته : يحتجز فيه المرء بلا أى سبب وبدون تحقيق وإلى ما لا نهاية ! . وإذا فرضنا أن السفينة ستعود إلى رصيف التفريغ فى العشرين من أغسطس كما يقولون – أى بعد ثمانية عشر يوما من هذه الساعة – فمعنى ذلك أنها ستبقى على رصيف التفريغ على الأقل عشرة أيام وخاصة أن الميناء يعانى من أزمة فى اليد العاملة ، فإذا انتقلت بعد

ذلك إلى رصيف الشحن فلا أقل من عشرة أيام أخرى ! ستون يوما فى سجن الخطاف وفى مدينة استنفدت مفاتنها ! إن هذا لشيء فظيع ! .

كان الأمر يبدو طبيعيا بالنسبة لأفراد الطاقم ، فكثيرا ما طرأت عليهم ظروف مشابهة إلا أن غلاف الصبر والبلادة الذى يلف وجوههم كان ينتفض بغضب مكتوم ، غضب لا تدرى إن كان تجسيدا للصبر عماه المصرى أم أن الصبر تجسيد له ، ولكنه على أية حال صبر يدفع « الفلاح » إلى التمرد وربما للتهور وغضب يدفع « الفلاح » إلى الإسراع بالهرب اتقاء للوقوع فيه هو الآخر . .

٦

. . ولكن ، أين تذهب يا فلاح وأنت معلق بين السماء والأرض ؟ انفعل ، افقد عقلك ، اخبط دماغك فى الحيط فلا سبيل أمامك للفرار ! على أن فكرة التمرد تعشعشت فى مخه وأيقظت فى أعماقه أطلال عناد طفولى قديم . « عمره » الذى يرى « مذكرا إياه بأحلامه القديمة فى السفر والانطلاق لرؤية العالم » ، وذكره « حامل القلم » طموحاته الروائية والرغبة فى خوض التجربة الصعبة ، لكن « الفلاح » ذكرها زوجته وأولاده فى مدينة قاسية لا يعرفهم فيها أحد ولن يفرغ لمشاكلهم أحد . لوح « الذى يرى » بأن الرحلة قد بدأت وانتهى الأمر ، وعلى الأولاد أن يحملوا نصيبهم من التضحية فطوح « الفلاح » رأسه فى رعونة وتصميم ، وقام من فوره ، فاقتحم قمرة الربان ، وقال له فى حسم :

– عايز أروح بأسرع ما يمكن !

قهقه الربان حتى اصطدم رأسه والسقف وقال له بجدية شديدة :

– روح ، حد حايشك . . ؟

فلم يجد « الفلاح » كلاما يقوله وظل ينظر حواليه حائرا وقد بدأ يحس بعجزه ، فأشعل سيجارة وهدأ قليلا ، وبدأ يستفهم من الربان عن إمكان العودة بمفرده ، شرح له الربان أن الأمر بسيط ، وأنه يستطيع إعادته إلى القاهرة بالطائرة ، ولكن نفقات السفر كلها ستكون على نفقته الخاصة وتكاليفها لا تقل عن مائتى جنيه مصرى !

شعر « الفلاح » باكتئاب شديد ، وأحس أن الرحلة قد دخلت فى المرحلة الخطرة فهو إن سلم بالهزيمة – ولابد أن يسلم – فإنه لن يكون سعيدا بأية حال حتى لو جدت أمور تبعث على السعادة ، فهو واثق أنه لن يحتمل الصمود فى مثل هذا الجو كل هذه الأيام . .

وصار يتنقل بين أنحاء السفينة كالفأر فى المصيدة . .

وفى نفس الليلة وردت أنباء قاهرية ، تقول : إن رئيس مجلس إدارة الشركة المصرية للملاحة البحرية قد نقل هو ومدير المشتريات ، فخيل للفلاح أن الظروف قد بدأت تلعب ضده ، وأن الرياح التى وافقت هواه طوال هذه الأيام قد آن لها أن تهب فى الاتجاه المعاكس ! فرئيس مجلس الإدارة المنقول هو الذى دعاهم إلى هذه الرحلة . وخبر نقله قد رسم على وجوه بعضهم مسحة من التشفى فى الصحفيين كأن الوزير الذى كان يحمى وجودهم فى مناصبهم قد خرج فى التعديل الوزارى الجديد !

٧

وبينما كان « الفلاح » فى الممر الثانى متجها إلى الكويرته لسبب لا يدريه لمح « الشاذلى » جالسا فى قمرة أحد الضباط . فارتد ، واقتحم القمرة مسلما عليه ، وكان

أول شىء سأله عنه هو خبر عودة السفينة (رمسيس) إلى الخطاف ، فبدا على وجه « الشاذلى » فكر ريثى حلو يصرحُ بصدق الخبر دون أن ينطق حرفا واحدا . ثم تعود ملامح وجهه من جديد ، لتأخذ انبساطها الطبيعى ، وهى ملامح تبدو فيها خشونة الأرض الزراعية ! تأملها « الفلاح » وهى منبسطة فى براءة وشفافية ، وبدأ يحس أنها يمكن أن تقوده إلى حل ينقذه من أزمته ، فسأله عن آخر أخبار السفينة (أورابيا) فقال له إنها تستعد للرحيل غدا أو بعد غد ، لتكون فى الإسكندرية إن شاء الله بعد أربعة عشر يوما لأن السفينة (أورابيا) تسلك طريقا مختصرا ، ولا تستخدم المرشدين على الإطلاق .

وشيئا فشيئا بدأ « الفلاح » يحدث « الشاذلى » عن مشاكله وعن همومه وما ينتظره فى القاهرة مما يرغمه على تعجّل العودة ، وأبدى « الشاذلى » تعاطفا حقيقيا مع هموم « الفلاح » ، فتشجع « الفلاح » وطلب منه – صراحة – معاونته فى أمر العودة معهم على السفينة (أورابيا) ، فقال « الشاذلى » : إنه سيتحدث فى ذلك مع الربان الهولندى الأصل ، ويحاول إقناعه بالموافقة ، ثم انصرف « الشاذلى » على أن يلتقى هو والفلاح فى الغد ليعلمه الخبر اليقين .

الفصل السادس عشر

مهنة الفراق

١

استقبله « الشاذلي » استقبالا حارا ، ولم يكن الوقت وقت غداء أو عشاء ، ولكن « الشاذلي » طلب له الغداء مصحوبا بكأسين من الويسكي . فتفاءل « الفلاح » خيرا بهذا اللقاء ، وسأله متعجلا ، عن أخبار الموضوع الذى كلمه فيه ، فابتسم « الشاذلي » ابتسامته الريفية المعهودة وقال : إن الموضوع سيطرح الآن أمامه بكل صراحة ووضوح .

بعد قليل وصل « تشيف أوفسر » السفينة (أورابيا) وهو شاب صغير السن مصرى الملامح قوى الجسد ذو شارب منسق . ودقن (سكسوكة) تجعله قريب الشبه جدا من الدكتور « محجوب ثابت » ولكن على شباب . كان « الفلاح » قد لاقاه من قبل عدة مرات ولم يكن يثيره فيه شيء سوى هدوئه الشديد الذى تشارك ملامح وجهه فى الإيحاء به بشكل أكثر عمقا ، إذ ترتفع جبهته فى موجات متلاحمة رائعة

٢

جلسوا جميعا فى غرفة « التشيف أوفسر » فى انتظار أن تقلع السفينة ، ومن حين إلى حين يحضر واحد من طاقم السفينة (رمسيس) ليسلم على « الفلاح » ، ويعانقه ، ثم إنهم بدءوا فى الانصراف واحداً وراء الآخر ، وبقى كل من « حسين » و « إيناس » إلى أن حضر « البايلوت » ، ثم ودعاه وانصرفا إلى (رمسيس) .

نزل « الفلاح » إلى الصالون فوجد فرقة كاملة من ضباط جنود شرطة الميناء يراجعون « الباسبورات » وكان « الباسبور » الخاص بالفلاح فى يد القائد يفحصه ويستوثق من صورته ثم وضعه .

ثم إن البوليس قضى وقتا طويلا فى التحقق من شخصيات الطاقم فرداً فردا ، والبحث فى كل غرفة وفى المخازن ، ودورات المياه وفى الماكينة وبدقة شديدة كأنهم يبحثون عن إبرة ضائعة ! وعلم « الفلاح » أنهم يبحثون فى الواقع عن الأشخاص الذين يهربون من ألمانيا الشرقية ، إذ إن هذا يحدث كثيرا وأضاف « التشيف أوفسر » قائلا : إنهم فى رحلة سابقة على نفس هذه السفينة اكتشفوا أربعة من الهاربين نجحوا فى الإمساك بثلاثة منهم ، ولم يفلحوا فى الإمساك بالرابع . وحين أمسكوهم أوقفوهم على رصيف الميناء ، ثم ضربوهم بالرصاص أمام جميع العمال !

٣

شرد « الفلاح » شرودا غائما ، وأحس بامتعاض يشوبه قليل من الابتهاج . فمنذ خرج من السفينة (رمسيس) وهو ممتعض دون أن يدرى ويجاهد فى منع دموعه من

حاجبيه إلى أعلى حين تطرق سمعه رنة الملعقة فى الكوب ، كأنه قد تعود الهدوء العميق فى جُبٍّ مظلم ، ويضطرك فى الحال إلى اصطناع صوت رحى النيرات ، فإذا به يضع كفه على أذنه رانيا إليك ، فتضطر إلى إعادة كل ما قلته من الأول بشكل أقل اختصارا مما سبق ، فإذا به يهز رأسه فى استفهام ، فتضطر مرة أخرى إلى تلخيص ما قلته فى كلمتين اثنتين ، فإذا به يصيح بصوت مزلزل ترفعك حدته المفاجئة إلى الدهشة قائلا : « أنت بتقول إيه ؟ » فلا يكون ردك إلا أن تأخذ براحك فى علو الصوت ، لكنك فى هذه المرة لا تعيد ما قلته ، إنك فحسب تأخذ حقك فى رفع الصوت كأنك تسترد ما فرطته فيه من علو صوتك فيما سبق ، فتصيح مبرطما بمعنى ماقلته ، ولكن بكلمات أخرى . فيقول لك فى هدوء شديد : « إنت بتزعق كده ليه ؟ »

كان « الفلاح » قد أمسك هذا المفتاح من أول لقاء ، وأعجبته برغم ذلك شخصية هذا الضابط الشاب وطريقته فى استخلاص حقه من الحياة فهو يلاعبها بمعنى الكلمة يتزين ويتشوشن ليقابلها فى ميناء فى ألمانيا أو فى أفريقيا . ويخلع عنه كل زينة ويثق بزينة القوة وحدها يمسك بيديه آلة كهربية عنيفة تئز وتزلزل ، ليجلو بها الصدأ عن السفينة لكى يعيد دهنها عند دخلة الميناء ، ويتقاضى ألف دولار فى الشهر ، ويدبر ويكوّن ليصنع فى النهاية عشا حافلا لتلك التى تنتظره فى القاهرة . تولى « الشاذلى » تلخيص الموضوع فى كلمتين بالنبرة الصحيحة فأبدى « التشيف » حماسا رائعا ، وتفهما عميقا للموقف ولكنه وضع أمام « الفلاح » هذه التحفظات : إن السفينة مؤجرة لألمانيا الشرقية ولكى تأخذه السفينة معها فى العودة عليهم أن يستأذنوا — أولا — من المؤجر . فإن وافق المؤجر فعليهم أن يستأذنوا — ثانيا — من (الأونر) » . ثالثا ، ثم إن انتقال « الفلاح » من سفينة إلى أخرى مسأله لابد أن تثير بعض الشك لدى بوليس الميناء ، مما يدفعه إلى محاولة تحرى الأمر

بدقة وقد يتعقد فى نظره فلا يوافق ومع ذلك فإنه — « التشيف » — سيتحدث مع الربان فى هذا الأمر وسيرد على « الفلاح » فى المساء .

وكان « الفلاح » يستمع إلى هذه التحفظات سابحا بعينيه فى الكأس التى انعكست عليها الشمس فأحالتها إلى كتلة منصهرة من الذهب وكان فى خلفيته البعيدة قد نفض يديه من محاولة العودة على هذه السفينة أو غيرها ما أعد السفينة (رمسيس) ، لكنه لما نظر فى عينى « التشيف » أيقن من جديد أن عودته مع السفينة (أورايا) أمر ممكن جدًّا ، ولم يحاول أن يقدم لذلك تفسيرا ، لكنه حين انصرف لم يكن يعلق أملا كبيرا على شىء ، ووجد نفسه يستعيد شيئا فشيئا ارتباطه . بالرحلة من جديد ، ويحاول رأب الصدع الذى حدث فى مشاعره تجاه الاستمرار فيها .

٢

اضطر « الفلاح » إلى قبول الحديث عن العودة إلى الخطاف كأمر واقع ، وحاول التذرع بالهدوء فى مناقشة الأمر ، وكان الليل قد سحب كل واحد إلى أرضه الخاصة . وراحت السجائر تلعب دورا دبلوماسيا فى تأصيل الشعور بالوحدة لدى كل من « الفلاح » و « التشيف أوفسر » فى فترة الأخير ، وصار « الفلاح » ينفث السأم وشذرات من ألمه وهواجسه و « التشيف » يستمع بإمعان ويبتسم ، وفجأة انبثق فى عينى « التشيف » بريق حاد شديد الحزن والعمق معا ، بريق عابر خاطف ، لكن عينيه لم تأخذا صفاءهما الطبيعى . بل ظلتا تسبحان فى بحيرة من الدموع المتجمدة لم تجمدها سوى برودة الأعصاب ، هذه البرودة المركبة مثل الثلاجة التى لا تعطى البرودة إلا وهى مشحونة بتيار كهربى قوى . ورجل البحر لا يكون رجل بحر بحق إلا

بقدر ما ينجح فى قهر مشاعره . فى تلك اللحظة الخاطفة أدرك « الفلاح » أن رجل البحر الجالس أمامه الآن قد أحرق فى لمعة فى — لمعة — فاصلا من الذكريات العزيزة الحلوة التى من فرط حلاوتها من غلاوتها علينا حبا البحار ودنيا فى الموانى . فكأن لمعة اعينين بالحزن العميق هى انعكاس اللهب المشتعل فى الأعماق وحين تفحصت العينان تماما سيطر على « الفلاح » شعور عميق بأن ثمة ما يجب إزالته حتى يعود الصفاء إلى هاتين العينين العسليتين الإنسانيتين جدا واللتين تبدوان دائما كأنهما أشعة من الضوء الكاسح ، ولكن فى خط مستقيم إلى الأمام . إنهما عينا ربان تعود التحليق إلى الأمام واستطلاع الأفق حتى فى الظلام !

كان يحلو للفلاح دائما أن تكون جلسته فى مواجهته تماما ليتمكن من فهم شخصية الشيف أوفسر » ولولا هذا الإصرار على هذه الجلسة ما اكتشف « الفلاح » شخصية هذا الصديق الوفى الذى قلبه شديد الطيبة ، شديد البياض ، كأن سمرة بشرة الوجه تنأى عنه كل لسعات الهجير وقرص الصقيع فى عالم البحر الواسع الخرافى الذى تختلط فيه الخرافة والحقيقة ونكاد نفهم الفروق بينهما .

بإطلالة صغيرة على هذه الأعماق الصافية رأى « الفلاح » أبعاد موقف إنسان شديد العمق ، فهذا ربان يحق يحب عمله لدرجة التقديس ويعلم أن على الربان لكى يصبح ربانا أن يتخلص من الشعور الدائم بالأسرة وينسى كثيرا من التقاليد ، ليضع جل اهتمامه وبتركيز شديد فى عمله بحيث لا يشغله عن السفينة أى شاغل آخر مهما كان عظيما . . فسلامة السفينة مسئولية لا تقبل أن يشاركها فى الاهتمام أحد ، ولكن ماذا يفعل « الشيف أوفسر » وقد انقسم قلبه بين شعورين كل منهما يريد وحده قلبا كاملا وكبيرا : فنصف قلبه يذوب حبا واشفاقا على سفينته وعلى رحلتها هذه الحافلة — ونصفه الآخر يذوب وجدا على طفليه الصغيرين فى الإسكندرية وكلا الطفلين صغير ! ولأمر ما فقد ضوعف حبه لطفليه هذين بقدر يفوق حدود

المألوف ، وكم طال به الشوق للعودة من أجلها ! وكم طال به الحنين لاستئناف الارتحال من أجلها أيضا ! ودائما هناك لحظة بينهم لم تكتمل ، ووعد باستئنافها ، ودائما هناك حوار — حتى على البعد — متصل . .

ويبدأ الشعور بالاغتراب يزايل « الفلاح » ربما لأنه عثر على شىء جديد يستحق الاشياء والمعايشة . إنه منذ البداية يأنس إلى هذا الرجل ، ويلمس لديه فهما متطورا لمعنى الصحافة والصحفيين ، والفرق بين الكاتب والصحفى الخالص ، ولوضع كل من الأثنين فى بلادنا والبلاد الأخرى ، وكذلك يلمس لديه أصالة فى الخلق والسلوك . . وهاهو ذا يكتشف فيه بعدا إنسانيا جديدا ، وهذا معناه أن قرة كل منها سينضم إليها أشخاص جدد لهم فى مشاكلهم ومأساتهم غرابة الحياة وعذوبتها فى نفس الوقت إذ هى تستفز إنسانية الإنسان .

على أن البحر لا تستكن أمواجه على حسب ما يرتضى الإنسان ووقتا يهوى إذ لابد أن يعكره الخطاف ، حينا يصطدم هو والماء هابطا إلى القاع يفترس الروح المعنوية للإنسان . .

ويشعل « الشيف » سيجارة ينفث دخانها قائلا بغتة :

— إن وجودكم فى هذه السفينة يستطيع أن يخدمها فى موقفها .

أطفأ « الفلاح » بقايا سيجارته وأشعل غيرها فى الحال . . وقد أشرقت فى ذهنه بوادر مغامرة يقومون بها ، يقصد دورا يلعبونه فكل دور فى نظره مغامرة ، لأنهم لاشك يذهبون فى مشاوير ويلاقون أناسا ويتكلمون معهم ، ويعودون لناس آخرين ، وهكذا يتبدد الركود وقد يتخلق من هذه الحركة شىء يغير الموقف أو يضيف إليه معنى جديدا . .

وقال « الفلاح » للشيف :

— ما الذى تتصور أن بإمكاننا فعله ؟

شوح بيده النحيلة القصيرة قائلا :

ستقلون شكواكم إلى السفير ، لماذا لا تطلبونه وتشرحون له الموقف ، لعله يتدخل بشيء إيجابي ؟ .

ثم أردف بعد برهة قصيرة :

— نستطيع أن نطلبه لكم من مكتب « الايجنت » بالتلكس .

فوافق « الفلاح » في الحال ، وانتعشت اللحظة المسائية بشكل مفاجئ . فرن التليفون هنا وهناك ، وجاء « حسين » وجاء البحرى التونسى بالشاى . وخرجت من بوفيه « التشيف » أطباق محتجزة على الدوام ، وتم الاتفاق على أن يؤدى الصحفيون هذا الدور في الصباح ، وفي تلك الليلة نام « الفلاح » وقد نسى تماما أمر السفينة (أورانيا) ، بل إنه استهجن فكرة المحاولة للعودة معها . .

٣

تكفلت حسناء في مكتب « الايجنت » بإرسال برقية بالتلكس إلى السفارة المصرية ، وبعد محاولات كثيرة تمكن « حسين » من الإمساك بالتليفون حيث السفارة على الطرف الآخر ، واتضح أن السفارة لديها علم تام بكل تفاصيل الموضوع وردوده من طقطق لسلامو عليكم ! ولكنهم أكدوا أن السفينة — إن شاء الله — ستغادر الميناء في العشرين من أغسطس بالفعل ليس إلى المختطاف ، بل إلى عرض البحر في اتجاه الإسكندرية ، وليس هناك احتمال لمرورها على فنلندا وبولندا ، وإذا مرت فبسرعة شديدة . .

تلقى « حسين » وعدا صريحا من السفارة بهذا ، ولكن « التشيف أوفسر » لم يبد عليه أى حماس ، ويبدو أن اكتشافه بأن السفارة تعلم كل شيء عن الموضوع قد أكد

في نفسه معلومات لا يريد التصريح بها ، المهم أنه لم يكن متفائلا ، وقال : إن شواهد الواقع — كما يراها في الميناء — تثبت عكس ذلك ، فمن الواضح أن سفينته (المتدرة) سوف تفرغ شحنتها قبل (رمسيس) بدليل أنها زحفت إلى رصيف التفريغ وراء (أورانيا) مباشرة التى انتقلت من الرصيف صباح هذا اليوم إلى رصيف آخر بعيد ، هو الرصيف الذى سيدفعها مباشرة إلى عرض البحر ، ولن تستغرق سفينة (المتدرة) أقل من هذه المدة التى تحددها السفارة لـ (رمسيس) في الميناء في تفريغ وشحن لكى تخلى الرصيف بعد ذلك (لرمسيس) : أى أن (رمسيس) مع التفاؤل الشديد لن تغادر الميناء قبل أربعين يوما على الأقل .

وبرغم أن كلام « التشيف أوفسر » مبنى على شواهد واقعية وخبرة دقيقة بأساليب العمل في المواني فإن « الفلاح » كان ميالا في الواقع لتصديق وعد السفارة المصرية ، أو لعله كان يرجو في أعماقه أن يتحقق وعدها . ومهما يكن من أمر فإن الاتصال بالسفارة فتح آفاقا جديدة للمعرفة ، وروافد للمتعة ، فقد تلقى الصحفيون دعوة بالحضور إلى العاصمة وزيارتها ، وقد زاد الأمر روعة أن « الفلاح » اكتشف صديقا حميما له يعمل في الصحافة مراسلا دائما وهو باستمرار في دار السفارة تمنى « الفلاح » لحظتها أن يطير إلى هناك ليلتقى هو وصديقه وقد أدرك لأول مرة أنه سيستمتع بالرحلة حقا . .

وفي طريق عودتهم من مكتب « الايجنت » إلى السفينة كان « الفلاح يرسم في ذهنه كيف سيكون اللقاء بينه وبين صديقه الحبيب ؟ وما الذى سيقولان ويفعلان ؟ وكان في قمة النشوة ، إذ يفيق فجأة فيرى نفسه يتواعد هو وصديق له ، ليس على المقهى في شارع عماد الدين فوق الجريدة بل في مكان ما في إحدى العواصم الأوروبية الشهيرة .

٤

ما إن دخل « الفلاح » السفينة حتى أخبره أكثر من واحد أن هناك من يسأل عنه . فلم ينشغل كثيرا ، لأنه كان يحاول أن يتذكر كل ما مر به خلال هذه الشهور ليحكيه لصديقه وما حدث من أصدقائهما في القاهرة ، ليتندرا به ، ويضحكا ، ثم إنه دعى للغداء ، فاقتحم الصالون دون تسويف ، ولا يتذكر ماذا كان الغداء يومها مع أنه أكل بشهية مفرطة ، وتحدث مع « حسين » و « إيناس » كثيرا ، وترنم مع « عفاف راضي » وهي تردد في إذاعة السفينة للمرة المليون ربما : يهديك ؟ ! يرضيك . !

لم يكن قد فرغ من شرب الشاي حين جاء السفرجي وأخبره أن هناك من ينتظره في قمرة « التشيف أوفسر » فخيل للفلاح أنه في القاهرة في مكتبه . وأن أحد أقاربه جاء يسأل عنه ، فصعد إليه . فلما دخل قمرة « التشيف أوفسر » وجده جالسا مع « تشيف أوفسر » السفينة (أورايا) يشربان الشاي ، فسلم عليهما وجلس ، وإذا به « تشيف أوفسر » السفينة (رمسيس) يقول له :

— مبروك يا عم ألف مبروك . .

مبروك على ماذا ؟

قال « التشيف أوفسر »

— خلاص .

— خلاص ماذا ؟

— مسافر مع أورايا . .

كيف ؟ معقول !

قال « التشيف أوفسر » السفينة (أورايا) :

— نعم . وقد أخلينا لك قمرة « السير إنجنير »

اقشعر بدن « الفلاح » من الفرح أو من الأسف لا يدري ؟ فهل هو فرحٌ ، لأنه أخيرا سوف يعود إلى بلاده وأولاده وأصدقائه أم هو آسف ، لأنه يصادر على نفسه فرصة جديدة للاستمتاع بلقاء صديق ؟ إن هذا اللقاء هو لب الرحلة ، هو بعض ذكرياتها العزيزة فيما بعد ، فكيف ينسحب أيضا من فرصة العودة هذه التي جاءته من السماء . ؟

قال « التشيف أوفسر » السفينة « أورايا » :

— ولن تدفع شيئا ، والأكل والشرب على نفقتنا .

— هكذا ؟ .

— نعم ، لقد تكلمت مع الربان في الأمر فأبدى ترحيبا شديدا ، ثم اتصل بالأولر ، في اليونان وحصل منه على دعوة مجانية لك . . .

حينئذ استطاع « الفلاح » أن يتيقن أنها الفرصة التي يقشعر منها بدنه ، واقتحمه في الحال شعور طاغ برفض البقاء . لا يدري لِمَ ؟ ومع ذلك قرر أن يعطي نفسه فرصة للمراجعة . غير أن « الشيف أوفسر » السفينة . (أورايا) قال له : إن عليه أن يعطيه الرد الحاسم من الآن . إذ إن هناك إجراءات لابد أن تتم قبل أن يصرح له بالانتقال من سفينة إلى سفينة أخرى . .

ووجد « الفلاح » نفسه يرد بالموافقة .

٥

في العشاء والشمس لا تزال ضيقة على الصالون — انتشر الخبر في السفينة انتشارا

مذهلا ، وجاء رئيس الصالون يرجو « الفلاح » رجاءً حارا فى البقاء ويقبل رأسه حتى يكى « الفلاح » وشعر بضرورة البقاء للتمتع بكل هذا الحب ، ولكن لم يكن هناك مفر .

وقالوا : إن عليه أن يذهب « إلى الإيجبت » ليجرى عملية يسمونها « ترانسفير » أى إجراءات الانتقال من سفينة إلى أخرى ، وهو إجراء يخص بوليس الميناء .

وفى الصباح أحس « حسين » أن محاولاته فى إقناع « الفلاح » وإغرائه بالبقاء ذهبت سدى ، فظل نائما حتى الضحا وأحس « الفلاح » بشىء من الجفاء يسود العلاقة بينهما . وهو جفاء لا يبشر بخير أبدا ، فذهب وحده الى مكتب « الإيجبت » فلما التقيا حاول التفاهم معه فلم يوفق فاستأذن وانصرف كالمغلوب على أمره !

فى مواجهة مكتب « الإيجبت تماما مكتب شركة « مارتيرانس » حيث يجلس المندوب وجد « الفلاح » فرصة سانحة ، فاقتحم المكتب وشرح للمندوب الأمر ، فشهامة مصرية أصيلة قام بنفسه وذهب إلى « الإيجبت » واستفهم منه عن طبيعة الإجراء وتفاصيله ، ثم جاء واصطحب « الفلاح » إلى السفينة (أورابيا) لمقابلة الربان .

٦

هب الربان واقفا فى بشاشة واستقبلها فى منتصف الطريق ضاحكا مرحبا كم هو ربان ظريف غاية الظرف ! بترجمة من المندوب عرفه « الفلاح » بنفسه ، فأخبره الربان أنه على الرحب والسعة ، وأنه اتصل « بالأونر » فى اليونان وحصل منه على دعوة مجانية ثم جلس معهما وقدم لهما السجائر ، وراح يسأل « الفلاح » عن شعوره وهو يركب السفينة « رمسيس » لأول مرة ، فقال له : إنه على قدر إعجابه بعالم

البحر الساحر – يعترف أنه دون احتمال حياته فبقدر سحرها تحتاج لقوة احتمال !

ثم إن الربان تكلم كثيرا عن مصر وقال : إنه فى سنة ١٩٥٨ كان فى زيارة لها استمرت وقتا طويلا ، وإنه ليعجب كيف يعيش الشعب المصرى بكل هذا الصبر ، لأن الغلاء أيامها كان فاحشا ، فسأله « الفلاح » متشككا : هل تتكلم عن سنة ١٩٥٨ ؟ قال : نعم ، فلم يستطع الرد عليه ، لكنه بعد برهة قصيرة قال له : إن الشعب المصرى لديه طاقة عظيمة على التضحية لا توفر فى أى شعب آخر ، وإنه يستطيع الاحتمال بما لا يقاس ، وإن هذه الميزة هى فى نظر « الفلاح » أساس كبير من أسس التقدم لا تملكه إلا الشعوب التى خلقت لتكون عظيمة .

فابتسم الربان بإعجاب ، وهز رأسه موافقا ، ثم سأله المندوب عن طبيعة الإجراء المسمى بالـ « ترانسفير » فقال : إنه بنفسه سيقوم بإجرائه ، ثم إنه نهض فى الحال ، وارتدى معطفه فوق بذلته ، الرسمية وتقدمها .

٧

ودخل بهما مكتب « الإيجبت » وقال له إن معه « جورناليست » سوف ينتقل من السفينة « رمسيس » إلى السفينة « أورابيا » فقام الموظف المختص بطلب البوليس وإبلاغه التفاصيل ، ثم أخذ اسم « الفلاح » وقال له : إنه يستطيع أن ينقل حاجاته إلى (أورابيا) فى الوقت الذى يشاء بشرط أن يحدده من الآن . . فحدده « الفلاح » بصباح السبت ، وانصرف الربان ، وعاد هو إلى (رمسيس) لتناول الغداء .

غير أنه عند البوابة قابل « حسين » و « إيناس » قادمين من البلد ، فاستوقفهما وقال « حسين » : إن السفارة المصرية أكدت له فى مكالمة ثانية دعوتهم لزيارة برلين

الشرقية لمدة عشرة أيام على نفقة كل من التليفزيون الألماني ومحطة الإذاعة والتليفزيون الألمانية وإنهم لن يخسروا شيئا بل إنهم سيعيشون في أعظم فنادق المدينة ، وسوف يتنقلون من « برلين » إلى « وارسو » ومن « وارسو » الى « بولندا » حيث يتقابلون والسفينة في جدانسك » وأخيره أن « محمد عبد الفتاح » المستشار الإعلامي بالسفارة – سر لما علم بقدوم « الفلاح » وأن صديق « الفلاح » كان هناك بالصدفة ، وهو يريد أن يراه .

ولم يكن « الفلاح » في حاجة إلى الإغراء لكي يفكر في الرجوع عن العودة والانتظار للاستمتاع بهذه الزيارة ، ولكنه لم يكن يستطيع ذلك بعد الإجراءات التي تمت ، واستأذن « حسين » ليذهب إلى مكتب « الايجنت » كي يكلم السفارة ليبلغها – على حد قوله – بأن تصميم « الفلاح » على السفر ، حتى لا يعملوا حسابه عند الحجز في أحد الفنادق أو في القطار الذي سيركبونه إلى « برلين » والحكاية بالطبع لم تدخل دماغ « الفلاح » وإن كانت صحيحة . فواصل السير إلى المدينة ليشتري بعض الأشياء بآخر ما معه من نقود .

ظل حتى الثالثة يجول في المدينة وقد تغير إحساسه بها ، فبدأت تكتسب في نظره طزاجة غير معهودة ، وبدأ يحس كأن شوارعها تريد أن تستبقيه أسابيع أخرى ! والغريب أنه كان قد بدأ – في نفس اللحظة – يستعذب الإحساس بألم الفراق .

وفي طريق العودة التقى هو وأفراد الطاقم ، وعرف منهم أن الغداء اليوم كان دجاجا ، ولكن الساعة كانت قد تجاوزت الثالثة . أي أن الغداء ضاع على « الفلاح » لكنه حين دخل السفينة وجد رئيس الصالون باقيا في انتظار عودته ، فأكبر فيه هذا القدر من الحب وأحس أنه قد شبع تماما وليس في حاجة الى أي طعام !

٨

في المساء اجتمعت السفينة كلها في قمرة « الفلاح » كانوا جميعا يلحون في استبقائه وكان « التشيف أوفسر » قد اكتأب اكتئابا واضحا ، وظل يؤكد للفلاح ، أنه سيترك بالسبة له فراغا هائلا ، وكان واضح الصدق إلى حد كاد يشل حركة « الفلاح » ويمنعه من مغادرة السفينة .

ثم تذكر أنه استعار من الربان كتابين فقرر أن يذهب إليه ويجلس معه قليلا كنوع من الوداع ، وحين نظر إلى الرف لم يجد الكتابين ، فسأل عنهما ، فقال له الطالب إن الربان دخل وأخذهما لما علم بأنك تنوي السفر .

٩

ذهب « الفلاح » إلى الربان وهو يحترم البصق في وجهه جزاء هذه الحركة الصبيانية الرخيصة : كيف يقتحم قمرة « الفلاح » ويأخذ منها كتابين حتى ولو كان الكتابان ملكا له ؟ لكنه عند بابه تذكر أن هذا الربان لا يتورع عن فعل أي شيء ، وأنه يمكن أن يعرقل سفره فآثر بأن يسترعي نظر الربان لسحف تصرفه ، وصبيانيته ! ولم يقبل اعتذاره أوحجته ، ذلك أن حجته كانت في منتهى التفاهة والسذاجة ، إذ قال : إنه دخل القمرة ليقول للطالب : احلق ذقنك ياولد ، فرأى الكتابين أمامه ، فأخذهما ، فضحك « الفلاح » ضحكا شديدا .

ثم إنه قام ليتصرف فطلب منه الربان كتابة ورقة تفيد أن « الفلاح » سافر برغبته وأن أحدا لم يتعرض له بسوء يضطره إلى قطع الرحلة فكتب « الفلاح » خطابا موجها للربان يشكره فيه على حسن ضيافته وكرم أخلاقه .

١٠

وكان المساء حافلا وجميلا ومليئا بالشجن ، كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل ، وتسلل من يحترمون الاستيقاظ مبكرا من أجل وردية أو لشراء السجائر وبيعها داخل الميناء ، فبدأ « الفلاح » ينظم حقائبه : فتح الدولاب ، وظل يستخرج منه أشياء ، عجب كيف كانت كلها فى الدولاب : شاى وسكر وتفاح وسجائر وأدوية وورق تواليت وبن وجبنة وزيتون وأومو وصابون وبسكويت ، بالإضافة إلى كتبه وأوراقه وملابسه واستغنى عن كثير من الأشياء التى لا مكان لها فى الحقيبة رغم اعتزازه بها . .

حانت منه نظرة إلى السرير ، كان الطالب زميله فى القمرة قد جلس فوق السرير منكس الرأس فى اكتئاب يجاهد لكى يمنع نفسه من البكاء وقد ظل الصمت مضروبا بينهما لفترة طويلة حاول « الفلاح » أن يقطعه من حين لآخر بضحكة ، فيكتشف أن صوته قد غلاه الصدأ ، وفجأة نطق الطالب . رفع وجهه الريق المستطيل . وقال بضراعة :

– إنت برضه ناوى تسافر ؟ طاوعنى سوف تندم ! أكمل الرحلة معنا ثم إنى لن أتصور هذه القمرة بدونك فتساقطت دموع « الفلاح » وقال :

– الرحلة قد انتهت بالنسبة لى !

وقال له أيضا إن السفينة كما وردت آخر الأخبار – لن تذهب إلى بولندا وفنلندا وإنما ستبحر من ويزمار إلى الإسكندرية مباشرة ، فالانتظار إذن غير ذى موضوع . وهنا انفجر الطالب :

– هذا هو عيب العمل فى البحر ، من الصعب على الإنسان أن يفارق مرتين :

مرة فى الابتداء ، وأخرى فى منتصف الرحلة .

فتمزق « الفلاح » من هذه الكلمة الحادة جلس وقد تخاذلت قواه ، فلم يكمل تنظيم الحقيبة وصار يرتعش كلما أمسك بشىء ، لكن « التشيف أوفسر » دخل فجأة وقال : إنه لم يجد للنوم سبيلا ، وحين رأى أمعاء الدولاب مبعثرة على الأرض والحقيبة مفتوحة شرع ينظمها بخبرة البحار المعتاد السفر ، وكان الطالب ينظر إليه بغيظ ويعتبر أن هذه المعاونة تشجيع على السفر ، على أن « التشيف أوفسر » كان موقنا أن « الفلاح » لن يزاحم ، فلقد كان معاصرا لحالته النفسية طوال الرحلة . .

رافقه « الفلاح » وهو يجاور الحقيبة بشتى الطرق ، والحيل دون جدوى ، وفى النهاية تركها وذهب إلى قمرته . ثم عاد بحقيبته التى لا تقل عن صندوق فرعونى كبير فتحها ، فكانت كجنة موسى إذ ابتلعت كل الحقائب الصغيرة فى جوفها !

ثم جلسوا يدخنون فى انتظار الصباح .

بداية النهاية

١

كانت لحظة الوداع قاسية ومشحونة ، ولم يكن « الفلاح » يعرف أنه يمكن أن يكون محبوبا إلى هذا الحد . فطوال اليومين الماضيين وطاقم السفينة كله يلح فى استبقائه . وفى السابعة صباحا طلب « الشيف أوفسر » فطورا خاصا للفلاح فى قمرته ، ثم جاء كل من « عطيطو » و « وأبو العبط » ليحملا حقائب الفلاح إلى السفينة (أورابيا) وكان « حسين » و « إيناس » قد تيقظا أيضا . واستعدا لوداع « الفلاح » ثم إنهم خرجوا فى زفة كزفة العروس إلى الرصيف الذى تقف عليه السفينة «أورابيا» .

أعطى « الفلاح » ورقته للعسكرى الواقف فى كشك أمام السفينة ، ولما أخبروه أن « الفلاح » أجرى ما يسمى بالـ « ترانسيفير » استبقاه ومنعه من الدخول حتى يتيقن ، فخرج من كشكه وانزوى جانبا ، وصار يتكلم فى جهاز اللاسلكى الخاص به ، ثم سمح له بالدخول إلى أن يحضر البوليس .

التساقط ! ليس بدافع من الشحنات العاطفية التى ملأه بها أفراد الطاقم فحسب وإنما لأنه أحس بشىء من عدم الوفاء للسفينة (رمسيس) وأحس كأنه يتخلى عن إنسانة أحبها كثيراً وتحملت نزواته وآوته خمسين ليلة بخمسين يوماً .

وحين دخل القمرة التى أعدوها له فى (أورابيا) أحس بأنه متطفل وغريب . فلما عاد وجلس فى الصالون راح يتأمله محاولا أن يحبه بنفس القدر الذى أحب به صالون وقمرات وممرات السفينة (رمسيس) إنه صالون يخالف صالون (رمسيس) بقدر ما يخالف نظام السفينة كلها — نظام السفينة (رمسيس) : فصالون رمسيس قريب الشبه بالمحال العامة أو المطاعم ، والكازينوهات ، أما صالون (أورابيا) فهو صالون بيتى ، ذو طابع كلاسيكى خالص : الجدران المدهونة بالزيت حتى منتصفها ، والباب المدهون بالأويما والمقابض النحاسية اللامعة ، إذ تدخل من بابه تجد على يسارك كنبة فوتى أمامها ترابيزة أكل مستطيله مثبته فى الأرض . وعلى يمينك فى الطرف المقابل ثانية . وفى الوسط ترابيزة ثالثة تتسع لأربعة كراسى فوتى .

فأفاق فإذا الصالون خال تماما إلا من « الفلاح » وكانت الساعة قد وصلت إلى الثانية عشرة ظهرا ، والبوليس قد انصرف مزودا بالسجائر والويسكى ، وطاقم السفينة فى حالة استعداد ، « والبايلوت » يقوم بإجراء المناورة للتحرك ، وإذا بالسفرجى العجوز الأصل يجىء ويضع الغداء للفلاح وأطباق حافلة بالأسماك والأرز والزبد والعيش والبقصمات الطرى ، وسلاطة الطحينة ، والتفاح الأمريكانى .

ما إن شرع « الفلاح » يأكل حتى أحس بشعور داخلى أن السفينة بدأت تتحرك ، فترك الأكل وقام يجرى ليلقى نظرة أخيرة على « ويزمار » وترقرقت فى عينه دموع .

المحتويات

	صفحة
كيف اكتشف الفلاح معنى حرات مالطة	٥
السفينة والخليج وتيار السحب إلى القاع	٢٥
ألمانيا الغربية تستقبل الفلاح	٤٣
هولندا – أي رمى الحقول في البحر	٦٢
الفلاح يكتشف أنه «ف – آي – بي»	٧٣
حفل التدشين على الرصيف المفتوح	٩٥
مغامرة الفلاح في الميناء	١٠٥
الشباب والقطاع الخاص والوهم الكبير	١١٨
الفلاح يجلس على يسار المائدة	١٢٩
لغز العلب الفارغة	١٣٧
مشهد من الأتوبيس	١٤٣
مزرعة الفيلات	١٥٢
الفلاح في قصر الكاردينال	١٦٦
لقاء مع جنية البحر	١٩٢
كرنفال الأشباح	٢٠٨
مهمة الفراق	٢٢٦
بداية ونهاية	٢٤٢

رقم الإيداع	١٩٧٨/٤١٤٠
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٣٨٣ – ٦

٤١/٧٨/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)